الخصائص البلاغية للبيان النبوي

تأليف

دكتور/ محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي

(1428) هـ (2007) م

مكتبة الرشد

إهـداء

إلى الحبيب المصطفى ﷺ النبي الأمي الذي علم المتعلمين

مقدمة وتمهيد

الحمد لله والصلاة والسلام على صاحب الحوض المورود، واللواء المعقود، من أوتى جوامع الكلم، وروائع الحكم، محمد بن عبد الله إمام البلغاء، وسيد الفصحاء.

وبعـــد

فإن أحاديث نبينا ﷺ قد حوت صنوف البلاغة، وألوان الفصاحة، وعبرت أدق تعبير عن سمو النفس التى خرجت منها، وبينت المنبع العذب الذى نهلت منه، وكما يقول الجاحظ عن بلاغته ﷺ: "... فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام ،وقلة عدد الكلام...، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ... " (1)

وهذا الجمال الفنى فى بلاغته ﷺ إنما يرجع إلى سموه الروحى، واتصاله بالملأ الأعلى، حيث أراد الحق سبحانه أن يكون النبى ﷺ بدعوته نقطة تحول فى حياة البشرية وتاريخها. ولقد بدأ فى أمة تنقاد للبيان، وتخضع لسلطان الفصاحة، فلا عجب أن كان أبلغهم وأفصحهم، وكما يقول الرافعى: " إن ذلك الجمال الفنى فى بلاغته ﷺ إنما هو أثر على الكلام من روحه النبوية الجديدة على الدنيا وتاريخها... فهو كلام كلما زدته فكراً زادك معنى، وتفسيره قريب كالروح فى جسمها البشرى، ولكنه بعيد كالروح فى سرها الإلهى...، فهو لسان وراءه قلب وراءه نور وراءه الله جل جلاله...، فكلامه ﷺ يجرى مجرى علمه، كله دين وتقوى وتعليم، وكله روحانية وقوة وحياة... " (2)

ولأجل ذلك بنيت البلاغة النبوية على أصول ودعائم (3)، لأن مهمته ﷺ " **التبليغ** " حيث يقول تعالى آمراً النبى صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: 67)، ويقول تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ...﴾ (

---

(1) ينظر البيان والتبيين 18,17/2 ط دار الجيل – (1410) هـ (1990) م

(2) ينظر وحى القلم 6/3- 9 ط دار الكتاب العربى – بيروت.

(1) يرى الرافعى أن بلاغة النبى صلى الله عليه وسلم بنيت على ثلاث دعائم: الخلوص، والقصد، والاستيفاء. والتفصيل فى كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص282 ط مكتبة الإيمان – ط أولى – (1417) هـ

الشورى: 48)، ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ (الأحزاب: 45،46) إلى غير ذلك من الآيات التى تبين أنه صلى الله عليه مبلغ عن ربه ومبشر ونذير.

وعن هذه الناحية يقول العقاد: "... ولصدق هذه الدلالة ترى أن السمة الغالبة على أسلوب النبى فى كلامه المحفوظ بين أيدينا هى سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى...، بل هى السمة الجامعة لما تفرق من سمات أخرى هى منها بمثابة الفروع " [1]

ومع مكانة هذا البيان النبوى، وما له من شرف ومنزلة لم يحظ بما يستحقه من العناية فى الناحية البلاغية مع شرفه ومنزلته ومكانته فى دنيا الناس، ولم نحظ فى تراث الإسلام الحفيل بدراسات كثيرة للبيان النبوى، فنجد فى كتب الأدب والبلاغة إشارات موجزة إلى منزلة البيان النبوى، أو ذكر لبعض الخطب والأحاديث النبوية التى تشتمل على أسرار بلاغية، وهى أحاديث معروفة مشهورة ينقلها اللاحق عن السابق [2] كما فى البيان والتبيين للجاحظ، والمثل السائر لابن الأثير، وغيرهما من كتب البلاغة والأدب.

وكأن بلاغته ﷺ تنحصر فى هذه الأحاديث دون غيرها، ولقد أشار إلى ذلك بعض الباحثين العصريين، ومنهم: أ.د. محمد رجب البيومى حيث يقول: " إن كتاب الله الخالد قد شغل جمهور النقاد وأئمة البلاغة فى القديم والحديث بدراسة إعجازه، فأطالوا القول كما يشاءون...، ولم يشحذ أحد هؤلاء همته ليخص البيان النبوى بدراسة تحليلية فى كتاب خاص تظهر روائع إبداعه ﷺ، وتوضح سمات إسلوبه، ومع كثرة ما كتب عن تاريخ النبى ﷺ قديماً وحديثاً... قل أن تجد من أفرد فصلاً خاصاً فى مؤلفه الكبير يتعرض فيه إلى البيان النبوى فى تدفق وإسهاب إلا ما كان من إشارات عابرة تنبئ عن أنه أفصح العرب، وقد نشأ فى قريش، وتربى فى بنى سعد فرزق بلاغة وبياناً، وأوتى جوامع الكلم، فإذا تجاوز ذلك فإلى أمثلة نبوية مشتهرة من نحو قوله ﷺ: " **يا أنجشة رفقاً بالقوارير** " [3]، وقوله: " **هدنة على دخن** " [4]، حتى البلغاء من أمثال الجاحظ،

---

(2) ينظر عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم ص 83 – ط دار الكتاب العربى – ط أولى – (1391) هـ (1971) م

(3) مثل قوله صلى الله عليه وسلم: " هذا حين حمى الوطيس "، وقوله: " هدنة على دخن ". والحديث الأول أخرجه مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب – باب غزوة حنين – 116/12، والحديث الثانى أخرجه أبو داود من حديث حذيفة – كتاب الفتن والملاحم – باب ذكر الفتن ودلائلها 212/11

(1) أخرجه مسلم من حديث أنس – باب رحمته صلى الله عليه وسلم النساء والرفق بهن – 80/15

(2) سبق تخريجه.

وأبى هلال، وابن الأثير قد اقتضبوا القول فى سرعة طائرة دون أن يطيلوا القول الشارح فى دقة واستقصاء...، أما الشريف الرضى فقد خص المجازات النبوية بكتاب خاص، فسد مسداً لم يسده أحد قبله، أو بعده، ولكن المجاز ليس إلا باباً من أبواب البيان النبوى " [1]

ولقد قام بعض الباحثين العصريين بمحاولات طيبة، وجهود مخلصة لدراسة البيان النبوى [2] إلا أنها بحاجة إلى إضافة باستمرار لنكشف للناس عن أسرار هذا البيان النبوى المبدع، ولسد العجز فى مكتبتنا العربية فى هذا الجانب المهم، فبلاغته ﷺ متعددة الجوانب منها ما يتصل بالأسلوب وسماته، ومنها ما يتصل بالتصوير البيانى ومنها ما يتصل بالجانب الأدبى والقصصى فى بيانه ﷺ إلى غير ذلك من الجوانب، ولقد استخرت الله عز وجل فى كتابة صفحات أبين من خلالها الخصائص البلاغية لأسلوب الحديث النبوى إسهاماً بجهدى المتواضع فى خدمة البيان النبوى، وقبل الشروع فى البحث هناك **بعض الأمور التى تتصل بمنهج البحث وخطته ولابد من بيانها**.

أولاً: هذا البحث يرمى إلى غرضين أساسيين. أحدهما: بيان الخصائص البلاغية لأسلوب الحديث النبوى. ثانيهما: التطبيق على نماذج مختارة من أحاديث نبينا ﷺ.

أما عن الغرض الأول وهو بيان الخصائص البلاغية فلقد أفدت مما كتبه القدماء والمعاصرون فى هذه الناحية، ونقلت ولخصت من كلامهم ما يخدم الهدف من البحث، وعقبت على ما يستحق التعقيب.

---

(3) ينظر البيان النبوى ص 5 – ط دار الوفاء – ط ثانية – (1423) هـ (2002) م

(4) منها كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى فى الجزء الخاص بالبيان النبوى، وبحث فى بداية الجزء الثالث من كتابه وحى القلم، والبيان النبوى للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى، والحديث النبوى من الوجهة البلاغية للأستاذ الدكتور / عز الدين السيد، والتصوير الفنى فى الحديث الشريف للأستاذ الدكتور / محمد لطفى الصباغ، وغيرها من الدراسات والبحوث. ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك كتباً تحمل عنوان الأدب النبوى إلا أنها دراسات تحليلية تتناول الجانب الأخلاقى والتشريعى، والدروس المستفادة لا الجانب البلاغى والأدبى مثل كتاب أدب الأحاديث القدسية للأستاذ الدكتور / أحمد الشرباصى، وقطوف من الأدب النبوى للأستاذ / رياض صالح، والأدب النبوى للأستاذ محمد الخولى، وغيرها من الدراسات. وهناك كتب فى بلاغة الحديث النبوى إلا أنها تتبنى المنهج العلمى الاصطلاحى بعيداً عن الاتجاه الأدبى الذى سنسير عليه إن شاء الله فى هذا البحث، ومن هذه الكتب: كتاب من بلاغة الحديث النبوى للأستاذ الدكتور / محمد أحمد سحلول – ط دار الأصالة – ط أولى – (14166) هـ (1996) م.

أما عن الغرض الثانى: وهو التطبيق على نماذج من البيان النبوى فجزء كبير من جهدى وعملى فى هذا البحث يتمثل فى هذا الغرض فيما يتعلق باختيار الأحاديث والتطبيق عليها مع الإفادة من كلام السابقين وجهودهم فى هذا الميدان، ويعد هذا الباب من أبواب البحث – وهو الباب الرابع – من أهم الأبواب وأوسعها وما قبله من أبواب مقدمة له، ومابعده تتمة له.

ثانياً: الأحاديث التى طبقت عليها وتناولتها بالتحليل البلاغى انتقيتها من كتاب جامع الأصول لابن الأثير [1] وكتاب مشكاة المصابيح للتبريزى [2] وكتاب رياض الصالحين للنووى [2]

---

(1) وهو الإمام مجد الدين المبارك بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى الشافعى أبو السعادات المشهور بابن الإثير ت(606)هـ ,.وأسرته معروفة بالعلم والأدب والفضل، وأخوه عز الدين على بن أبى الكرم محمد ابن محمد بن عبد الكريم الشيبانى ت (630)هـ، وأخوه أيضاً أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ت (637)هـ ينظر فى تراجمهم ومؤلفاتهم بنو الأثير الفرسان الثلاثة للأستاذ| محمد الحمدان – ط المكتبة الصغيرة – ط أولى –(1394)هـ (1974)م. أما عن كتاب جامع الأصول فلقد بين ابن الأثير فى مقدمة الكتاب الغرض منه وهو جمعه بين الأصول الستة وهى البخارى ومسلم والموطأ ,وجامع أبى عيسى الترمذى، وسنن أبى داود السجستانى، وسنن أبى عبد الرحمن النسائى رحمهم الله مع ترتيب الكتاب على الأبواب دون المسانيد، وشرح ما فى الأحاديث من الغريب والإعراب والمعنى وغير ذلك. وأصل الكتاب هو تهذيب لكتاب رزين الذى حوى الكتب الستة, فقام ابن الأثير بتهذيب هذا الكتاب، وترتيب أبوابه، وتسهيل مطلبه، وسماه كتاب جامع الأصول فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. ينظر مقدمة جامع الأصول 1/20-22 ط دار إحياء التراث العربى –بيروت–ط رابعة (1404)هـ(1984)م. وهذا الكتاب القيم له مختصرات منها مختصر أبى جعفر محمد المروزى الاستراباذى, ومختصر الشيخ عبد الرحمن بن على الشهير بابن الديبع الشيبانى اليمنى وهو من أحسن المختصرات سماه تيسير الوصول إلى جامع الأصول, وغير ذلك من المختصرات. ينظر كشف الظنون1/535-537

(2) وهو الإمام ولى الدين أبوعبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمرى التبريزى توفى بعد دخول سنة (740)هـ وقد تمم بكتابه " المشكاة" كتاب مصابيح السنة للإمام البغوى حيث أضاف الراوى للحديث, وذكر مصدر الحديث من كتب الأئمة الأعلام, وزاد فصلاً ثالثاًعما وضعه الإمام البغوى, وذكر فيه ما يخص الباب الذى ترجمه الإمام البغوى من الأحاديث التى قد تحوى الصحيح وغيره,وذلك بالرجوع إلى مصنفات الأئمة المشهورين مما لم يذكر الإمام البغوى فى مصابيحه، وقد جمع فى هذا الكتاب ستة الآف حديث ومائتين وأربعة وتسعين حديثاً(6294) منتخبة من دواوين السنة، وقد طبع أكثر من طبعة مع شرحه الكاشف عن حقائق السنن للإمام شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبى ت(743)هـ والطبعة التى اعتمدت عليها هى طبعة دار الكتب العلمية – ط أولى- (1422) هـ (2001)م وهى طبعة محققة ينظر شرح الطيبى على مشكاة المصابيح 1/10,9,4, وكشف الظنون 2/1700,1698.

(1) وهو الإمام محى الدين النووى ت (676)، هو غنى عن التعريف، وكتابه رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين معلوم للعام والخاص، وهو من الكتب التى تسمى بالمختارات: أى يختار مؤلفوها عدداً من

والكتاب الأول جمع أحاديث الصحيحين، والموطأ، وأبى داود، والترمذى والنسائى، والكتاب الثانى جمع من أحاديث الصحيحين، وأصحاب السنن، وغير ذلك من كتب الحديث، والكتاب الثالث من كتب المختارات كما هو معلوم ،ولقد راعيت عزو كل حديث إلى مصدره، وبذلت جهداً فى انتقاء واختيار الأحاديث من جامع الأصول [1] ومشكاة المصابيح أسأل الله أن يجعله فى ميزان حسناتى إنه سميع قريب مجيب.

ثالثاً: منهج البحث يقوم على أن أقدم فى كل موضوع وفى كل خصيصة بما انتهى إليه البحث البلاغى فى هذا الموضوع لأبين الضوابط التى ذكرها البلاغيون لهذه الخصيصة كما فى خصيصة الإيجاز وغيرها، والهدف من ذلك أن أوضح أن بيان النبى ﷺ يتربع على قمة البيان البشرى من خلال الربط بين بيانه ﷺ وما وضعه البلاغيون من ضوابط وقواعد، كذلك لأبين أن بيانه ﷺ من أسس هذه الضوابط التى وضعوها، وأن أفضل نماذج التطبيق إنما تكمن فى هذا المعين الصافى، وفى هذا المنهل العذب المورود، والأصل أن تطوع هذه القواعد البلاغية لخدمة القرآن الكريم والحديث النبوى لأنها نشأت بسبب منهما (3)

فالقرآن والسنة كلاهما وحى من الله إلا أن القرآن وحى بلفظه ومعناه، والسنة وحى بالمعنى دون اللفظ، ولكن مع تأييد الله وتوفيقه للنبى ﷺ فى اختيار اللفظ الدقيق المعبر الجامع الموجز، وهذا مما يجب التنبه إليه ،لأن السنة النبوية تتعرض اليوم لحملات شرسة من أعداء الإسلام الذين يريدون أن يسلبوها هذه الخصوصية " خصوصية كونها وحى من الله عز وجل بالمعنى[2].

الأحاديث من كتاب واحد أو من كتب متعددة، ومن أشهرها: رياض الصالحين، والترغيب والترهيب.
ولرياض الصالحين شروح قديمة وحديثة . منها: دليل الفالحين لابن علان الشافعى، ونزهة المتقين للدكتور. سعيد الخن وآخرين

(2) جامع الأصول فى الطبعة التى استندت إليها يقع فى اثنى عشر مجلداً، ومشكاة المصابيح مع شرح الطيبى يقع فى أحد عشر مجلداً.

(3) يراجع للاستزادة إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص 262, وتاريخ الأدب العربى – العصر الإسلامى 141,140/2 أ.د. شوقى ضيف، وتأثير الفكر الدينى فى البلاغة العربية 12- 14أ.د. مهدى السامرائى.

(1) فالقرآن والسنة كلاهما وحى من الله قال تعالى خطاباً لنساء النبى صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ (الأحزاب: 34) ذكر المفسرون أن الحكمة هى السنة. ينظر الطبرى 8/22، وابن كثير 454/3, والقرطبى 119/7, والنيسابورى 10/2، والبغوى 529/3، وأحكام القرآن لابن العربى 572/3. وعن المقدام بن معدى كرب رضى الله عنه قال قال رسول

رابعاً: منهج التحليل البلاغى للأحاديث يقوم على الجمع بين اتجاهين: الاتجاه العلمى، والاتجاه الأدبى[2] مع ظهور الاتجاه الأدبى لأهميته، ودوره فى إبراز أسرار البيان النبوى، وهو النهج الذى يجب أن يسير عليه البحث البلاغى، وتسير عليه الدراسة التطبيقية والتحليلية لآيات القرآن

الله صلى الله عليه وسلم: "ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله..." الحديث رواه أبو داود, وروى الدارمى نحوه، ورواه ابن ماجة إلى قوله: "كما حرم الله". مشكاة المصابيح ح(163)356/1 ويقول الطيبى: "قوله "ألا إنى أوتيت" يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما: أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو مثل ما أعطى من الظاهر. الثانى: أنه أوتى الكتاب وحياً وأوتى من التأويل مثله: أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعمم ويخصص، ويزيد وينقص، فيكون ذلك فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن، وقيل: "ومثله معه " أى أحكاماً ومواعظ وأمثالاً تماثل القرآن فى كونها وحياً، وكونها واجبة القبول, وقد تنزه نطق رسوله عن الهوى وأمر بمتابعته فيما يأمر وينهى فقال عز من قائل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى﴾ (النجم: 3) وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾ (الحشر : 7) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 356/1 وقال أبو البقاء فى كلياته : " والحاصل أن القرآن والحديث يتحدان فى كونهما وحياً من عند الله بدليل: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: 4) إلا أنهما يتفارقان من حيث إن القرآن هو المنزل للإعجاز والتحدى به بخلاف الحديث، وأن ألفاظ القرآن مكتوبة فى اللوح المحفوظ وليس لجبريل عليه السلام ولا للرسول أن يتصرفا فيها أصلاً. وأما الأحاديث فيحتمل أن يكون النازل على جبريل معنى صرفاً فكساه حلة العبارة, وبين الرسول بتلك العبارة أو ألهمه كما نتفقه فأعرب الرسول بعبارة تفصح عنه أهـ " ينظر قواعد التحديث ص 59 نقلاً عن الكليات لأبى البقاء الكفوى، وقد سبق النقل عن أبى البقاء فى معنى الحديث فليراجع. وممن أفاض فى هذا الموضوع ابن عبد البر فى كتابه جامع بيان العلم وفضله فى باب موضع السنة من الكتاب.

(2) من معالم الاتجاه العلمى: الاهتمام بالمعنى، والتحليل، والتعليل العلمى، والعناية بالمصطلح، والعناية بالتقسيم والحدود والشرح. ومن معالم الاتجاه الأدبى: الحكم، والتعليل، والتركيب (أى النظر إلى العمل الأدبى باعتباره وحدة متكاملة)، والعناية بالنص. ولمزيد من التفصيل يراجع تأثير الفكر الدينى فى البلاغة العربية.

(3) لأن إغفال الاتجاه العلمى معناه الانزلاق إلى الأهواء والأذواق الساذجة، وهذا يسلمنا إلى فوضى لا مثيل لها... ومن الجدير بالذكر أنه لم يستطع أولئك الذين غلب عليهم الاتجاه الأدبى فى البلاغة العربية أن يتخلصوا من روح الاتجاه العلمى فى مناهج بحثهم ,. كما لم يستطع أولئك الذين غلب عليهم الاتجاه العلمى أن يعزلوا أنفسهم عن الروح الأدبى فجاءت مباحثهم مشربة بالاتجاه الأدبى. ينظر تأثير الفكر الدينى فى البلاغة العربية ص 142- 144

وبيانها له، وقد ذكر الآيات والأحاديث، وأقوال أهل العلم، فليراجع كلامه لنفاسته ص558

وأحاديث النبى، كذلك التطبيق على فنون الأدب الأخرى من الشعر والنثر والعناية بالمظهر الفنى لا تعنى إغفال الجانب العلمى [3]، ولكن العناية

بالجانب الأدبى الذى أشرت إلى معالمه يرمى من ورائها إلى إعادة البلاغة إلى النهج الذى كانت عليه فى عهد عبد القاهر الجرجانى بعيداً عن العصور المتأخرة والتى ظهر عليها بوضوح معالم الاتجاه العلمى الذى أشرت إليه، فالجانب الفنى من ميزاته: نقل الإحساس بجمال النص إلى المتلقى أو القارئ بعيداً عن الناحية الاصطلاحية التى لا يعرفها إلا المتخصصون، كما أن فيه إبرازاً للناحية الجمالية فى النص الأدبى.

خامساً: إن بلاغة النبى ﷺ تتربع على قمة البيان البشرى فى أى موضوع من الموضوعات، وفى كل فن من الفنون، فالوصف فى البيان النبوى يسمو إلى أعلى آفاق الجمال، والقصة فيه تتربع فوق قمم المجد، وسمات الأسلوب وخصائصه يرتفعان إلى ذروة البيان [1]، هذه حقيقة لا مبالغة فيها يدركها من عايشوا البيان النبوى فى جانبه الأدبى، ولاعجب فى ذلك فلقد علمه ربه، وأنزل عليه الكتاب والحكمة فقال تعالى: ﴿...وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء: 113) ولقد عبر النبى ﷺ عن هذه المنحة الإلهية بقوله: " **أعطيت جوامع الكلم " وفى رواية "أوتيت "**[2] **بالبناء للمجهول فيهما**.

وبعد هذه المقدمة، وهذا التمهيد أنتقل إلى أبواب البحث وفصوله حيث يتضمن البحث خمسة أبواب، وخاتمة، وفهارس.

الباب الأول: الحديث النبوى، وأثره فى اللغة والبلاغة والأدب، ويتضمن ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحديث ومعناه.

الفصل الثانى: عناية النبى ﷺ بالبيان وإصلاحه.

الفصل الثالث: أثر الحديث فى اللغة والبلاغة والأدب.

الباب الثانى: أسباب بلاغة النبى ﷺ، ويتضمن ثلاثة فصول

الفصل الأول: أسباب بلاغته ﷺ.

---

(1) قال يونس بن حبيب: " ما جاءنا عن أحد من روائع الكلم ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ".
ينظر البيان والتبيين 2|18، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص236، 237

(2) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة – كتاب المساجد ومواضع الصلاة– 6/5

الفصل الثانى: التفسير النبوى للقرآن.

الفصل الثالث: بين أسلوب القرآن، وأسلوب الحديث النبوى.

الباب الثالث: الأداء والحوار فى الحديث النبوى، ويتضمن فصلين.

الفصل الأول: أداء الرسول ﷺ للحديث.

الفصل الثانى: الحوار فى الحديث، وأثره فى الدعوة.

الباب الرابع: من الخصائص البلاغية فى أسلوب الحديث النبوى، ويتضمن ستة فصول.

الفصل الأول: الإيجاز وجوامع الكلم.

الفصل الثانى: الجزالة والرقة.

الفصل الثالث: البعد عن التكلف.

الفصل الرابع: التصوير وضرب الأمثال.

الفصل الخامس: دقة الوصف وتنوعه فى الحديث النبوى.

الفصل السادس: القصة فى الحديث النبوى.

الباب الخامس: الأصالة والمعانى فى الحديث، ويتضمن فصلين.

الفصل الأول: الأصالة والمعانى فى الحديث.

الفصل الثانى: الاحتجاج بالحديث فى الدراسات النحوية والصرفية.

وبعد ذلك تأتى الخاتمة متضمنة أهم النتائج، ثم الفهارس.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجمع بيننا وبين حبيبه وخليله ﷺ فى جنات النعيم، إنه سميع قريب مجيب.

الفقير إلى عفو ربه

د. محمد أبو العلا الحمزاوى

الباب الأول: الحديث النبوى وأثره فى اللغة والبلاغة والأدب

الباب الأول: الحديث النبوى وأثره فى اللغة والأدب

الفصل الأول: الحديث ومعناه

الحديث فى اللغة: الجديد نقيض القديم، كأنه لوحظ فيه مقابلة القرآن، ومادة الكلمة (**حدث**) تدور حول معنى واحد: وهو كون الشئ بعد أن لم يكن. والحديث كلام يحدث منه الشئ بعد الشئ بعد أن لم يكن، **وإنما سميت العبارات والكلمات حديثاً لأن الكلمات إنما تتركب من الحروف المتعاقبة المتوالية، وكل واحد من تلك الحروف يحدث عقب صاحبه أو لأن سماعها يحدث فى القلوب من المعانى والعلوم الشئ الكثير**. قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (الطور: 34) ويجمع (الحديث) على أحاديث على خلاف القياس [1]

وقال أبو البقاء: " الحديث: هو اسم من التحديث، وهو الإخبار ثم سمى به قول ،أو فعل، أو تقرير نسب إلى النبى ﷺ، ويجمع على أحاديث على خلاف القياس " [2] وفى التدريب: يقال أثرت الحديث: بمعنى رويته، ويسمى المحدث أثرياً نسبة إلى الأثر"[3]

والحديث ما جاء عن النبى ﷺ، والخبر ما جاء عن غيره، وقيل: " بينهما عموم وخصوص مطلق، فكل حديث خبر من غير عكس. والأثر: ما روى عن الصحابة ويجوز إطلاقه على كلام النبى أيضاً "[4]

أما فى اصطلاح المحدثين فهو ما أثر عن النبى من قول وفعل وتقرير وصفة [5][6].

ويقول تقى الدين بن تيمية فى بعض فتاويه: " الحديث النبوى هو عند الإطلاق ينصرف إلى ما حدّث به عنه ﷺ بعد النبوة من قوله وفعله وإقراره، فإن سنته ثبتت من هذه الوجوه الثلاثة، فما

---

(1) ينظر تدريب الراوى 1|23، وقواعد التحديث ص 61 (2) ينظر الكليات ص 370

(3) ينظر ينظر تدريب الراوى 1|23 (4) ينظر قواعد التحديث ص 61

(5) ينظر قواعد التحديث ص 61، الحديث مصطلحه, بلاغته، كتبه ص 118

(6) ومعلوم أن علم الحديث ينقسم إلى علم الحديث رواية، وعلم الحديث دراية، والأول: يشتمل على نقل ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة. والثانى: وهو المراد عند الإطلاق هو علم يعرف به حال الراوى والمروى من حيث ذلك، وغايته معرفة ما يقبل وما يرد من ذلك. ينظر تدريب الراوى 1|21، والكليات ص 370

قاله إن كان خبراً وجب تصديقه به، وإن كان تشريعاً: إيجاباً، أو تحريماً، أو إباحة وجب اتباعه فيه، فإن الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله عز وجل، فلا يكون خبرهم إلا حقاً، وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب، وأنه ينبئ الناس بالغيب، والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات الله " [1]

وموضوع هذا العلم العظيم القدر الشريف الذكر **ذات النبى ﷺ من حيث إنه نبى، وغايته الفوز بسعادة الدارين** [2].

" **فهو من أفضل القرب إلى رب العالمين، وكيف لا يكون، وهو بيان طريق خير الخلق وأكرم الأولين والآخرين** "[3]

فمكانة هذا العلم الشريف غنية عن الذكر، ومنزلته أوضح من الشمس، وكيف لا وهو وحى من الله على لسان خاتم رسله وأنبيائه لهداية البشرية إلى طريق الحق والعدل فلا حاجة بنا إلى نقل الصفحات، وتطويل المقالات فى بيان منزلته من الدين، وبيان أنه وحى من الحق لبيان الحق على لسان رسول الحق ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: 3) وبعد أن اتضح لنا معنى الحديث فى اللغة واشتقاق الكلمة، ومعناه فى الاصطلاح عند المحدثين، وموضوعه، ومنزلته من دين رب العالمين.

وبعد أن عرفنا معنى الحديث ننتقل إلى بيان عناية النبى ﷺ بالبيان وإصلاحه وتهذيبه.

---

(1) ينظر قواعد التحديث ص 62

(2) ينظر الكليات ص 370

(3) ينظر مقدمة التقريب لنواوى مع التدريب 41/1

الفصل الثانى: عناية النبى ﷺ بالبيان و إصلاحه

لقد كان النبى ﷺ برسالته وأخلاقه ودعوته وبيانه نقطة تحول فى تاريخ البشرية جمعاء، ومما هو جدير بالذكر أن نكون على علم بأن أثر دعوته ﷺ لا يقف عند توحيد الله، وإصلاح الأخلاق والمجتمع، وإقامة شعائر الدين، بل يمتد هذا الأثر ليشمل إصلاح المنطق [1] وأداء البيان على الوجه السديد، والسمت الحسن، ولهذا جاءت أحاديث تمدح البيان السديد، وتذم التكلف، وتدعو إلى الاعتدال، وعدم الخروج على الطبع فى الكلام، وفى الأداء. فمما جاء فى مدح البيان وذم التكلف قوله ﷺ: " **إن من البيان لسحراً**" [2]

والبيان: إظهار المعنى المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب، وأصله: الكشف والظهور، وهذا الحديث بما فيه من بلاغة [3] قد يكون المقصود منه ذم التصنع فى الكلام والتكلف لتحسينه ليروق للسامعين قوله، وليستميل به قلوبهم، وأصل السحر فى كلامهم: الصرف، وسمى السحر سحراً لأنه مصروف عن جهته، فهذا المتكلم ببيانه يصرف قلوب السامعين إلى قبول قوله- وإن كان غير حق - فقد يحيل الشئ عن ظاهره ببيانه، ويزيله عن موضعه بلسانه إرادة للتلبيس عليهم فيصير بمنزلة السحر الذى هو تخييل لما لا حقيقة فيه له [4]

وقد يكون المقصود مدح البيان، والحث على تحسين الكلام، وتحبير الألفاظ لأن أحد القرينين وهو قوله ﷺ " **إن من الشعر حكمة** " [5] على طريق المدح فكذلك القرين الآخر [6] وسواء أكان المقصود هو ذم التكلف والتصنع فى الكلام أو مدح البيان فهذا الحديث دليل من أدلة عناية

---

(1) أى الكلام، ومنه قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير...) (النمل: 16) والمنطق: كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد. وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه إصلاح المنطق وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم. ينظر الكشاف 358/3, والمعجم الوسيط ص 931

(2) أخرجه البخارى من حديث ابن عمر. المشكاة ح (4783) 94/9

(3) حيث جاءت " من " هنا للتبعيض، والكلام فيه تشبيه، وحقه أن يقال: إن بعض البيان كالسحر فقلب وجعل الخبر مبتدأً مبالغة فى جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً، ووجه التشبيه يتغير بتغير إرادة المدح والذم. ينظر شرح الطيبى على المشكاة 94/9

(4) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 95/9

(5) أخرجه البخارى من حديث أبى بن كعب. مشكاة المصابيح ح (4784) 96/9. وأصل الحكمة: المنع وبها سميت اللجام حكمة لأنه بها يمنع الدابة.

(1) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 95,94/9

النبى ﷺ بإصلاح الكلام ومدح الاعتدال فيه، وذم التكلف، كذلك قوله ﷺ: " **إن من الشعر لحكمة**"

ومعنى الحديث أن من الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه، وأراد به ما نظمه الشعراء من المواعظ والأمثال التى ينتفع بها الناس. قال الشافعى: والشعر كلام، فحسنه حسن الكلام، وفضله على الكلام أنه سائر. وفى ذلك رد لمن زعم أن الشعر كله قبيح مذموم يشهد لذلك التوكيد بـ" **إن، واللام** " ولذلك أثنى النبى ﷺ على قول لبيد فقال " **أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شئ ما خلا الله باطل** " [1] ففى الحديث منقبة لـ " لبيد" وهو صحابى ،و إنما كان أصدق لأنه موافق لأصدق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿ **كل من عليها فان**) (الرحمن: 26) ولقد قال ﷺ عن أمية ابن أبى الصلت: " **كاد أن يسلم فى شعره** " وذلك بعد أن أنشده الشريد بن سويد الثقفى الصحابى من شعره مائة بيت " [2] ولقد قال ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت : " **اهج المشركين، فإن جبريل معك** " وكان يقول له: " **أجب عنى، اللهم أيده بروح القدس** " [3] ويقول له: " **إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله** "، وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " **هجاهم حسان فشفى واشتفى** "([4]) بل بين فى حديث آخر صحيح أن هجو الكفارأشد عليهم من رشق النبل فقال: " **اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليهم من رشق النبل** " [5] فهنا الشعر الهادف الحسن النافع سلاح ماضٍ من أسلحة الدعوة والجهاد [6] والجهاد[6] ومن خلال هذه الأحاديث نلمح أنها تمدح الكلام شعره ونثره إذا جاء على وفق الطبع الطبع بعيداً عن التكلف مع صحة المعنى، وقوة البيان، وسمو الهدف والغاية. وهنا يتضح لنا عناية البيان النبوى بالبيان والكلام شعره ونثره.

---

(2) متفق عليه من حديث أبى هريرة. أخرجه البخارى –كتاب الأدب – باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه – ح (5929) 553/10. وأخرجه مسلم فى كتاب الشعر 13,12/15 وفى رواية مسلم " أصدق بيت قالته الشعراء..." الحديث

(3) ينظر صحيح البخارى فى حديث لبيد 553/1, وصحيح مسلم بشرح النووى 11/15

(4) متفق عليه من حديث البراء. المشكاة ح(4789) 100/9

(5) رواه مسلم من حديث عائشة. المشكاة ح(4791) 100/9

(6) رواه مسلم من حديث عائشة. المشكاة ح(4790) 100/9

(7) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم " رواه أبو داود والنسائى والدارمى من حديث أنس المشكاة ح(3821) 347/7 ولقد جاءت أحاديث أخرى فى هذا المعنى تراجع فى مشكاة المصابيح –كتاب الأدب – باب البيان والشعر 94/9- 113.

أما ما جاء فى الجانب الآخر و هو ذم التكلف فى الكلام، وفى طريقة أدائه فلقد قال رسول الله صلى الله عليه : " **هلك المتنطعون** " قالها ثلاثاً [1] والمتنطعون: هم المتعمقون الغالون فى خوضهم فيما لا يعنيهم من الكلام [2] والأصل فى المتنطع: الذى يتكلم بأقصى حلقه مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى، وردد القول ثلاثاً تهويلاً وتنبيهاً على ما فيه من الغائلة، وتحريضاً على التيقظ والتبصر دونه، وكم تحت هذه الكلمة من مصيبة تعود على أهل اللسان والمتكلفين فى القول الذين يرومون بسبك الكلام سبى قلوب الرجال. وكما يقول الطيبى: " لعل المذموم من هذا ما يكون القصد فيه مقصوراً على مراعاة اللفظ ويجئ المعنى تابعاً له، وأما إذا كان العكس فيرفع الكلام إلى الدرجة القصوى " [3] وفى الحديث " **إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مساويكم أخلاقاً الثرثارون المتشّدقون المتفيهقون** "[4] والثرثارون: هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق. والثرثرة كثرة الكلام وترديده والمتشدقون: هم المتوسعون فى الكلام من غير احتياط واحتراز. وقيل: أراد بالمتشدق: المستهزئ بالناس يلوى شدقه لهم وعليهم. والمتفيهقون: هم الذين يتوسعون فى الكلام ويفتحون به أفواههم، مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء والاتساع. يقال: فهقت الأناء ففهق فهقاً، وبئر مفهاق: كثير الماء ولقد جاء تفسير المتفيهقين فى حديث آخر بالمتكبرين، فلقد روى الترمذى نحواً من حديث جابر رضى الله عنه، وفى روايته قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون؟ قال: " **المتكبرون** "[5] وقال ﷺ: " **لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقربألسنتها** " [6] فسائر الدواب تأخذ من نبات الأرض بأسنانها، والبقرة بلسانها، فضرب بها المثل ليبين أنهم فى مغزاهم ذلك كالبقرة التى لا تستطيع أن تميز فى رعيها بين الرطب والشوكة، وبين الحلو والمر، بل تلف الكل بلسانها لفاً، فكذلك هؤلاء الذين يتخذون

---

(1) رواه مسلم من حديث ابن عمر. المشكاة ح(4785) 97/9

(2) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 220/16

(3) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 97/9

(4) أخرجه أحمد فى المسند، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث أبى ثعلبة الخشنى. وإسناده منقطع، فإن مكحولاً لم يسمع من أبى ثعلبة. المشكاة ح(4797) 105/9 وقد ذكر الألبانى أن هذا الانقطاع ينجبر بمجئ الحديث من طرق أخرى. راجع السلسلة الصحيحة 378/2- 380

(5) رواه الترمذى من حديث جابر وقال: حسن غريب من هذا الوجه ويراجع تحفة الأحوذى ح(2087) 6|136,135, ومشكاة المصابيح ح(4798) 106/9, والسلسلة الصحيحة ح(791) 418/2, 419

(1) رواه أحمد من حديث سعد بن أبى وقاص، وقد ذكر الألبانى أن الحديث حسن يشواهده أو صحيح 106/1

ألسنتهم ذريعة إلى مأكلهم لا يميزون بين الحق والباطل، والحلال والحرام، سماعون للكذب أكالون للسحت [1]

ويكمل هذا الحديث حديث آخر وهو قوله ﷺ: " **إن الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها** " [2] " والذى يتخلل بلسانه: هو الذى يتشدق فى الكلام، ويفخم به لسانه، ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفاً "[3]

فهذه الأحاديث وغيرها تذم التكلف فى الكلام، والمبالغة فيه بالتقعير والتشدق والتصنع إظهاراً للفصاحة والقوة فى الكلام، وقد جاء التمثيل بالبقرة من الدواب على سبيل الذم لهذا الفعل، وبين أن هذا التكلف والتعالى على الناس بتفخيم الكلام باللسان مما يبغضه الله.

وبهذا يكون البيان النبوى قد وضع حدوداً عامة، وخطوطاً عريضة للبيان الحسن المقبول ووضع علامات يعرف بها التكلف فى الكلام.

ويقول ابن القيم وهو يتحدث عن هديه ﷺ فى حفظ المنطق، واختيار الألفاظ: " كان يتخير فى خطابه، ويختار لأمته أحسن الألفاظ وأجملها وألطفها، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش، فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولاصخاباً ولا فظاً، وكان يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون فى حق من ليس كذلك، وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه فى حق من ليس من أهله " [4]

---

(2) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 107/9

(3)أخرجه أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو. وقال الترمذى: حسن غريب. المشكاة ح (4800) 107/9 قال القاضى: شبه إدارة لسانه حول الأسنان والفم حال التكلم تفاصحاً بما تفعل البقرة بلسانها. والباقرة: جماعة البقر، واستعماله بالتاء قليل. يراجع شرح الطيبى 107/9, وعون المعبود ح(4995) 237/13

(4) ينظر تفصيل ذلك وأمثلته فى زاد المعاد 320/1- 325

(5) ويدل على هذه العناية ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث عدى بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله ". قال القاضى: " والصواب فى سبب النهى أن الخطب شأنها البسط والإيضاح، واجتناب الإشارات والرموز، ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً ليفهم... " ينظر صحيح مسلم بشرح النووى — باب صلاة الجمعة وخطبتها 160,159|6

فالبيان المحمود ما كان بعيداً عن التكلف مع وضوح المعنى وشرفه وقوته وموافقته للطبع وعدم التصنع والتكلف فى أدائه، ووضع الإيجاز فى موضعه والإطناب فى موضعه. والبيان المذموم ما كان متكلفاً خارجاً عن حد الاعتدال مشتملاً على التصنع و التقعير فى الكلام والتفاصح والمبالغة فى إظهار القوة فى البيان مع سوء الأداء بملء الفم بالكلام، والتوسع فيه من غير احتياط وتحرز.

وكما يقول الإمام النووى: " يكره التقعير فى الكلام بالتشدق، وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع بالمقدمات التى يعتادها المتفاصحون، وزخارف القول، فكل ذلك من التكلف المذموم، وكذلك التحرى فى دقائق الإعراب، ووحشى اللغة فى مخاطبة العوام، بل ينبغى أن يقصد فى مخاطبته إياهم لفظاً يفهمونه فهماً جلياً، ولا يدخل فى الذم تحسين الخطب والمواعظ إذا لم يكن فيها إفراط وإغراب لأن المقصود منها تهييج القلوب إلى طاعة الله تعالى، ولحسن اللفظ فى هذا أثر ظاهر " (1)

(1) ومما يدخل فى ذلك حديث الأعرابى الذى أنكر النبى صلى الله عليه وسلم عليه السجع لتكلفه، وحرصه على الإتيان بالألفاظ المسجعة دون النظر إلى المعنى، ولمخالفته حكم الشرع فى دية الجنين، والحديث يدخل فى ضمن هذا الفصل لأن فيه ذماً للتكلف فى الكلام. ويراجع شرح الطيبى 106/9

الفصل الثالث: أثر الحديث فى اللغة والبلاغة والأدب

كان لعناية النبى ﷺ بالبيان وإصلاحه أكبر الأثر فى اللغة، والبلاغة، والأدب، فالضوابط التى ذكرها البلاغيون فى بلاغة الكلام، وفى الإيجاز، وغير ذلك من مباحث البلاغة إنما ترجع أصولها إلى البيان النبوى بعد القرآن الكريم؛ ولهذا عكف العلماء على هذا البيان المبدع يدرسونه، ويحفظونه ويشرحونه، ويستنبطون منه الأفكار ويستخلصون منه المعانى والأسرار، ويستشهدون به لمسائل البلاغة كما فى علم المعانى، والبيان، والبديع، ويحتجون به فى اللغة، النحو[1] ويقول الرافعى عن تأثيره ﷺ فى اللغة: " إن النبى ﷺ كان على حد الكفاية فى قدرته على الوضع، والشقيق من الألفاظ، وانتزاع المذاهب البيانية حتى اقتضب ألفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد فى متقدم كلامها، وهى تعد من حسنات البيان، لم يتفق لأحد مثلها فى حسن بلاغتها، وقوة دلالتها، وغرابة القريحة اللغوية فى تأليفها وتنضيدها، وكلها قد صار مثلاً وأصبح ميراثاً خالداً فى البيان العربى مثل قوله: " **هذا حين حمى الوطيس** "[2] وهذا ضرب عزيز من الكلام يجتذبه البلغاء ويطبعون على قالبه وكلما كثر فى اللغة لانت أعطافه واستبصرت طرق الصنعة إليه، وما من بليغ أحدث فى العربية منه ما أحدثه النبى صلى الله عليه، فهذه فى الأوضاع التركيبية. والثانية فى الأوضاع المفردة مما يكون مجازه مجاز الإيجاز والاقتضاب، وهذا الباب كانت تتصرف فيه العرب بالاشتقاق والمجاز فتضع الألفاظ وتنقلها من معنى إلى معنى غير أنها فى أكثر ذلك إنما تتسع فى شئ موجود ولا توجد معدوماً، فلم يعرف لأحد من بلغائهم وضع بعينه يكون هو انفرد به وأحدثه فى اللغة، ويكون العرب قد تابعوه عليه إلا ما ندر ولا يعد شيئاً بخلاف المأثور عنه ﷺ فى مثل ذلك فهو كثير تعد منه الأسماء والمصطلحات الشرعية مما لم يرد فى القرآن الكريم، ومنه ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها، ويعجبون لانفراده بها، وهم عرب مثله كما عجبوا لفصاحته التى اختص بها، ولم يخرج من بين أظهرهم... ومن ذلك كتبه الغريبة التى كان يمليها ويبعث بها إلى قبائل العرب يخاطبهم فيها بلحونهم، ولا يعد ألفاظهم وعباراتهم فيما يريد أن يلقيه إليهم...، وما ندرى أى ذلك أعجب؟ أن ينفرد النبى ﷺ بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه و غير قومه ممن ليس ذلك فى لسانهم عن غير تعليم و لا تلقين و لا رواية، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا فى الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها و خالطوا العرب وسمعوا مناطقهم فى أرضهم، و حين يتوافدون فى مواسم الحج ،وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما

---

(1) وسيأتى الحديث عن الاحتجاج بالحديث فى اللغة والنحو فيما بعد.

(2) أخرجه مسلم –كتاب الجهاد – باب غزوة حنين – 116/12. وسيأتى تحليل هذا الحديث فى الباب الخامس – الفصل الأول: الأصالة والمعانى.

يعلمه..." [1] و كما أثر الحديث فى اللغة فى مفرداتها و تراكيبها، وأوضاعها، وجدد فى هذه النواحي كان له أكبر الأثر فى الحفاظ عليها، و توسيع مادتها اللغوية ،كذلك فى نشأة الكتابة التاريخية، و هذا غير ما نشأ عنه من علوم شرعية مما بعث على نهضة علميه رائعة. وعن هذا الجانب يقول أ.د. شوقي ضيف : " فإن للحديث هو الأخر أثراً فيهما (أى فى اللغة و الأدب) و إن كان لا يبلغ أثر القران لأنه دونه فى البلاغة و إن كان قائله أفصح العرب قاطبة، و يمكن أن نلاحظ أثره في أنه عاون القرآن في انتشار العربية و في حفظها و بقائها، وكان له أثر فى توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية و فقهية لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص، و قد أقبل العلماء في مختلف الأمصار الإسلامية و على تعاقب الأعصار يدرسونه و يحفظونه و يشرحونه و يستنبطون منه. و حقاً أن كثرته رويت بالمعنى، ولكن هذا لا يقلل من قيمته اللغوية إذا كانت ألفاظه عربية سليمة، وبالتالى هى كنز ثمين، و قد استمد المتأدبون من هذا الكنز فى رسائلهم و أشعارهم ما أضاف إليها – على مر العصور – رونقاً و طلاوة، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم، وقد جاءت فيه أحرف غريبة من لغات القبائل إذ كان الرسول يخاطب بعض وفود العرب بلغاتهم... و من تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا فى السيرة فحسب بل أيضاً فى تراجم المحدثين للحكم لهم أو عليهم فيما نقل عنهم. ومن غير شك هو السبب فى أن المسلمين أشد الأمم عناية بتواريخ رجالهم على نحو ما نعرف فى مثل طبقات ابن سعد، وأسد الغابة، والإصابة، والاستيعاب، وميزان الاعتدال، فالحديث هو الذى فتح باب الكتابة التاريخية، و هيأ لظهور كتب الطبقات فى كل فن. و هذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث، وغير مشاركته فى علم التفسير والفقه مما بعث على نهضة علمية رائعة " [2] **وعن أثر الحديث النبوى فى البلاغة** يقول أ.د محمود مهدى السامرائى: " الحديث النبوى هو المنبع الثانى للفكر الدينى، وقد أثر هذا المنبع فى كلا الاتجاهين البلاغيين: العلمى والأدبى، فهو يؤثر فى البلاغة باعتباره المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم، وباعتبار بلاغته الرفيعة... فالنصوص القرآنية والنبوية كانت سبباً فى نشأة علوم كثيرة تعد من المنابع الفكرية الدينية التى أثرت فى الاتجاه العلمى للبلاغة كالدراسات القرآنية ودراسات أصول الفقه، ودراسات العقائد " ([3]) ويقول فى موضع آخر من كتابه: " الحديث هو كلام الرسول ﷺ، وهو المصدر التشريعى الثانى بعد القرآن، وبلاغته فى الذروة من كلام العرب، و

---

(1) ينظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص262- 265 باختصار.

(1)ينظر تاريخ الأدب العربى – العصر الإسلامى 41,40/2- ط دار المعارف – ط الحادية عشرة (1963)م.

(2)بنظر تأثير الفكر الدينى فى البلاغة العربية ص12- 14 باختصار – ط المكتب الإسلامى.

للرسول أقوال تدل على مبلغ عنايته بفن القول منها: " **أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون** " [1] وقد أراد الرسول أن ينقى المسلم أقواله مما يشين فجاء فى الحديث: " **إن الله يبغض الرجل الذى يتخلل بلسانه كما تخلل الباقرة الخلا بلسانها** "[2] ولعمرى إذا كان الرسول يحرص على أن يكون كلام المسلمين جميلاً فكيف يكون حرصه على كلامه... " وهذا بعض ما ذكره الأدباء والباحثون حول أثر البيان النبوى فى اللغة والبلاغة والأدب، وهو غيض من فيض، ومن يتصفح فيما كتبه اللغويون والبلاغيون والأدباء من مؤلفات يرى الاستشهاد فى اللغة بالأحاديث النبوية، ويرى الاستشهاد بالحديث فى القواعد والضوابط البلاغية، ويرى التأثر بالأسلوب النبوى فى الكتابة عند طائفة كبيرة من الأدباء فيما يتعلق بالإيجاز، والبعد عن التكلف، وانتقاء الألفاظ، وشرف المعنى واستقامته وغير ذلك، وهذا الأسلوب هو ما أشاد به الجاحظ، والشريف الرضى، وابن الأثير [3]، وغيرهم من الأدباء والبلاغيين ويراجع تفصيل ذلك فى البيان النبوى للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى.

---

(3) سبق تخريجه فى الفصل السابق.

(4) سبق تخريجه فى الفصل السابق.

(5) ينظر البيان والتبيين 18,17/2, والمجازات النبوية ص 21, والمثل السائر ص 31, وما بعدها

الباب الثانى: أسباب بلاغة النبى ﷺ

الفصل الأول: أسباب بلاغته ﷺ:

النبى ﷺ خاتم النبيين نشأ فى أمة صناعتها البيان، والفصاحة أكبر أمرهم، والكلام سيد عملهم، ولقد حمل أعباء الرسالة العظيمة لينذر الناس جميعاً، ومن هنا فلابد من الإعداد المناسب لأداء هذه الأمانة، ولابد من توفير الأسباب، وتهيئه الظروف التى تساعد على أداء هذه المهمة العظيمة الجسيمة، وهى هداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولأجل ذلك كانت هناك عوامل وأسباب أثرت فى بلاغته ﷺ، وسأكتفى هنا بالإشارة إلى أبرزها مراعياً الترتيب بين هذه العوامل فى حياته ﷺ.

أولاً: النشأة والبيئة:

وهذه الناحية لها أثر كبير فى بلاغته ﷺ، فاكتساب المنطق واللغة يرجع للطبيعة والمخالطة والمحاكاة، والنبى ﷺ نشأ وتقلب فى أفصح القبائل وأخلصها منطقاً، وأعذبها بياناً، فكان مولده فى بنى هاشم، وأخواله فى بنى زهرة، ورضاعه فى بنى سعد، ومنشؤه فى قريش، ومتزوجه فى بنى أسد، ومهاجرته إلى بنى عمرو وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء فى النشأة واللغة، ولقد كان فى قريش وبنى سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة، ولقد جاء فى الحديث: " **أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش، ونشأت فى بنى سعد بن بكر** " ([1])، وبنو سعد بن بكر كانوا من العرب الضاربة حول مكة، وكان أطفال القرشيين يتبدون فيهم وفى غيرهم يطلبون بذلك نشأة الفصاحة ([2]) ، والرواة جميعاً على أن بنى سعد بن بكر خصوا من بين القبائل بالفصاحة والبيان.

وهذا الجانب من حياته ﷺ لم يطعن فيه مشرك من المشركين لأنهم يعلمون نشأته وفصاحته، لأنه لم يخرج من بين أظهرهم، ولا جلا عن أرضهم، ففصاحته

معلومة للخاص والعام منهم، وولادته ونشأته مما لا يخفى على أحد؛ ولهذا لم يجد أعداء الإسلام مغمزاً يطعنون به فى بلاغته وفصاحته لأنهم كانوا يعلمون أنه على حد الكفاية فيهما.

---

(1) والحديث إسناده ضعيف. رواه الطبرانى فى الكبير (5437) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد: فيه مبشر ابن عبيد. متروك، وذكره العراقى فى تخريج الإحياء، والعجلونى فى كشف الخفاء بلفظ : " أنا أعرب العرب"

(2) قال الرافعى رحمه الله: " ولا يزال كبراء مكة يرسلون أحداثهم إلى أماكن هذه القبائل من البادية، وخاصة إلى قبيلة عدوان فى شرق الطائف، وهى قريبة من بنى سعد، وإنما يطلبون بذلك إحكام اللهجة العربية، وصحة النشأة، وحرية النزعة وما إليها مما هو الأصل فى هذه العادة التى يتوارثونها فى التربية من قديم. ينظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص 237

ولكن هل النشأة وحدها كافية فى أن يصل المرء إلى أعلى درجات الفصاحة، ويتربع على قمة البيان البشرى؟ بالطبع لا؛ لأن هذا الجانب يشاركه فيه ﷺ كثير من الفصحاء والبلغاء أمثال: قس بن ساعدة، وأمية بن الصلت، ولبيد بن ربيعة، وغيرهم من الفصحاء والشعراء، ولكن لم يصل أحدهم إلى هذا المستوى من الفصاحة والبلاغة، ولذلك فلابد من وجود أسباب أخرى لبلاغته ﷺ غير النشأة واللغة، لابد من وجود سبب آخر لهذه البلاغة ساهم فى إعلاء شأنها، ورفع ذكرها إلى هذا المستوى من البيان، وهو السبب التالى.

ثانياً: الفطرة النقية والإعداد الربانى والاصطفاء:

ويبدو لى أن الفطرة النقية، والإعداد الربانى، والاصطفاء مما ساهم فى بلاغته ﷺ، وسأجمع بين هذه الأسباب فى الكلام؛ لأن الربط بين هذه الأمور من الأهمية بمكان فى بيانه ﷺ، وسأفصل فى هذه الناحية بعض التفصيل لهذا السبب؛ ولأن لهذه الناحية مدخلاً فى رسالته ﷺ، وسأتناول هذه الناحية حسب الترتيب التاريخى فى حياته ﷺ مع الإيجاز، فلقد أشار النبى إلى هذا الاصطفاء فقال :

" إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم "[1]

ولنبدأ فى بنى سعد حين أخذت الحبيب ﷺ حليمة السعدية، ورأت فى حياتها وفى قومها من البركة والخير والسعة ما لم تر من قبل، وهنا وقع **حادث شق صدره** ﷺ.

فلقد روى مسلم فى صحيحه **عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – أى ظئره – فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط (الإبرة) فى صدره**[2] وهذه الحادثة لشق الصدر [1] يكملها ما روته حليمة السعدية حيث قالت: " فوالله إنه بعد

(1) أخرجه مسلم من حديث واثلة بن الأسقع – كتاب الفضائل، وانظره فى المشكاة ح(5740) 10 | 351

(1) قلت: وقد غسل جبريل عليه السلام قلبه صلى الله عليه وسلم بماء زمزم وهو صغير كما فى هذه الرواية عند مسلم، واستخرج منه هذه العلقة، وغسل جبريل صدره وجوفه بماء زمزم قبل الإسراء به، وحشاه إيماناً وحكمة كما فى رواية البخارى ومسلم، ويراجع فى حديث أنس السابق صحيح مسلم بشرح النووى 2/217,216

مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفى بهم [2] لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد [3] فقال لى ولأبيه: ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه، فشقا بطنه فهما يسوطانه [4] قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً [5] وجهه قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بنى، قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعانى وشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً لا أدرى ما هو. قالت: فرجعنا به إلى خبائنا " [6]

" ولقد وقع حادث شق الصدر هذا فى السنة الرابعة أو الخامسة من مولده ﷺ " [7] وهذا الحديث وأمثاله مما يجب فيه التسليم، ولا يتعرض له بتأويل من طريق المجاز والاتساع؛ إذ لا ضرورة فى ذلك؛ إذ هو خبر صادق مصدوق عن قدرة القادر. ويجدر بى هنا أن أنقل ما ذكره الطيبى حول قول جبريل: " **هذا حظ الشيطان منك** " لأنه متصل بما نحن بصدده تمام الاتصال. يقول: " قيل: إن النبى ﷺ لما كان بشراً متعلقاً عما انعلق عنه سائر البشر، ولا ينكر ذلك لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ...﴾ (الكهف: 110) والعلقة فى الإنسان أصل المفاسد؛

---

(2) ومما تجدر الإشارة إليه أن حادثة شق الصدر قد تعددت كما صح فى رواية مسلم التى سبق ذكرها، وفى رواية البخارى عند المعراج به صلى الله عليه وسلم ، ولقد ذكر البخارى حديث شق الصدر فى كتاب الصلاة – باب كيف فرضت الصلاة فى المعراج – ح(345) 1|549, وذكره مسلم فى كتاب الإيمان – باب الإسراء برسول الله 2|209- 222، ولقد ذكر ابن حجر أن القاضى عياض رجح أن شق الصدر كان وهو صغير عند مرضعته حليمة، وتعقبه السهيلى بأن ذلك وقع مرتين وهو الصواب، فوقع شق الصدر وهو صغير، ووقع أيضاً عند البعثة كما أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، وأبو نعيم، والبيهقى فى دلائل النبوة، وذكر أبو بشر الدولابى بسنده أن بطنه صلى الله عليه وسلم أخرج ثم أعيد، وأنه ذكر ذلك لخديجة رضى الله عنها. ومحصله أن الشق الأول كان لاستعداده لنزع العلقة التى قيل له عندها: هذا حظ الشيطان منك. والشق الثانى كان لاستعداده للتلقى الحاصل فى تللك الليلة. وقد روى الطيالسى، والحارث فى مسنديهما من حديث عائشة أن الشق وقع مرة أخرى عند مجئ جبريل له بالوحى فى غار حراء، وروى الشق أيضاً وهو ابن عشر أو نحوها فى قصة له مع عبد المطلب أخرجها أبو نعيم فى الدلائل، وروى مرة أخرى خامسة ولاتثبت. والشق الأول والثانى قد ثبتا فى الصحيحين. يراجع صحيح مسلم بشرح النووى 2/209- 222, وفتح البارى 1/549, 489/13

(3) أى صغار من الضأن مفرده بهمة، والذكر والأنثى فى ذلك سواء.

(4) أى يسرع.

(5) يقال: سطت اللبن أسوطه إذا ضربته بعضه ببعض. واسم العود الذى يضرب به السوط.

(6) أى متغيراً. يقال: انتقع لونه إذا تغير من حزن أو فزع، وكذلك امتقع بالميم.

(7) يراجع السيرة النبوية لابن هشام 1/165,164 ط الحلبى – ط ثانية – (1375) هـ (1955) م

(8) يراجع الرحيق المختوم ص 65

ولهذا قال جبريل بعدما أخرجها: " هذا حظ الشيطان منك " فعصمه من آفته وطمعه، كما أسلم له شيطانه على يده، قدر الله فى سابقة لطفه أن يخرج حظ الشيطان منه، فجعله قدسياً طاهر الأصل والعنصر، منور القلب، مقدس الجسم، مستعداً لقبول الوحى السماوى، والفيض الإلهى لا يتطرق إليه هواجس النفس " [1] وإذا خطونا خطوة أخرى نحو مكة نجد أن عبد المطلب جد النبى ﷺ كان يشعر بتميز النبى من سائر الناس، فلقد روى ابن هشام " أنه كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله يأتى وهو غلام جفر [2] فيجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأناً، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره، ويسره ما يراه يصنع " [3] وهذا التميز، والاصطفاء، والفطرة النقية قد لاحظها أبوطالب أيضاً، فلقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم فى قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادى، وأجدب العيال ، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن[4] تجلت عنه سحابة قتماء [5] حوله أغيلمة، فأخذه أبوطالب أبوطالب فألصق ظهره بالكعبة... فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق واغدودق وانفجر الوادى وأخضب النادى والبادى، وإلى هذا أشار أبوطالب حين قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ومما يتصل بالإعداد الربانى ما رواه ابن الأثير أنه ﷺ قال: " **ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبينه ثم ما هممت**

به حتى أكرمنى الله برسالته. قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار مكة سمعت عزفاً فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة فجلست أسمع، فضرب الله على أذنى فنمت، فما أيقظنى إلا حر الشمس، فعدت إلى

---

(1) ينظر شرح الطيبى على مشكاة المصابيح 65,64/11

(2) يقال: صبى جفر إذا انتفخ لحمه.

(3) ينظر السيرة النبوية لابن هشام 168/1

(4) الدجن: إلباس الغيم الأرض، وأقطار السماء. يقال: يوم دجن، ويوصف به فيقال: يوم دجن. ويقال: دجن السحاب: أمطر، والسماء: دام مطرها.

(5) يقال: قثم فلان فى مشيه قثماً: أبطأ، والقثم: المعطاء والمجتمع الخلق، القثوم: الجموع للخير جمعها قثم.

صاحبى فسألنى فأخبرته ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت بمكة، فأصابنى مثل أول ليلة، ثم ما هممت بسؤ " [1]

وإذا خطونا خطوة أخرى فى مرحلة شبابه ﷺ لنرى مظاهر الفطرة النقية و العناية الربانية فنصل إلى بناء الكعبة، فلقد روى البخارى فى صحيحه من حديث جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما قال: " لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبى ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: " **إزارى، فشد عليه إزاره** "، **وفى رواية** " **فما رؤيت له عورة بعد ذلك** " [2]

إن هنا خصوصية للنبى ﷺ، ومظهر من مظاهر العناية الربانية لأنه قد جاء فى بعض الروايات أنه نودى" **استر عورتك** " [3] " ولقد كان سن الرسول وقتها خمساً وثلاثين سنة " [4] ولنصل إلى صواب الرأى النابع من الفطرة النقية والعناية الإلهية فبعد أن جددت قريش بناء الكعبة، وبلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه، واستمر النزاع أربعة ليالٍ أو خمساً، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين رضيناه هذا محمد، وهنا نلاحظ أن النبى ﷺ كان معروفاً ومشهوراً بالأمانة والصدق بينهم قبل أن ينزل عليه

الوحى كما صح فى الأحاديث [5] ، ولما انتهى إليهم و أخبروه الخبر طلب رداءً فوضع الحجر الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه فى مكانه، وهذا حل حصيف رضى به القوم

---

(1) اختلف العلماء فى صحة هذا الحديث، فصححه الحاكم والذهبى، وضعفه ابن كثير فى البداية والنهاية 287/2, وينظر الرحيق المختوم.

(2) رواه البخارى – باب بنيان الكعبة، ويراجع الرحيق المختوم.

(3) يراجع مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص 51

(4)يراجع السابق ص 51

(1) ولما نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ,وجهر بالدعوة، وقال لهم: " أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل " و فى رواية " أن خيلاً تخرج بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً " والحديث متفق عليه من حديث ابن عباس. ينظر المشكاة ح(5846) 11|58

[1] ولنخط خطوة أخرى قبيل نزول الوحى عليه ﷺ ، فلقد حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بنفسه فى غار حراء [2] فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالى ذوات العدد حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، وهذا التعبد قبل النبوة من صفاء الفطرة ونقائها، ومن التفكر والتأمل فى الكون، والانقطاع عن مألوفات البشر فى هذه الخلوة، وله أكبر الأثر فى خشوع القلب، وصفاء الذهن، واستنارة القلب بنور الغيب.

ولقد لاحظت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها – وهى الزوجة الوحيدة التى كانت مع النبى قبل النبوة وبعدها بفترة من الزمن – لاحظت هذه الفطرة النقية فيه قبل النبوة، ولاحظت هذا الاصطفاء من الله، فقالت لما أخبرها النبى ﷺ بخبر الوحى فى الغار : " **كلا والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، و تصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق** "[3] ولقد قال أبو سفيان لهرقل لما سأله هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، وهل يغدر؟ قلت: لا " (5)

فهذه الشواهد والحقائق التاريخية الصحيحة الثابتة يتضح لنا من خلالها صفاء الفطرة النبوية ونقاءها، وتتجلى لنا من خلالها العناية الإلهية، و يتجلى الإعداد الرباني والاصطفاء للنبى ﷺ، وهذا كله مما أثر فى بلاغته ﷺ.

ثالثاً: نور القرآن وهديه :

لقد اختارالله محمداً ﷺ من بين آلاف الفصحاء من قومه ليعجزهم بفصاحة القرآن، ووكل إليه أن يفسر كتابه، ويبين وحيه حين قال فى محكم التنزيل: ﴿...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ

---

(2) ينظر السيرة النبوية لابن هشام 197,196/1, ومختصر سيرة الرسول ص 51

(3) وهو جبل بينه وبين مكة ثلاثة أميال عن يسار الذاهب من مكة إلى منى.

(4)لا يخزيك: بضم الياء من الخزى وهو الفضيحة والهوان. والكل: الثقل، ويدخل فى حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك، وهو من الكلال: أى الإعياء. وتكسب: بفتح التاء هو الصحيح المشهور، وروى بضمها، ومعناه بالضم تكسب غيرك المال وتعطيه إياه تبرعاً، ومعنى الفتح كمعنى الضم، والنوائب: جمع نائبة وهى الحادثة، وإنما أضيفت إلى الحق لأن النائبة قد تكون فى الخير وقد تكون فى الشر. وأرادت أنك ممن لم يصبه مكروه لما جمع الله فيك من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشمائل، وفيه أعظم دليل، وأبلغ حجة على كمال خديجة رضى الله عنها، وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها. وهذا الحديث متفق عليه من حديث عائشة ويراجع شرحه فى شرح الطيبى على المشكاة ح(5841)11|44-53, وفتح البارى 1|30

(5) متفق عليه من حديث ابن عباس. المشكاة ح (5861) 74/11- 77

مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: 44)، وحين قال: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ (مريم: 97)، وحين قال: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (آل عمران: 164) إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بعمل الرسول فى الإبلاغ والتبيين والهداية والتوجيه...، ولقد مكن الله لنبيه فى منبته ونفسه بما بهر به العقول إقناعاً وإفحاماً...، ولقد أخذت آيات القرآن تتوالى فكانت الإجابة الشافية لكل ما جاش فى صدره من خواطر، وفتح الرسول عينيه على هذا البيان الهابط من أرفع سماوات، فإذا به ينقذه من حيرته، ويجيب على أسئلته، ويؤيد وجهة نظره فى الحياة والأشياء، ألم يكن النبى ﷺ ينأى عن الأصنام؟ لقد نزل بيان السماء بتحريم عبادة الأصنام، ألم يكن يشيح عن العصبية الحمقاء والتعالى بالانساب؟ لقد نزل بيان السماء بأن الناس من أصل واحد من ذكر وأنثى. إن العناية التى استخلصته لرسالة السماء قد طبعت حياته بطابع السماء حتى إذا جاء زمان الدعوة صادف القرآن نفساً ظامئة، وقلباً تائقاً، وروحاً متطلعاً، فروى الظمأ، وشفى الغليل، وكان ذلك كله التفسير الصادق لقول الله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ﴾ (الضحى: 7)... ولقد كانت معانى النبى ﷺ فى إرشاداتها ربانية، وكانت ألفاظه معرضاً رائعاً لمعانيه؛ إذ كان القرآن أستاذ معانيه فإن أثره عليه عظيم جليل، فكان القرآن يثبته بمثل قوله [1]: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنْ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾[2]، وكان يثنى عليه أعظم الثناء، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: 4) إلى آخر ما جاء فى القرآن من حديث عن النبى ﷺ، ولو مكثنا نعدد المواضع التى جاء فيها ذكر النبى ﷺ صراحة وإشارة لضاق بنا المقام، ولخرجنا عن مقصود البحث.

وكما أثر القرآن فى النبى ﷺ فى هذه الناحية أى ناحية التوجيه والإرشاد والهداية والتثبيت إلخ **أثر أيضاً فى بيانه أعظم الأثر**، فمثلاً ضرب الأمثال شائع فى القرآن الكريم؛ وذلك لما للمثل من أثر فى توضيح المعقول بالمحسوس، وتقريب الأمور وتوضيحها، وترسيخها فى الأذهان [3] نجد

---

(1) الآيات من (73-77) من سورة الإسراء

(1) ينظر البيان النبوى ص 53- 70

(2) ولقد جمع ابن القيم الأمثال القرآنية، وبين ما فيها من أسرار بلاغية فى كتابه القيم الأمثال فى القرآن — ط دار المعرفة — بيروت — تحقيق أ. سعيد محمد نمر.

النبى ﷺ قد سلك هذا المسلك فى دعوته، وفى بيان أمور الدين، وبيان خصال الخير التى يحبها الله من إنفاق فى سبيله وذكر له، كما ضرب الأمثال لخصال الشر التى لا يحبها الله مثل: النفاق، والبخل، ومجالسة الجليس السوء، والذى لا ينتفع بالعلم ولا ينفع غيره إلخ [1]

وسأوضح هذه الناحية بمثالين من أمثال القرآن مع ذكر ما يقابلهما فى الهدف من البيان النبوى، ومن ذلك الإنفاق فى سبيل الله حيث يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 261)

" التمثيل للأضعاف كأنها ماثلة بين عينى الناظر" [2]، وفى ذات الموضوع وهو الإنفاق يقول ﷺ : [3]" **مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه، والبخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها** " أوقع فى الحديث المتصدق مقابلاً للبخيل، والمقابل الحقيقى هو السخى إيذاناً بأن السخاوة هى ما أمر به الشرع وندب إليه من الإنفاق لا ما يتعاطاه المبذرون " [4]

وقال ﷺ: " **من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل** " [5] **بل نجد فى بعض الأحاديث يصدر الأمثال بنفس اللفظ الذى يستعمله القرآن :**

فمثلاً الفعل " **ضرب** " يأتى فى بداية بعض الأمثال القرآنية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل: 75، 76) نراه ﷺ يأتى فى صدر بعض الأحاديث بهذا الفعل " **ضرب** " مع إسناد ضرب المثل إليه سبحانه، ومن ذلك قوله ﷺ: " **ضرب الله مثلاً**

---

(3) وسيأتى تفصيل ذلك فى الفصل الخاص بالأمثال فى الحديث النبوى فى الباب الرابع من البحث.

(4) ينظر الكشاف 338/1, والأمثال فى القرآن ص253-258

(5) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، مشكاة المصابيح ح (1864) 89/4

(1) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 89/4

(2) متفق عليه من حديث أبى هريرة. المشكاة ح(1888) 110/4

صراطاً مستقيماً، وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة... " الحديث [1] وهذا المثل النبوى فيه إشارة إلى أكثر من آية من كتاب الله، فقوله " **وعن جنبتى الصراط سوران** " فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (الأنعام: 153) وفى الحديث إشارة إلى المحارم التى لمح إليها قوله تعالى: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ...﴾ (الأنعام: 151) وهذا مثال فيما يتعلق بجانب الأمثال وضربها اتضح من خلاله أثر الأمثال القرآنية فى الأمثال النبوية، وسيأتى تفصيل لهذه الناحية فى الفصل التالى، وهو التفسير النبوى للقرآن.

(3) بقية الحديث " وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعند رأس الصراط داع يقول: استقيموا على الصراط ولا تعوجوا، وفوق ذلك داع يدعو كلما هم عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه " ثم فسره فأخبر أن الصراط الإسلام، وأن الأبواب المفتحة محارم الله، وأن الستور المرخاة حدود الله ,وأن الداعى على رأس الصراط هو القرآن، وأن الداعى من فوقه هو واعظ الله فى قلب كل مؤمن " والحديث رواه رزين وأحمد والترمذى. المشكاة ح(191) 384,383/1

الفصل الثانى: التفسير النبوى للقرآن

تطرقت فى الفصل السابق للحديث عن أثر القرآن فى بلاغته ﷺ، وهنا أشير إلى التفسير النبوى للقرآن الكريم، ومن خلال هذا الفصل سيتضح لنا مدى تأثير القرآن فى بلاغة النبى ﷺ، كما سيتضح لنا أن البيان النبوى إنما هو قبس من نور القرآن وهديه لأن النبى ﷺ مبين ومفصل لما أجمل فى القرآن [1] وسنلمح دقة البيان النبوى فى توجيه المعنى فى الآيات موضع التفسير، كما سنلمح دقته فى اختيار الألفاظ التى تعبر تعبيراً دقيقاً عن المعنى الذى يقصده القرآن، وسأتناول فى هذا الفصل بعض هذه المواضع لا كلها لأنها تحتاج إلى دراسة مستقلة، وهنا أكتفى بالخطوط العريضة، والإشارات السريعة مع التعليق على ما يستحق التعليق.

ولكن لابد من **ذكر بعض الضوابط فيما يتعلق بالتفسير للقرآن** ، وذلك قبل ذكر الأمثلة وأبدأ بما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية عن أصح الطرق لتفسير القرآن، يقول: " إن أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل فى مكان فإنه قد فسر فى موضع آخر. **فإن أعياك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له. بل قال الإمام الشافعى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال تعالى:** ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ **(النساء: 105) وقال تعالى:** ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ **(النحل: 64) ولهذا قال ﷺ: " ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه "** [2] يعنى السنة. **والسنة تنزل عليه بالوحى كما ينزل القرآن، إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن (ولهذا تسمى بالوحى غير المتلو)، وقد استدل الإمام**

---

(1) وعن بيان السنة للقرآن يقول ابن القيم: " والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه: أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها. الثانى: أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له. الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه، ولا تخرج عن هذه الأقسام، فلا تعارض القرآن بوجه ما " إعلام الموقعين 263/2، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص 562. هذا ولقد ذكر الشيخ سلمان العودة أن أنواع بيان السنة للقرآن على أربعة أضرب: الأول: بيان القرآن بالقول. الثانى: ما جاء فى السنة النبوية استنباطاً واستقراءً من القرآن الكريم. الثالث: بيان أسباب نزول القرآن الكريم. الرابع بيان القرآن بالفعل. ويراجع التفسير النبوى للقرآن ص 38-55 – إعداد المكتب العلمى بموقع الإسلام اليوم.

(2) رواه أحمد وأبو داود عن المقدام بن معد يكرب كما فى صحيح الجامع الصغير ح(2643).

الشافعى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة "[1]، ولكن مما تجدر الإشارة إليه أنه يجب الحذر لأن فيه (**أى فى الأحاديث المروية فى التفسير النبوى**) من الضعيف والموضوع الكثير كما قال صاحب البرهان [2] وقد قال السيوطى فى الإتقان: " الذى صح من ذلك قليل جداً، بل أصل المرفوع منه فى غاية القلة، وسأسردها كلها فى آخر الكتاب إن شاء الله " [3] وقد سردها بالفعل كلها فى آخر الكتاب بما فيها من مقبول، ومردود، ومتصل، ومنقطع [4]، وقد ذكر ابن القيم فى " الإعلام " وهو بصدد الحديث عن أنواع البيان من النبى ﷺ جملة من التفسير النبوى المقبول [5]، وقد تعرض ابن الوزير لهذا الموضوع فى كتابه " إيثار الحق على الخلق " فقال: " النوع الثالث: التفسير النبوى، وهو مقبول بالنص والإجماع. قال تعالى: ﴿... وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾ (الحشر: 7)، وقال تعالى: ﴿... لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ...﴾ (النحل: 44) [6] وبعد هذه التوطئة المهمة لما نحن بصدده من بيان التفسير النبوى للقرآن فمما تجدر الإشارة إليه أن الأحاديث التى سأستشهد بها فى هذا الموضوع من الأحاديث الصحيحة مع البعد عما نزل عن درجة الصحة؛ وذلك لأننا هنا بصدد الحديث عن القرآن والحديث معاً، ولقد راجعت كتاب التفسير فى صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى [7] فكان كتاب التفسير فيه ستمائة وثلاثين صفحة فى المجلد الثامن فى الطبعة التى اعتمدت عليها، وقد رتبه – رحمه الله – على سور القرآن الكريم. أما باب التفسير فى صحيح مسلم بشرح النووى فصغير جداً لا يتجاوز سبع عشرة صفحة فى آخر المجلد التاسع والأخير فى الطبعة التى اعتمدت عليها، ولكن مما تجدر الإشارة إليه أن الإمام مسلماً قد ذكر بعض أحاديث التفسير النبوى الأخرى فى أبواب مختلفة من صحيحه. ومعلوم أن منهج مسلم فى التبويب والترجمة للأبواب يختلف عن منهج الإمام

---

(1) ينظر مقدمة فى أصول التفسير ص 94,93

(2) ينظر البرهان 156/2 للزركشى، ومقدمة فى أصول التفسير ص 58

(3) ينظر الإتقان 179/2 ط دار الفكر (1399)هـ (1979)م.

(4) ينظر السابق 191/2- 208

(5) ينظر إعلام الموقعين 268/2- 270.

(6) ينظر كيف نتعامل مع القرآن العظيم ص 224- 228 أ.د. يوسف القرضاوى – ط دار الشروق – ط رابعة (1425)هـ (2005)م.

(7) وذلك لأن الربط بين الحديث وشرحه من الأهمية بمكان.

البخارى، ولكن منهج البخارى أدق، فتراجمه للصحيح حيرت الأفكار بما فيها من الدقة، والفقه، وحسن الترتيب، وقد بين ذلك الحافظ ابن حجر فى هدى السارى مقدمة فتح البارى [1]

فالإمام مسلم له أحاديث فى التفسير النبوى فى أبواب مختلفة من صحيحه ([2]) لكن مما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من الأحاديث التى ذكرها البخارى هى آثار عن الصحابة فى تأويل بعض آيات القرآن، وبيان لأسباب النزول كما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وابن عباس، وابن مسعود، وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم، **وكلام الصحابة حول أسباب النزول أمر حصل لهم بالقرائن، وربما لم يجزم بعضهم فقال: أحسب هذه الآية نزلت فى كذا** [3] قال الحاكم فى علوم الحديث: " إذا أخبر الصحابى الذى شهد نزول الوحى والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا فإنه حديث مسند. ومشى على هذا ابن الصلاح وغيره " [4]

---

(1) ولقد اتفق العلماء على أن البخارى أصح من مسلم، وأكثر فوائد، ومعارف ظاهرة وغامضة، كما صح أن مسلماً كان ممن يستفيد من البخارى، ويعترف بأنه ليس له نظير فى علم الحديث. وهذا هو المذهب المختار الذى قاله الجماهير وأهل الإتقان والحذق والغوص على أسرار الحديث. يراجع صحيح مسلم بشرح النووى14/1, والباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ص 22 لابن كثير، وهدى السارى ص 497,494,17, وتدريب الراوى 72/1

(2) فمثلاً تفسير قوله تعالى: (... هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين) (هود: 18) نجده فى كتاب التوبة عند الإمام مسلم، وتفسير قوله تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون) (السجدة: 17) نجده فى كتاب صفة الجنة ونعيمها 167/18, وكذلك تفسير قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...) (الأنفال: 60) نجده فى كتاب الرمى والحث عليه 13|64، وغير ذلك من أحاديث التفسير.

(3) ومن ذلك ما أخرجه الأئمة الستة عن عبد الله بن الزبير قال: خاصم الزبير رجلاً من الأنصار فى شراج الحرة، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: " اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فقال الأنصارى: يا رسول الله أن كان ابن عمتك، فتلون وجهه..." الحديث. قال الزبير: فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت فى ذلك، ويقصد بذلك قوله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) (النساء: 65) ويراجع أسباب النزول للواحدى ص 122,121 – ط دار المعرفة – بيروت.

(4) ومثلوا له بما أخرجه مسلم عن جابر قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته فى دبرها فى قبلها جاء الولد أحول فأنزل الله: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم...) (البقرة: 223) هذا ويرى الإمام أحمد أنه لا يدخل فى المسند(المرفوع) وكذا مسلم وغيره، وجعلوه مما يقال بالاستدلال والتأويل. يراجع البرهان 32/1

وقال ابن تيمية: " قولهم: نزلت الآية فى كذا يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية، وإن لم يكن السبب كما تقول: عنى بهذه الآية كذا " [1]

وقال الزركشى: " قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا فإنه يريد أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب فى نزولها فهومن جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع" [2]. **وبحثنا هنا يرمى إلى التفسير النبوى الذى صدر من النبى ﷺ قولاً صريحاً فى الآية لبيان معناها أو ما يدخل فى معناها** [3]، وقد أحصيت عدد هذه الأحاديث فى(**صحيح البخارى**) [4] فوجدتها ستين حديثاً أو ما يقرب من ذلك، ولا تتجاوزهذا العدد، وهذا يؤكد ما ذكره السيوطى وغيره من أن الذى صح من التفسير النبوى للقرآن قليل جداً، ومن ذلك ما أحصيته فى صحيح البخارى [5]، أما عن مسلم فيتفق مع البخارى فى بعض أحاديث التفسير النبوى لكنه لم يجمعها فى كتاب التفسير من صحيحه كما فعل البخارى ولكن فرقها فى أبواب مختلفة من صحيحه نظراً لاختلاف منهج التبويب والترجمة عنده كما سبق، وكتاب التفسير فى صحيحه لا يتجاوز السبع عشرة صفحة كما سبق. **ويبدو أن قلة التفسير النبوى لحكمة أرادها الله عز وجل،** وهى أن يظل القرآن الكريم كتاباً مفتوحاً مع الزمن. وعن ذلك يقول الرافعى: " قد ثبت أن رسول الله قد قبض ولم يفسر من القرآن إلا قليلاً جداً، وهذا وحده يجعل كل منصف يقول: أشهد أن محمداً رسول الله؛ إذ لو كان ﷺ فسر للعرب بما يحتمله زمنهم ، وتطيقه أفهامهم لجمد القرآن جموداً تهدمه عليه الأزمنة، والعصور بآلاتها

---

(5) ينظر مقدمة فى أصول التفسير ص 48

(1) يراجع البرهان 32/1

(2) وهو بيان القرآن بالقول من النبى صلى الله عليه وسلم، وليست هذه الأحاديث بكثيرة كما ذكر بعض الباحثين. ينظر التفسير النبوى للقرآن ص 39 للشيخ سلمان العودة. والكلام هنا فيما صح من أحاديث التفسير النبوى للقرآن. أما ما جاء عن الصحابة من التفسير، وفى أسباب النزول فقد صح منه الكثير. ويراجع كتب التفسير فى الكتب الستة.

(3) وهذا لا ينفى صحة الأحاديث الأخرى فى كتب السنن، فبعضها روايات أخرى لنفس الأحاديث الموجودة فى الصحيحين وبعضها غير موجود فى الصحيحين مع صحتها، ولكنى آثرت الاعتماد على الصحيحين وحدهما نظراً لأن البخارى ومسلماً مقدمان على غيرهما فى التصحيح كما هو معلوم، كذلك لدقة البخارى فى التبويب والترجمة من جهة أخرى، وهذا أمر معلوم عند أهل الشأن.

(4) يراجع فى ذلك مقدمة فى أصول التفسير ص 58, والبرهان 156/2, والإتقان 179/2

(5) يراجع إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص 10

ووسائلها، فإن كلام الرسول نص قاطع، ولكنه ترك تاريخ الإنسانية يفسر كتاب الإنسانية، فتأمل حكمة ذلك السكوت فهى إعجاز لا يكابر فيه إلا من قلع مخه من رأسه "[1]

وكلام الرافعى غنى عن التعقيب غير أن مما تجدر الإشارة إليه أن التفسير النبوى – على قلته – لا يقتصر على تفسير آيات فى موضوع واحد، بل نراه متنوع فى موضوعات

مختلفة، ففى بعض المواضع نراه يفسر آية ليبين فضل سورة من سور القرآن، وفى موضع آخر يفسر آية تتصل بالقصص القرآنى ليبين موقفاً من مواقف بنى إسرائيل أجمله القرآن، وفى موضع آخر يفسر آية تتصل بمشهد من مشاهد يوم القيامة، أو آية تتصل بحياة البرزخ، أو النعيم فى الجنة، أو العذاب فى النار، أوتتصل بالصلاة أوالزكاة والإنفاق فى سبيل الله، أوبالعقيدة وتوحيد الله عز وجل، أو بالأنبياء السابقين وأقوامهم، أوتتصل بالقضاء والقدر، أو غير ذلك، وهى أمور من أسس الدين وقواعده، وكأن هذا التفسير النبوى إنما وجه إلى وجهة محددة فى موضوعات معينة لتفسير آيات محددة تمس الحاجة إلى بيانها لأنها تتصل بالعقيدة، أوبالعبادات، أو بالأخلاق، أو غير ذلك. ومن يراجع التفسير النبوى فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنن يلاحظ هذه النتيجة بشكل واضح.

أما فيما يتعلق بالأسلوب النبوى فى التفسير ، فيلاحظ أن خصيصة الإيجاز بارزة فيه فى كل المواضع، وكأنه ﷺ آثر التفسير بكلمات محددة معدودة حتى يسهل على المسلمين فهمها وحفظها؛ وذلك مراعاة منه لمقتضى حال المخاطبين، كما يلاحظ التركيز فى العبارة النبوية فى هذه الناحية، ومن ذلك ما رواه سعيد بن المعلى رضى الله عنه قال: كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله كنت أصلى، فقال: " **ألم يقل الله** ﴿... اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...﴾ (الأنفال: 24) ثم قال: " **لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد** "، ثم أخذ بيدى، فلما أن أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن، قال: " ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ **هى السبع المثانى، والقرآن العظيم الذى أوتيته** "[2]

فالنبى ﷺ فى هذا الحديث أراد أن يبين أن ثواب فاتحة الكتاب أعظم من غيرها، وفسر قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (الحجر: 87) بأن السبع المثانى هى فاتحة الكتاب لأن آياتها سبع آيات، وقوله " **والقرآن العظيم** " دليل على أن الفاتحة هى القرآن

---

(1) أخرجه البخارى – كتاب تفسير القرآن – باب ما جاء فى فاتحة الكتاب – ح(4293) – فتح البارى 8|7,6

العظيم، وأن الواو ليست بالعاطفة التى تفصل بين الشيئين وإنما هى التى تجئ بمعنى التفصيل كما فى قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (الرحمن: 68)، ولقد امتن الله على رسوله بها، وبين النبى ﷺ أنها السبع المثانى [1]

وهذا الحديث فيه من البلاغة والإيجاز ما فيه، فلقد خص الفاتحة بهذه المنزلة لأنها من المثانى على معنى اشتمالها على أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وجمعت بين العبادة وطلب الاستقامة، والحديث عن الآخرة...، فجمعت من أصول الدين ما أهلها لأن تكون أم القرآن كما جاء فى أسمائها.

ويرى الطيبى " أن هذه المنزلة لأنها أبداً تدعو بوصفها المعجز، وغرابة اللفظ، وغزارة المعنى إلى الثناء عليها، ثم من يتعلمها ويعمل بها. ولقد ذكرها هاهنا بوصفين " **السبع المثانى والقرآن العظيم** "، وليس هذا من عطف الشئ على نفسه فهو غير جائز، وإنما هو من باب ذكر الشئ بوصفين: أحدهما: معطوف على الآخر، والتقدير: إتيان ما يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم: أى الجامع لهذين النعتين، والسبع المثانى بيان لعدد آياتها، وأما عطف القرآن على السبع المثانى فمن باب عطف العام على الخاص تنزيلاً للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات، وإليه أومأ صلوات الله عليه بقوله: " **ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن** " حيث نكر السورة وأفردها ليدل على أنك إذا تقصيت سورة سورة فى القرآن وجدتها أعظم منها " [2]

فما أروع البيان النبوى فى دقته، وتركيز عبارته، وإيجازه. إن التفسير النبوى للقرآن ليس مجرد بيان للمعنى الحرفى للكلمة أو الآية، **بل هو بيان نبوى للبيان القرآنى** ، وإن شئت قلت: بيان المعجز بالمبدع. ولقد لاحظنا الإيجاز ودقة العبارة وما تحمله من معانى فى قوله ﷺ : " **الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى، والقرآن العظيم الذى أوتيته** "وقد اتضح لنا لم خصت الفاتحة بهذه المنزلة.

---

(1) اختلف العلماء فى سبب تسميتها بالمثانى، فقيل: لأنها تثنى فى كل ركعة: أى تعاد، وقيل لأنها يثنى بها على الله تعالى، وقيل لأنها استثنيت لهذه الأمة لم تنزل على قبلها، ولقد أراد بها السورة، ولو أراد " الحمد لله رب العالمين " الآية لم يقل: " هى السبع المثانى " لأن الآية الواحدة لا يقال لها سبع، فدل على أنه أراد بها السورة، والحمد لله من أسمائها. وينظر فتح البارى 9,8/8

(2) يراجع شرح الطيبى على المشكاة 270,269/4

وإلى مثال آخر لموضوع آخر [1] وهو موقف من مواقف بنى إسرائيل من سجلهم الحافل

بالقتل والخيانة، والتحريف والتبديل، فلقد روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: " **قيل لبنى إسرائيل** ﴿... ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ ...﴾ (**البقرة: 58**) **فدخلوا يزحفون على أستاهم فبدّلوا، وقالوا: حبة فى شعرة** " [2]

إن الله أمرهم أن يدخلوا من باب بيت المقدس، وأمرهم بالسجود عند الباب شكراً وتواضعاً لله، وأن يسألوه المغفرة، فـ " **حطة** " فعلة من الحط كالجلسة والركبة، وهى خبر لمبتدأ محذوف: أى مسألتنا حطة، أو أمرك حطة، والأصل: النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات " [3] فبدّل يهود فى الأقوال والأفعال، فلقد أمرهم الله أن يدخلوا من الباب سجداً فدخلوا يزحفون على أستاهم، وأمرهم أن يسألوه أن يحط عنهم ذنوبهم فبدلوا القول بحبة فى شعرة على سبيل الاستهزاء. وكأن الحبيب ﷺ بإشارته الموجزة إلى مخالفة بنى إسرائيل لأمر الله بالقول والفعل أراد أن يبين أن التبديل والتحريف دأبهم وديدنهم، وأن العصيان ومخالفة أمر الله طبعهم وخلقهم، فلا عجب أن يحرفوا التوراة جحوداً وإنكاراً لنبوة النبى ﷺ، ولا عجب أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلاً، ويحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ولا عجب فى مخالفتهم أمر الله، فهم قتلة الأنبياء، ومبدلوا تعاليم السماء، وهذا ما أراد النبى ﷺ أن يلفت الأنظار إليه من حال اليهود فى التحريف والتبديل، والعصيان لأمر الله، وذلك من خلال تفسيره لهذه الآية الكريمة بعبارته الموجزة " **دخلوا يزحفون على أستاهم فبدلوا، وقالوا : " حبة فى شعرة** ". **وفى موضوع آخر، وهو وسطية الأمة وشهادتها على الأمم يقول ﷺ: " يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله:** ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

---

(1) راعيت هنا ترتيب الأمثلة التى انتقيتها على حسب ما جاءت فى صحيح البخارى لأنه ذكر التفسير النبوى على ترتيب سور القرآن فليتأمل !

(2) أخرجه البخارى –كتاب تفسير القرآن – باب قوله تعالى: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم...) الأية – ح(4298) 14/8, ومسلم –كتاب التفسير – 152/18, والترمذى فى أبواب تفسير القرآن – سورة البقرة – ح(3132)، وفى تحفة الأحوذى ذكر أنه أخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقى 234/8

(3) ينظر الكشاف 171/1

النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (**البقرة: 143**) [1] أراد المصطفى ﷺ أن يبين أن أمته هى الأمة الوسط التى تشهد للأنبياء يوم القيامة، ولقد فسر الآية من خلال وصف مشهد من مشاهد يوم القيامة يخص نوحاً عليه السلام أول الرسل إلى الأرض، وكأن النبى يريد أن يقول: إن شهادة هذه الأمة بالتبليغ تبدأ مع رسالات السماء إلى الأرض، وتشمل كل الرسل [2]، فهم الآخرون السابقون وفى ذلك أيضاً بيان لتبليغه ﷺ؛ لأن الأمة إنما عرفت ذلك من الوحى، ولقد زاد أبو معاوية: " **فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا** " وهنا إشارة إلى مدح هذه الأمة حيث إن الرسول سيكون عليهم شهيداً، والكلام وارد فى مدح الأمة، فالغرض هنا أن يزكيهم فضمن " **شهد** " معنى " **رقيب**" لأن العدول تحتاج إلى رقيب يحفظ أحوالهم ليطلع عليها ظاهراً وباطناً فيزكيهم، ولما كانوا هم العدول من بين سائر الأمم خصهم الله تعالى بكون الرسول عليهم شهيداً، أى رقيباً ومزكياً وهذا لا يدل على أنه لا يشهد على سائر الأمم مع أن مزكى الشاهد أيضاً شاهد [3] وفى قضية تلتبس على كثير من الناس، ويستغلها بعض أعداء الدين، والجاهلون بطبيعة اللغة والوحى وطبيعة القرآن **وهى قضية المحكم والمتشابه** أراد النبى ﷺ أن يحذر من مسلك هؤلاء الذين يتبعون المتشابهات إما لجهل بالدين أو غرض سئ دفين فى نفوسهم، فقرر ذلك من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (ال عمران: 7) تقول عائشة: قال رسول الله بعد أن تلا هذه الآية : " **فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم** "[4]

---

(1) أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى –كتاب التفسير – باب قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً...) – ح (4306) – فتح البارى 21/8, وأخرجه الترمذى فى أبواب التفسير – ح (3140)، وفى تحفة الأحوذى ذكر أنه قد أخرجه أيضاً أحمد والبخارى والنسائى وغيرهم239/8

(2) ولقد جاء بسند جيد عن أبى بن كعب فى قوله تعالى: (لتكونوا شهداء...) وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح، وقوم صالح، وقوم شعيب، وغيرهم أن رسلهم بلغتهم، وأنهم كذبوا رسلهم. وقال أبو العالية: وهى قراءة أبى. فتح البارى 22/8 (3) انظر شرح الطيبى على المشكاة 190,189/10

(4)متفق عليه.أخرجه البخارى –كتاب التفسير – باب (منه آيات محكمات)ح (3664)59/8 ومسلم – كتاب العلم =

وهناك رواية أخرى للحديث عند مسلم [1]، وهنا يحذر النبى ﷺ من صنيع هؤلاء ومسلكهم بعبارة موجزة مركزة أحال فيها على القرآن حين قال: " **فأولئك الذين سمى الله** "، وأول ما ظهر ذلك من اليهود كما ذكر ابن إسحاق فى تأويلهم للحروف المقطعة، وأن عددها بالجمل مقدار مدة هذه الأمة، وأول ما ظهر فى الإسلام من الخوارج، فالحديث من معجزات النبوة فوق أنه تفسير لمعنى الآية؛ حيث ظهرت هذه النابتة فيما بعد حتى يومنا هذا. " **والمتشابه**: ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة فى أوائل السور" [2]

وتفسير النبى ﷺ للآية موجه إلى صنف معين من الناس فى قلوبهم زيغ، وهم أهل البدع الذين يطلبون الفتنة والضلال للناس فى دينهم، ويرومون تأويل القرآن بما تشتهيه أنفسهم بعيداً عن هدى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ [3].

وفيما يتعلق بإخراج الزكاة والإنفاق فى سبيل الله أراد النبى ﷺ أن يحذر من منع الزكاة، ويبين جزاء من بخل بالمال، ولم يعط للسائل والمحروم حقه المعلوم، فقال ﷺ: " **من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعاً أقرعاً له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه – يعنى بشدقيه – يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية** ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (ال عمران: 180) [4]

وهنا التفسير النبوى بيان زاجر ورهيب وتفصيل لما أجمل فى الآية، فالآية بينت أن الباخلين بما آتاهم الله من فضله سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، ولكن لم تبين كيفية هذا التطويق، فجاء البيان النبوى بتصويره الدقيق المعبر ليوضح أن هذا المال سيمثل فى صورة حية ذكر، أو فى صورة حية مطلقاً، وعبر عنها هنا بالشجاع ولم يقل حية لأجل مناسبة الصورة المرعبة الزاجرة، و ليس أى شجاع، بل هو أقرع لا شعر على رأسه لشدة غضبة و كثرة سمه، و طول عمره ،هل

= باب النهى عن اتباع متشابه القرآن 217/16, وقد أخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة. ويراجع شرح الطيبى344/1, وتحفة الأحوذى 271/8

(1) بلفظ " فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم ".

(2) وقيل فى معناه نحو عشرة أقوال أخرى تراجع فى صحيح مسلم بشرح النووى217/16, وفتح البارى 60/8

(3) ويراجع الكشاف للزمخشرى فى تفسير هذه الآية 366/1

(4) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة فى كتاب التفسير – باب قوله تعالى: (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم...) الآية ح (4380) 80/8، وأخرجه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة من حديث عبد الله بن مسعود ويراجع شرحه وتخريجه فى تحفة الأحوذى289/8

يقف الأمر عند هذا الحد في وصفة؟ لا إن له زبيبتين أى نكتتين سوداوين فوق عينيه وهو أوحش ما يكون من الحيات و أخبثها [1]

إنه يكفى أن يرى المرء هذا المنظر المخيف، فكيف إذا أقبل عليه هذا الشجاع الأقرع ليجعل طوقاً فى عنقه، ويأخذ بلهزمتيه: أى بلحييه وما يتصل بهما من الحنك؟! ولكن أيقف الأمر عند هذا الحد؟ لا، بل يكثر همه قائلاً: " **أنا مالك أنا كنزك** " وهو تهكم، وشر أتاه من حيث كان يرجو الخير. فليتأمل المرء فى هذه اللوحة الوصفية التصويرية الدقيقة المكتملة الأجزاء، وما فيها من وعيد وزجر وتهديد وترهيب لهؤلاء الباخلين المانعين بما آتاهم الله من فضله، والذين كانوا يحسبون أن الشح بالمال والضن به على المحتاج هو خير لهم، فليتأملوا ولينظروا ماذا ينتظرهم!!

إن التفسير النبوى هنا جاء لآية فى موضوع الإنفاق فى سبيل الله، وهو من أهم الموضوعات لكثرة الباخلين والمانعين لحق الفقراء والمساكين، وكما هو معلوم أن الزكاة ركن ركين من أركان الدين بعد الشهادتين، وإقام الصلاة، فليتأمل المتأملون فى منهج التفسير النبوى، ووجهته فى اختيار الآيات موضوع التفسير.

وفى موضوع المعاد وبعث الأجساد:

وهو ما ينكره الملاحدة والزنادقة ومن لف لفهم حتى يومنا هذا ،وكذلك بيان منزلة إبراهيم عليه السلام، وبيان من يؤخذ بهم ذات الشمال من هذه الأمة يقول ﷺ: " **يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة غرلاً** ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: 104) ثم قال : " **ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصيحابى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح** ﴿... وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ ...﴾ (المائدة: 117) فيقال: **إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم مذ فارقتهم**" [2]

هذا الحديث ساقه البخارى فى التفسير لقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وضم التفسير النبوى إلى تفسير هذه الآية تفسير آية أخرى تتصل بأمر عقدى، وهو

---

(1) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 11/4

(1) أخرجه البخارى من حديث ابن عباس –كتاب التفسير – باب قوله تعالى: (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم...) ح (4440) 140/8

الإيمان بالبعث بعد الموت مبيناً أن حقيقة البعث ليس مجرد إحياء الأجساد، بل تعود إلى سابق عهدها كاملة غير ناقصة على حالتها الأولى التى دخلت بها إلى الدنيا، وهذا بيان نبوى لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ...﴾ " والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهاً للإعادة بالإبداء فى تناول القدرة لهما على السواء، فأول الخلق إيجاد من العدم، فكما أوجده أولاً عن عدم يعيده ثانياً عن عدم "[1]

فضم فى طيات تفسير الآيتين ذكر مواقف مختلفة، ومشاهد متعددة. المشهد الأول: حشر الناس حفاة غرلاً [2] كما بدأهم الله يعيدهم. والمشهد الثانى: أن إبراهيم عليه السلام أول من يكسى يوم القيامة، وفيه تشريف لإبراهيم عليه السلام وبيان لمكانته. المشهد الثالث: لرجال من أمة النبى ﷺ يؤخذ بهم ذات الشمال لارتدادهم على أعقابهم بعد مفارقة النبى لهم، وفى طيات هذا المشهد نداء من النبى ﷺ واستغاثة بالله فى شأن هؤلاء، وإقرار من النبى بشهادته عليهم ما دام فيهم كما قال عيسى عليه السلام. فمع الإيجاز فى التفسير النبوى نرى تصويراً دقيقاً كاشفاً عن مشاهد من يوم القيامة أجملتها الآية، وبينها التفسير النبوى.

وفى مقام بيان من ظلموا أنفسهم بالشرك، وعرضوا أنفسهم لسخط العزيز الجبار: يأتى التفسير النبوى ليبين أن الشرك بالله ظلم [3] يودى بصاحبه فى أودية الهلاك، ويبين لهم أن إمهال هؤلاء، والمد فى أعمارهم إنما هو استدراج لهم: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ (**إبراهيم: 42**)، ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾ (المؤمنون: 55،56) **ومن التفسير النبوى** : قوله ﷺ: " **إن الله يملى الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**، ثم قرأ: (**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد**) (هود: 102) [4] فبين النبى ﷺ أن الشرك ظلم لأن الحديث هنا

---

(2) يراجع الكشاف 3|138

(3) الغرل: جمع الأغرل وهو الأقلف، والغرلة: القلفة.

(4) وقد صح فى الحديث تفسير الظلم بالشرك فى قوله تعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) (الأنعام: 82). والحديث أخرجه البخارى فى كتاب التفسير – باب قوله تعالى: (لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان: 13) – ح (4591) 383/8 وهذا الحديث من التفسير النبوى وهو غير الحديث المذكور.

(1) متفق عليه من حديث أبى موسى. أخرجه البخارى فى كتاب التفسير – باب قوله تعالى: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) ح (4501)، وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة – باب

عن القرى الظالمة التى كفرت بالله عز وجل وأهلكها الله، وأراد النبى أن يبين أن هذا الإهلاك يشمل الشخص الظالم كما يشمل المجموع، ويدل على أن المقصود بالظلم هنا الشرك قوله صلى الله عليه: " **لم يفلته** " ومعناه: لم يتفلت منه، ويجوز أن يكون بمعنى لم يفلته منه أحد: أى لم يخلصه ، أى إذا أهلكه لم يرفع عنه الهلاك [1]، ويملى: مشتق من الملوة وهى المدة والزمان بضم الميم وكسرها وفتحها. وهذا على تفسير الظلم بالشرك، وهذا التأويل يشهد له كلام النبى ﷺ، والآية الكريمة لأنها جاءت للحديث عن هؤلاء الكافرين، " وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها " [2] بل فيها تحذير من كل ظلم سواء كان للنفس بالذنب، أو للغير من الناس بأخذ الحقوق بغير وجه حق، ووضع الأمور فى غير مواضعها.

وفى مقام بيان تثبيت الله للمؤمن فى القبر عند السؤال، وهو موقف جد خطير تتلعثم فيه الألسنة لهول المطلع، ورهبة المشهد يقول ﷺ: " **المسلم إذا سئل فى القبر تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله فذلك قوله:** ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...﴾ (إبراهيم: 27) [3] وفى رواية مسلم: " **نزلت فى عذاب القبر، فيقال له من ربك فيقول ربى الله، ونبيى محمد ﷺ، فذلك قوله:** ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...﴾.

يبين النبى ﷺ أن المؤمن حين يسأل فى قبره عن ربه فإنه يجيب بسرعة

دون تلعثم أو تردد، ودل على ذلك قوله " **فذلك** " ففيها إشارة إلى سرعة الجواب، فلم يتحير، بل يجيب بديهاً بالشهادتين، وذلك دليل على ثباته عليه، واستقراره على كلمة التوحيد فى الدنيا، ورسوخها فى قلبه؛ ولذلك أتى بلفظ الشهادة لأنها لا تصدر إلا عن صميم القلب، ومطابقة الظاهر للباطن.

تحريم الظلم 137/16, والترمذى فى أبواب التفسير – سورة هود ح (3311) 422,421/8, وأخرجه النسائى وابن ماجة.

(2) بنظر صحيح مسلم بشرح النووى 137/16, وشرح الطيبى على المشكاة 302/9، وفتح البارى 22/8

(3) ينظر الكشاف 402/2

(4) متفق عليه من حد يث البراء بن عازب. أخرجه البخارى فى كتاب التفسير – باب قوله تعالى: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت...) ح (4514) 236/8, وأخرجه مسلم فى باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه 204/17, وأخرجه أبوداود والترمذى والنسائى.

وتثبيت الله للمؤمنين فى الدنيا بأنهم إذا فتنوا لم يزلوا عنها – وإن ألقوا فى النار – ولم يرتابوا بالشبهات، وتثبيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا فى القبر لم يتوقفوا فى الجواب، وإذا سئلوا فى الحشر وعند مواقف الإشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يبهتوا " [1]

ويلاحظ أن النبى ﷺ ركز على الشهادتين فى تفسير الآية، وفى بيان تثبيت الله للمؤمنين فى الدنيا والآخرة، ولم يشر إلى الأسئلة الأخرى فى القبر عن النبى وعن الدين، وكأنه يريد أن يركز على الإيمان الذى هو أساس الاعتقاد، فإذا ثبت المؤمن فى الإيمان فى الدنيا والآخرة فكل الأعمال الأخرى تبع له ونتيجه له.

ويعرض البيان النبوى لمشهد من مشاهد القيامة يوم الحسرة إذ قضى الأمر، فيقول ﷺ: " **يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادى مناد يا أهل الجنة، قال: فيشرئبون ، وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، كلهم قد رآه، ثم ينادى يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ:** ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ– **وهؤلاء فى غفلة الدنيا –** وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم: 39) [2]

لقد بين النبى صلى الله عليه هذا اليوم بمشهد تصويرى دقيق حيث بين أن الموت يؤتى به يوم القيامة كهيئة كبش أملح [3] وذلك ليشاهدوه بأعينهم فضلاً عن أن يدركوه ببصائرهم.

والمعانى إذا ارتفعت عن مدارج الأفهام صيغت فى قوالب من عالم الحس حتى تتصور فى القلوب، وتستقر فى النفوس، وفى الآخرة تنكشف المعانى للناظرين إنكشاف الصور كما كان فى الدنيا.

---

(1) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 303/1

(2) متفق عليه من حديث أبى سعيد. أخرجه البخارى فى كتاب التفسير – باب قوله تعالى: (وأنذرهم يوم الحسرة...) ح (4545) 290/8, وأخرجه مسلم فى باب جهنم أعاذنا الله منها – 184/17, وأخرجه الترمذى وأبو يعلى وابن حبان.

(1) يقول النووى: " وليس الموت بجسم فى صورة كبش أو غيره، فيتأول الحديث على أن الله يخلق هذا الجسم ثم يذبح مثالاً لأن الموت لا يطرأ على أهل الآخرة. والكبش الأملح: قيل هو الأبيض الخالص. قاله الأعرابى، وقال الكسائى: هو الذى فيه بياض وسواد، وبياضه أكثر. صحيح مسلم بشرح النووى185/17

إن الحسرة يومئذ للكافر على خلوده فى العذاب، وعلى غفلته فى الدنيا عن الإيمان والعمل الصالح، وهنا يزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم على خلودهم فى الجنة والنعيم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم على خلودهم فى النار والجحيم. وقد عبر عن قضاء الأمر هنا ببيان خلود أهل الجنة والنار فى النعيم والعذاب.

ويلاحظ كما سبق أن النبى ﷺ آثر التمثيل والتصوير لهذا الموقف من مواقف يوم القيامة، وذلك فى سياق تفسيره للآية؛ وذلك لأن الموت من المعانى المرتفعة فى مدارج الأفهام، فاحتاج إلى بيان ذلك بمثال تصويرى ليكشف عن سر الحسرة فى هذا اليوم، ولم سمى بهذا الاسم " [1]

وفى موضع آخر نرى التفسير النبوى يتعرض لبيان الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ويوضح أن الناس هم الذين يغيرون هذه الفطرة ويفسدونها، ويظهر ذلك من خلال صورة بيانية تنبع من البيئة، فيقول ﷺ: " **ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء " ثم يقول:** ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾ (الروم: 30) [2]

فقوله " **ما من مولود** " جاء بـ " **من** " الاستغراقية هنا لتفيد العموم، وكأنه يريد أن يقول ما من مولود يوجد على أمر من الأمور إلا على هذا الأمر، والمعنى هاهنا تمكن الإنسان من الهدى فى أصل الجبلة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها لم يفارقها إلى غيرها؛ لأن هذا الدين حسنه موجود فى النفوس؛ وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية والتقليد، ووضح ﷺ هذا الانحراف عن الفطرة والخلقة بالتغيير فى خلقة البهيمة السليمة. فالبهيمة حين توضع توضع جمعاء لم يذهب من بدنها شئ، وسميت بذلك لاجتماع سلامة أعضائها، وهو أمر يراه الناس ويحسونه، ولكن بعض الناس يجدعون منها بقطع الأنف أو الأذن أو الكى لسبب من الأسباب [3]، وكذلك هؤلاء الذين يهودون، وينصرون، ويمجسون، إنما يغيرون فطرة هؤلاء الأولاد ويفسدون

---

(2) ويوم الحسرة من أسماء يوم القيامة عظمه الله، وحذره عباده. ويراجع تفسير ابن كثير 116/3

(3) متفق عليه من حديث أبى هريرة. أخرجه البخارى –كتاب التفسير – باب قوله تعالى: (لا تبديل لخلق الله...) ح (4590) 382/8, وأخرجه مسلم – باب معنى كل مولود يولد على الفطرة 207/16

(1) ولقد عبر عن هذا الوضع بقوله " تنتج " ببناء الفعل للمفعول: وقد نتج الناقة ينتجها نتجاً: إذا تولى نتاجها حتى وضعت فهى ناتج، وهو للبهائم كالقابل للنساء، والأصل من نتجها. ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 209/16, وشرح الطيبى على المشكاة 254/1

عقيدتهم ونفوسهم صرفاً عن الفطرة كما يغير الناس فى البهيمة السليمة بتشويه صورتها وخلقها، والجامع بين هؤلاء جميعاً هو التغيير والتبديل لخلق الله، أى لدين الله وفطرة الإسلام.

وفى موضع آخر يفسر النبى ﷺ معنى (الحساب اليسير) فى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ (الانشقاق: 7،8)

فيقول ﷺ: " **ليس أحد يحاسب إلا هلك** " قالت: قلت يا رسول الله: جعلنى الله فداك، أليس يقول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ قال: " **ذلك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب عذب** "[1]

ولقد جاء العرض مفسراً فى موضع آخر من القرآن بما يتفق مع ما ذكره النبى ﷺ، وذلك حيث يقول تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ (الحاقة: 18،19) فقوله " **فأما** " تفصيل للعرض، والآيات التالية لما سبق فى سورة الحاقة توضح ذلك. " **فالحساب اليسير** ": أى السهل الهين الذى لا يناقش فيه، ولا يعترض بما يسوءه ويشق عليه كما يناقش أصحاب الشمال" [2] فهناك عرض للاعتذار والاحتجاج والتوبيخ، وعرض تنشر فيه الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه، والهالك كتابه بشماله.

وفى موضع آخر نرى التفسير النبوى للقرآن يتعرض لبيان آيات تتصل بقصص الأنبياء السابقين، وذلك لأخذ العظة والعبرة ولبيان شئ أجمله القرآن فيما يتصل بهذا القصص

فلقد خطب النبى ﷺ يوماً فذكر الناقة، والذى عقرها من قوم صالح

فقال ﷺ: " ﴿إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ (الشمس: 12)**انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى رهطه مثل أبى زمعة** " الحديث [3] فبين النبى ﷺ أن الذى تصدر لعقر الناقة رجل عزيز: أى قليل

---

(2) متفق عليه من حديث عائشة. أخرجه البخارى –كتاب التفسير – باب قوله تعالى: (فسوف يحاسب حساباً يسيراً) ح (4751) 579/8, وأخرجه مسلم –كتاب صفة الجنة ونعيمها – باب إثبات الحساب 208/17, وأخرجه الترمذى فى أبواب التفسير – سورة الانشقاق ح (3557) 180/9, والنسائى ح (679)

(1) يراجع تفسير الكشاف 727/4, و تفسير ابن كثير 443/4

(2) متفق عليه من حديث عبد الله بن زمعة. أخرجه البخارى –كتاب التفسير – باب سورة الشمس وضحاها – ح(4754) 587/8, وأخرجه مسلم – باب جهنم أعاذنا الله منها – 188/17

المثل، وعارم: أى صعب على من يرومه شرير مفسد خبيث قوى شرس، ومنيع : أى قوى ذو منعة ورهط يمنعونه من الضيم [1]، وبذلك فسر ﷺ قوله تعالى: ﴿إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾.

وهذه بعض أحاديث التفسير النبوى للقرآن، وهناك غيرها من الأحاديث تركت تحليلها خشية التطويل، واكتفيت بالإشارة إلى أرقام بعضها فى صحيح البخارى لمن أراد التوسع فى البحث [2]

ونظرة عامة على التفسير النبوى للقرآن يتضح لنا من خلالها أنه **سلك مسلك الإيجاز** فى بيان المقصود من الآيات كما فى تفسير **السبع المثانى والقرآن العظيم**، وتفسير قوله تعالى: ﴿...مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾. **كذلك اعتماده على الوصف والتصوير الكاشف** لمشاهد من عالم الغيب أجملها القرآن الكريم مثل ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ...﴾، وقوله تعالى: ﴿ **ولا يحسبن** وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ ...﴾، وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ...﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ...﴾. ونلمح عناية التفسير النبوى بتفصيل بعض ما أجمل فى القصص القرآنى، أو توضيح المقصود منه كما فى قوله تعالى آمراً بنى إسرائيل: ﴿...ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ...﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾.

ونظرة أخرى إلى التفسير النبوى للقرآن يتضح لنا من خلالها أنه — على قلته — **متنوع فى موضوعات مختلفة** ، فبعضه تفسير لآيات تتصل بالإيمان بالله، وبعضه تفسير لآيات تتصل بالغيبيات كما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...﴾، وبعض الأحاديث تفسير لآيات تتصل بالزكاة، والصلاة، وبيان وسطية الأمة، أو بيان المحكم والمتشابه، أو بيان مغزى القصص القرآنى وتفسير بعض معانيه، أوبيان مواقف ومشاهد من يوم القيامة، أو الحديث عن الجنة ونعيمها، وبيان علامات الساعة، والحديث عن القضاء والقدر، وهذه من أبرز الموضوعات التى يدور فى فلكها التفسير النبوى للقرآن، وكثير من هذه الأحاديث لم أذكره هنا لأجل الإيجاز، فهذا الموضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة تتناول التفسير النبوى للقرآن من الناحية الأسلوبية، ومن الناحية الموضوعية.

---

(3) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 17 | 188, وفتح البارى 8 | 589

(4) ومنها: ح (4356)، (4450), (4485)، (4502)، (4509)، (4512)، (4535)، (4544)، (4591) (4596)، (4623)، (4666)، (4692)، (4750)، (4752)، (4759)، (4774)، (4779)، (4786) وهذه الأحاديث وغيرها فى كتاب التفسير من صحيح البخارى، ويراجع كتاب التفسير فى صحيح مسلم.

ويلاحظ أن الموضوعات التى سبقت الإشارة إليها من الأهمية بمكان فى الدين، ويحتاج المسلمون إلى معرفة معانى الآيات التى تتصل بها، وهو ما حرص عليه النبى ﷺ لكونه مما تمس حاجة الناس إلى معرفته من دين الله، فهو من أصول الدين، وقواعد الإسلام، وترك ﷺ تفسير الكثير من الآيات لأن القرآن الكريم كتاب الإنسانية مفتوح مع الزمن معجز للناس فى كل زمان ومكان، وقد سبق توضيح ذلك قبل تحليل الأحاديث الماضية [1]

وإذا كنا بصدد الحديث عن التفسير النبوى للقرآن فمما تجدر الإشارة إليه أن أبين الفرق بين أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الحديث النبوى، وهو موضوع الفصل التالى.

(1) وذلك فيما نقلته عن الرافعى فى إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص10

الفصل الثالث: بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث

هذا الموضوع قد كتب فيه بعض القدامى والمحدثين [1]، ولقد بينوا أن الحديث النبوى إنما جاء على الأسلوب المعتاد للعرب فى التخاطب، وإن كان قد ارتقى فى سلم البيان والبلاغة إلى درجة عالية.أما القرآن فهو أسلوب مبتكر لا شبيه له فيما يعرف من كلام العرب[2]

يقول الباقلانى: " والذى يصور عندك ما ضمنا تصويره، ويحصل لديك معرفته إذا كنت فى صنعة الأدب متوسطاً، وفى علم العربية متبيناً أن تنظر أولاً فى نظم القرآن ثم فى شئ من كلام النبى ﷺ، فتعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين فإن تبين لك الفصل، ووقعت على جلية الأمر وحقيقة الفرق فقد أدركت الغرض، وصادفت القصد " وبعد أن روى للنبى ﷺ سبع خطب وكتابين قال: " فإن كان لك فى الصنعة حظ، أوكان لك فى هذا المعنى حس، أو كنت تضرب فى الأدب بسهم أو فى العربية بقسط – وإن قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب – فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن، وبين ما نسخناه لك من كلام النبى فى خطبه ورسائله، وما عساك تسمعه من كلامه، ويتساقط إليك من ألفاظه، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بوناً بعيداً، وأمداً مديداً، وميداناً واسعاً، ومكاناً شاسعاً... وستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهى، وأن كلام النبى ﷺ من الأمر النبوى... فإذا أردت زيادة فى التبين، وتقدماً فى التعرف، وإشرافاً على الجلية، وفوزاً بحكم القضية، فتأمل هداك الله ما ننسخه من خطب الصحابة و البلغاء لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبى واحد، وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين، وبين شعر الشاعرين، وذلك أمر له مقدار معلوم، وحد ينتهى إليه مضبوط " [3]

ويقول أديب العربية الرافعى: " على أن أعجب شئ أنك إذا قرنت كلمة من تلك البلاغة إلى مثلها مما فى القرأن رأيت الفرق بينهما فى ظاهره كالفرق بين المعجز وغير المعجزسواء، ورأيت كلامه صلى الله عليه فى تلك الحال مما يطمع فى مثله، وأحسست أن بينك وبينه صلة تطوع لك

---

(1) فمن القدامى: الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن. ومن المحدثين: الأستاذ. مصطفى صادق الرافعى فى كتابه إعجاز الفرآن والبلاغة النبوية، وأ. د. محمد عبد الله دراز فى كتابه النبأ العظيم، والأستاذ. مصطفى الزرقا فى رسالته فى الحديث النبوى، وأ. د. محمد رجب البيومى فى كتابه البيان النبوى، وأ. د. معروف الدواليبى فى كتابه المدخل إلى أصول الفقه، والعلامة الزرقانى فى كتابه مناهل العرفان، وأ. د. محمد لطفى الصباغ فى كتابه الحديث النبوى مصطلحه وبلاغته وكتبه.

(2) ينظر الحديث النبوى مصطلحه وبلاغته وكتبه ص 100

(3) ينظر إعجاز القرأن ص 154,127

القدرة عليه، وتمد لك أسباب المطمعة فيه بخلاف القرآن فإنك تستيئس من جملته، ولا ترى لنفسك إليه طريقاً البتة، إذ لا تحس منه نفساً إنسانية، ولا أثراً من آثار هذه النفس، ولا حالة من حالاتها حتى تأنس إلى ذلك على التوهم ثم تتوهم الطمع والمعارضة من هذه الآنسة فتمضى عزمك، وتقطع برأيك، وتبت القول فيه كما يكون لك قراءة الكلام الإنسانى، فإن جميع كلام الآدمى منهاج، ولجملته طريق، وحدود البلاغة التى تفصل بعضه عن بعض كلها مما يتوقف عليه بالحس والعيان، ويقدر فرق ما بين بعضها إلى بعض مهما بلغ من تفاوتها واختلافها فى السبك والصنعة والغرابة. بيد أن ذلك مما لا يستطاع فى القرآن، ولا وجه إليه بحال من الأحوال، فما هو إلا أن تقرأ الآية حتى تراها قد خرجت عن حد المألوف، وانسلت منه، وفاتت سمت ما قدرت لها من مطلع ومقطع... وهذا وجه من أبين وجوه الإعجاز فى القرأن، وقد جاء من طبيعة تركيبه وأنه لا أثر فيه من آثار النفس الإنسانية... " (1)

ويقول أ. د. محمد عبد الله دراز: " ونحن نرى أسلوب القرآن فنراه ضرباً وحده لا يجرى مع القرآن فى ميدان إلا كما تجرى محلقات الطير فى جو السماء لا تستطيع إليها صعوداً. ثم نرى أساليب الناس فنراها على اختلافها ضرباً واحداً لا تعلو عن سطح الأرض، فمنها ما يحبو حبواً، ومنها ما يشتد عدواً، ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه السيارات الأرضية إلى تلك السيارات السماوية! نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوى فتطمع فى اقتناصها ومجاراتها كما تطمع فى اقتناص الطائر أو مجاراته، ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة فيشتبه عليك أمرها: أمن النبوة هى أم من كلمات الصحابة أو التابعين ذلك ما علمت من امتياز الأسلوب النبوى بمزيد الفصاحة، ونقاء الديباجة، وإحكام السرد. ولكنه امتياز قد يدق على المنتهين فى هذا الفن، وقد يقصر الذوق وحده عن إدراكه، فيلجأ إلى النقل يستعينه فى تمييز بعض الحديث المرفوع من الحديث الموقوف أو المقطوع. أما الأسلوب القرآنى فإنه يحمل طابعاً لا يلتبس معه غيره، ولا يجعل طامعاً يطمع أن يحوم حول حماه، بل يدع الأعناق تشرئب عليه ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور. كل من يرى بعينين أو يسمع بأذنين إذا وضع القرآن بإزاء غير القرآن فى كفتى ميزان، ثم نظر بإحدى عينيه أو استمع بإحدى أذنيه إلى أسلوب القرآن، وبالأخرى إلى أسلوب الحديث النبوى وأساليب سائر الناس، وكان قد رزق حظاً من الحاسة البيانية والذوق اللغوى فإنه لا محالة سيؤمن معنا بهذه الحقيقة الجلية، وهى أن أسلوب القرآن لا يدانيه شئ من هذه الأساليب كلها. ونحسب أنه بعد الإيمان بهذه الحقيقة لن يسعه إلا الإيمان بتاليها... استدلالاً بصنعة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ...﴾

(1) ينظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص276- 279

(الشورى: 11) على صانع ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [1] وهذا الفرق العظيم جداً بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث قد أشار إليه أيضاً الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا فى كتابه " فى الحديث النبوى " وكان مما ذكره: " وإن هذا التفاوت الكبير فى الأسلوبين إذا أنعم الإنسان النظر فيه، وكان ذا ملكة بيانية لا يترك لديه مجالاً للشك والريبة فى أن القرآن والحديث النبوى صادران عن مصدرين مختلفين، ولقد تقدمت فى العصر الحديث دراسة الأساليب بشكل أصبح الدارسون فيه يستطيعون تحديد معالم الشخصية لصاحب النص بشكل دقيق، وقد يذكرون تاريخ حياته وصفاته ومقدرته العلمية من النظر فى آثاره، وقد أصبح فى حكم المقرر أن الأسلوب جزء من شخصية المرء لا يملك أن يحور فيه، ولا أن يعدل، وهذا أمر ملموس مقرر؛ إذ أنك لو جئت لإنسان درس أسلوب شاعر ما بأبيات لم يسبق أن اطلع عليها فسرعان ما يحكم على أنها من شعره... فالحديث النبوى صورة جديدة مبتكرة فى البيان العربى... جارية على قواعد العرب وطريقتهم فى التركيب... فلو خلطت سورة أو جملة آيات بمجموعة أخرى من الكلام العربى لاستطعت أن تميزها بسهوله. أما الحديث النبوى: فكثيراً ما يشبه أسلوبه أسلوب سائر الأقوال، والحكم المأثورة إذا كانت بليغة، ومن هنا أمكن الوضع فى الحديث " [2] ولقد ساق الأستاذ الزرقا عدة أمثلة من القرآن والسنة ليظهر من خلالها الفرق العظيم والبون الشاسع بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث. ولن أسوق هنا نماذج وأمثلة، فالقرآن بين أيدينا، والحديث كذلك بين أيدينا، وليقرأ المسلم ويتأمل ليظهر له أن القرأن من الأمر الإلهى، وأن الحديث النبوى من الكلام البشرى، ولكنه فى قمة البيان الإنسانى. هذه حقيقة عرفها الناس منذ نزول القرآن، وعرفوا أن القرأن كلام الله منذ الوهلة الأولى لما كان صناديد المشركين يستمعون للقرآن خلسة من وراء بعضهم كما كان يفعل أبوجهل عمر بن هشام، والأخنس بن شريق، وأبوسفيان بن حرب قبل إسلامه، وكما قال الوليد بن المغيرة فى وصفه: " إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته " [3] فكانوا يدركون الفرق بين أسلوب النبى ﷺ الذى تربى بينهم وعرفوه وعرفوا نهجه فى كلامه ،و بين أسلوب القرآن الذى نزل من السماء، ولقد سجل القرآن هذا الحق والصواب على فلتات ألسنتهم ، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ

---

(1) ينظر النبأ العظيم ص 100,99

(2) ينظر الحديث النبوى مصطلحه وبلاغته وكتبه ص 102- 107نقلاً عن كتاب فى الحديث النبوى ص 75-78للأستاذ / مصطفى الزرقا.

(1) يراجع هذه الآثار والتعليق عليها فى كتاب البيان القرآنى أ. د. محمد رجب البيومى – ط مجمع البحوث الإسلامية – (1391)هـ (1971)م.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (الفرقان: 32)، وقال تعالى على لسانهم أيضاً: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: 31) فجاءوا باسم القرآن فى كلامهم، ولكن استكبارهم منعهم من الإيمان، ولقد ذكر بعض المفسرين أنهم ذكروا القرآن باسمه الصريح على سبيل الاستهزاء [1]، ولو كان هذا مقصدهم فلا يمنع من اعتقادهم صدق القرآن ومبلغه بدليل أنهم قالوا: ﴿...لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [2] فتمنوا فى أنفسهم أن يكون لهم هذا الشرف، وأن يحوزوا هذه المنقبة، ولما كانت لغيرهم ممن هو أهل لها عارضوه واستهزؤا به وبالقرآن بعد أن كانوا يدعونه بينهم بالصادق الأمين ويحفظون ودائعهم عنده!

(2) ذكر ذلك الزمخشرى فى تفسير آية سورة الزخرف. الكشاف 252/4

(3) والقريتان هما مكة والطائف. ورجلا القريتين هما: الوليد بن المغيرة المخزومى، وحبيب بن عمير الثقفى وقيل: عتبة بن ربيعة، وكنانة بن عبد ياليل، وقيل الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى. الكشاف 252,251/4

الباب الثالث: الأداء والحوار فى الحديث النبوى

الفصل الأول: الأداء فى الحديث النبوى

النبى ﷺ مبين عن الله حيث يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: 44) ، وهو ﷺ مبلغ عن الله أيضاً حيث يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: 67)، وهو ﷺ شاهد، ومبشر، ونذير، وداع إلى الله بإذنه، وسراج منير حيث يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ (الأحزاب: 45،46)، ومن كان عمله البيان والبلاغ والإنذار والتبشير والدعوة كما نطق القرآن فلابد من أن يؤهل بما يعينه على أداء هذه المهمة الجسيمة، ولقد أعان الله رسوله، وأيده بالحق، والمنطق، والحجة، فكان رسول الله فى شخصه فى قمة البيان والفصاحة، وكان فى منهجه الدعوى فى أعلى درجات الأداء والبيان عن الله عز وجل

ففيما يتعلق بمنطقه وتمام آلة البيان عنده ﷺ :

فلقد كان ضليع الفم [1] يستعمل فمه كله إذا تكلم، ولا يقتصر على تحريك الشفتين فحسب وكان يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه [2]، وكان رسول الله أفلج الثنيتين إذا تكلم رئى كالنور يخرج من بين ثناياه [3]، وكان فى كلامه ﷺ ترتيل وترسيل [4] وكان طويل السكوت [5] لا يتكلم فى غير حاجة، وإذا تكلم لم يسرد سرداً **كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها:**

---

(1) رواه مسلم من حديث جابر بن سمرة 84/7

(2) ينظر وصفه صلى الله عليه وسلم فى حديث هند بن أبى هالة، وإسناده ضعيف.

(3) أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث ابن عباس، وأخرجه الدارمى فى سننه، وقال الطبرانى لا يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد، تفرد به إبراهيم الحازمى، وفى إسناده عبد العزيز بن أبى ثابت بن عمران، وهو متروك الحديث. ينظر المشكاة ح (5797) 24/11. والأفلج: من الفلج بالتحريك وهو فرجة ما بين الثنايا والرباعيات، و الفرق: فرجة بين الثنيتين.

(4) أخرجه أبو داود من حديث جابر، وفى إسناده مجهول. ينظر المشكاة ح(5827) 83/11. ترتيل القراءة: التأنى والتمهل وتبيين الحروف والحركات تشبيهاً بالشعر المرتل، وهو المشبه بنور الأقحوان، يقال: رتل القراءة وترتل فيها. والترسيل: الترتيل، يقال: ترسل الرجل فى كلامه ومشيه إذا لم يعجل، وهو والترتيل سواء. ينظر حاشية الطيبى على المشكاة 38/11

(5) أخرجه أحمد من حديث جابر بن سمرة، وهو فى صحيح الجامع الصغير ح (4822)، وفى المشكاة ح (5826) 11/ 38

لم يكن يسرد كسردكم كان يحدث بحديث لو عدّه العاد لأحصاه [1]. هذا فيما يتعلق بشخصه، وتمام آلة البيان عنده ﷺ. **أما فيما يتعلق بأدائه للحديث** فلقد استخدم النبى ﷺ طرقاً مختلفة لأداء الحديث. منها: ما يتصل بالإشارة المفهمة والموضحة، ومنها التكرار لأجل تثبيت المعنى فى نفس السامع، ومنها التصوير التعليمى الواقعى [2] وسأركز هنا على هذه الطرق لأنها أبرز طرق الأداء فى الحديث النبوى، وتدور فى كثير من المواضع.

أولاً: الإشارة المفهمة الموضحة :

كان ﷺ يعتمد على الإشارة المفهمة الموضحة فى بعض المواقف لتأكيد أمر ما، و لتثبيت فهمه فى أذهان الصحابة. وهذه الإشارة لها مدخل كبير فى التعبير لأنها تستلفت النظر، وتنبه الغافل، وتعين على التذكر والحفظ، ولقد ذكر الجاحظ " أن من أصناف الدلالات على المعانى [3] اللفظ، والإشارة...، والإشارة تكون باليد، وبالرأس وبالعين، والحاجب، والمنكب...، والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هى له، ونعم الترجمان هى عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغنى عن الخط. وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة على اختلافها فى طبقاتها ودلالاتها، وفى الإشارة بالطرف، والحاجب، وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة فى أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا البتة... هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت [4]

وكما يلاحظ من كلام الجاحظ أهمية الإشارة فى توضيح المعانى وما لها من أثر فى البيان.

ولقد استخدم النبى ﷺ أشكالاً مختلفة من الإشارة فى أداء الحديث: فإذا أراد أن يبين شدة الأمر ظهر ذلك على ملامحه وفى صوته، وإذا أراد بيان الملازمة جمع بين أصبعيه السبابة والوسطى. ومن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: كان رسول الله إذا خطب احمرت

---

(1) متفق عليه. المشكاة ح (5815) 33/11. والسرد: هو التتابع والتوالى فى الكلام، يقال: فلان سرد الحديث سرداً إذا تابع الحديث بحديث استعجالاً، وسرد الصوم: تواليه: يعنى لم يكن حديث النبى متتابعاً بحيث يأتى بعضه إثر بعض فيلتبس على المستمع، بل كان يفصل بين كلامين بحيث لو أراد المستمع عده أمكنه، فيتكلم بكلام واضح مفهوم فى غاية الوضوح والبيان. يراجع شرح الطيبى على المشكاة 33/11

(2) أما عن التصوير البيانى فسيأتى الحديث عنه فى الباب التالى، وهو الخصائص البلاغية لأسلوب الحديث النبوى.

(3) وهى خمسة أشياء: اللفظ، والإشارة، والعقد (ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين) وقد ورد فى الحديث أنه صلى الله عليه عقد عقد تسعين، والخط، والنّصبة (وهى الحالة الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف).

(4) ينظر البيان والتبيين1/76- 79

عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: " **صبحكم ومساكم** "، ويقول: " **بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى** " [1] فهنا أداء الرسول للحديث تضمن الإشارة بأصبعيه، وتغيير ملامح وجهه. وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " **من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين** " **وضم أصابعه** [2] وهنا إشارة النبى مهمة لأهمية الموضوع، وهو ما كان عليه العرب من كراهية البنات، فبين أن من قام عليها بالمؤونة والتربية كان إلى جانبه فى الجنة.

والإشارة تختلف تبعاً لنوع الموضوع وأهميته، وموضع المشار إليه ، ففى الحديثين السابقين أراد النبى ﷺ أن يبين مدى قرب كافل اليتيم وعائل البنات منه فى الجنة. وفى مواضع أخرى نراه يشير إلى الصدر عند الحديث عن التقوى كما فى قوله ﷺ: " **التقوى ها هنا** " وأشار إلى صدره [3]، وإذا أراد وصف رضاع الطفل وضع سبابته فى فيه كما فى الحديث الطويل الذى رواه البخارى ومسلم: " **ثم أقبل على ثديه فجعل يرضع** " يقول راوى الحديث: **فكأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فيه يمصها** [4] وإذا أراد أن يؤكد أهمية الموضوع غير جلسته كما فى حديث شهادة الزور " **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟** قلنا: بلى يا رسول الله قال: " **الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** " وكان متكئاً فجلس، فقال: " **ألا وقول الزور** " فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[5]

وكان ﷺ يتأثر بكلامه فيبتسم إذا كان فى حديثه ما يستدعى الابتسام ،

ويبكى إذا كان فى حديثه ما يستحق ذلك، ويدل على ذلك أحاديث كثيرة مشهورة.

ثانياً: التكرار[5]: النبى ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً [1]

---

(1) رواه مسلم – كتاب الجمعة – باب تخفيف الصلاة والخطبة. وانظره فى رياض الصلحين 157/1

(2) رواه مسلم – كتاب البر والصلة – باب فضل الإحسان إلى البنات ح (2631)

(3) رواه مسلم 11/8

(4) رواه البخارى ومسلم. ويراجع رياض الصالحين – باب ضعفة المسلمين – ص 135

(5) رواه البخارى ومسلم من حديث أبى بكرة نفيع بن الحارث. نزهة المتقين 268/1

(1) التكرار مصدر ثلاثى يفيد المبالغة كالترداد مصدر رد عند سيبويه، أو مصدر أصله (التكرير) قلب الياء ألفاً عند الكوفيين، ويجوز كسر التاء، وفسر بعضهم التكرار بذكر الشئ مرتين، وبعضهم فسره بذكر الشئ مرة بعد

والتكرار من مقاتل البيان، وهو دقيق المأخذ، وحده: " دلالة اللفظ على المعنى مردداً، ومنه ما يوجد فى اللفظ والمعنى، ومنه ما يوجد فى المعنى دون اللفظ. فالأول: كقولك: أسرع أسرع، والثانى: كقولك: أطعنى ولا تعصنى، فإن الأمر بالطاعة نهى عن العصية. والتكرار فى اللفظ والمعنى أو المعنى فقط منه ما هو مفيد، ومنه غير المفيد. فالمفيد من التكرار ما يأتى فى الكلام تاكيداً له، وتشييداً من أمره؛ وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ، ولذا كررت فيه كلامك إما مبالغة فى مدحه، أو ذمه، أو غيرذلك، ولا يأتى إلا فى أحد طرفى الشئ المقصود بالذكر، والوسط عار منه، والوسط ليس من شرط المبالغة " (2)

" والتكرير أبلغ من التأكيد، وله فوائد منها: التقرير وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر. ومنها: زيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ليكتمل تلقى الكلام بالقبول، وهو مع التأكيد يجامعه ويفارقه، ويزيد عليه وينقص عنه، فإن التأكيد قد يكون تكراراً وقد لا يكون، وقد يكون التكرير غير تأكيد صناعة وإن كان مفيداً للتأكيد معنى... ولابد للمتكلم أن يلاحظ التحرز عن انفكاك النظم أو الترتيب، وتشويشه أولاً ثم فى المعنى " (3)

وقد أوجزت هنا بعض الضوابط التى ذكرها البلاغيون للتكرار ليتضح لنا من خلالها أن التكرار ليس مجرد ترديد للألفاظ بدون فائدة أو غاية، بل إن التكرار ينطوى على أسرار بلاغية تختلف تبعاً للسياق والمقام...، **وإلى البيان النبوى** لنرى كيف اعتمد النبى ﷺ على التكرار فى بعض المواقف كطريق من طرق الأداء ليؤكد أهمية أمر من الأمور فى الدين، أو ليحذر من عاقبة من العواقب، أو ليبين جواز أمر من الأمور فى الدين أو ليحذر من سلوك معين يتعارض مع الدين ويجب أن ينأى عنه المسلم، أو ليحض على عمل من الأعمال يحبه الله ،أو غير ذلك. ومن ذلك قوله ﷺ: " **والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن** " قيل: من يا رسول الله؟ قال: " **الذى لا يأمن جاره بوائقه** " (4) وهنا كرر النبى ﷺ هذه العبارة ليحذر أشد التحذير من إيذاء الجار، وذلك مع تصدير كل جملة من جمل الحديث بالقسم باسم الله الذى يقتضى التأكيد،

أخرى، فهو فى الأول: مجموع الذكرين. وعلى الثانى: الذكر الأخير. ويراجع تفصيل ذلك فى الكليات لأبى البقاء الكفوى ص 297

(2) رواه البخارى والترمذى، وهو فى رياض الصالحين – باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمخاطب.

(3) ينظر المثل السائر ص 355- 358 باختصار.

(4) ينظر الكليات لأبى البقاء ص 268، 270 ,297

(1) متفق عليه من حديث أبى هريرة. أخرجه البخارى فى كتاب الأدب – باب إثم من لم يأمن جاره بوائقه، وأخرجه مسلم – كتاب الإيمان – باب تحريم إيذاء الجار. نزهة المتقين 251/1

فاجتمع هنا التكرار مع التأكيد ليبين أن إيذاء الجار مما يؤثر فى إيمان المسلم، ولا شك أن إيذاء الجار من المعاصى التى تعم بها البلوى فى كل مكان وزمان؛ وهذا ما تطلب التأكيد من النبى ﷺ فى أداء هذا الحديث لينبه إلى خطورة هذا الأمر.

وفى بر الوالدين يقول ﷺ: " **رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أوكليهما فلم يدخل الجنة** " [1] وهنا يكرر النبى ﷺ قوله: " **رغم أنف** " ثلاث مرات، وهو دعاء بالذل والفقر: أى لصق بالرغام وهو التراب إشارة إلى شدة خسار من أدرك والديه أو أحدهما فلم يظفر ببرهما وصلتهما، وهذا أمر يتطلب التكرار لينبه المسلمين إلى اغتنام وجود الوالدين فى الحياة بالبر والإحسان إليهما لأن رضاهما من رضا الله ، فينبغى للمسلم أن لا يضيع هذه الفرصة الثمينة من يده، ومن ضيعها فقد ضيع خيراً كثيراً، وخسر خسراناً مبيناً. " والبر عند كبرهما وضعفهما يكون بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك مما هو سبب لدخول الجنة، فمن قصر فى ذلك فاته دخول الجنة وأرغم الله أنفه "[2].

وفى مقام التحذير من خطورة قول الزور وبيان أنه من الكبائر يقول ﷺ: " **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** " – ثلاثاً – قلنا: بلى يا رسول الله. قال: " **الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** "، وكان متكئاً فجلس فقال: " **ألا وقول الزور وشهادة الزور** " فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت " [3] ويلاحظ أن النبى ﷺ **قد كرر كلامه فيما يتعلق بقول الزور أكثر من ثلاث مرات كما فى هذه الرواية** " **فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت** " والتكرار هنا كطريق من طرق الأداء يرمى النبى من ورائه إلى بيان تحريم قول الزور " وهو فى أصله: تحسين الشئ ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل إلى من سمعه أو رآه أنه بخلاف ما هو به، فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق " [4] وما أخطر شهادة الزور على المجتمع! فبها تضيع الحقوق، ويظلم الناس ،وتنتشر العداوة والبغضاء، ويظهر الفساد، وتضيع الأمانات... **ولأجل ذلك كله اعتمد النبى على طريقين من**

---

(2)رواه مسلم من حديث أبى هريرة. كتاب البر والصلة – باب رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر. نزهة المتقين 257/1

(3) ومعنى رغم أنف: ذل، وقيل: كره وخزى، وهو بفتح الغين وكسرها وهو الرغم بضم الراء وفتحها وكسرها، وأصله لصق أنفه بالرغام وهو تراب مختلط برمل، وقيل: الرغم: كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه. ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 109/16

(1) متفق عليه من حديث أبى بكرة نفيع بن الحارث الثقفى. ويراجع تخريجه فى نزهة المتقين289,268/1

(2)يراجع صحيح مسلم بشرح النووى 84/2

طرق الأداء. الأول: تغيير الجلسة لأنه كان متكئاً فجلس. الثانى: التكرار. وهذان فيهما من التأكيد ما فيهما.

وفيما يتعلق بالصلاة بين الأذان والإقامة ، هى ما يتركها كثيرمن الناس، وأراد النبى ﷺ أن يبين استحبابها ، فكرر هنا بقوله: " **بين كل أذانين صلاة، بين كل أذانين صلاة** " ثم قال فى الثالثة: " **لمن شاء**"[1] وفى رواية لمسلم أنه قال فى الرابعة: " **لمن شاء** " [2]

ويلاحظ أن النبى صلى اله عليه وسلم **كان يكرر فى بعض الأحاديث ثلاث مرات ،وفى بعض المواقف يزيد على الثلاث كما فى الحديث السابق ويبدو أن ذلك يرجع إلى أهمية الموضوع ودرجته من الدين، فالأداء والتكرار إنما يتبع خطر الموضوع وأهميته من الدين،** وهنا أراد أن يؤكد استحباب الركعتين قبل صلاة المغرب، فهاتان الركعتان سنة مستحبة. أما فى حديث قول الزور فقد أطلق التكرار ولم يقيده بالثلاث لخطر قول الزور على الفرد والمجتمع؛ ولذلك ضم إليه طريقاً أخرى من طرق الأداء، وهى تغيير الجلسة. **وفى موضوع إعداد العدة للقتال فى سبيل القوة يقول رسول الله: " ألا إن القـوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى "** [3] فالحديث هنا يتحدث عن فضيلة الرمى والمناضلة، وأراد النبى ﷺ أن يحض على العناية بالرمى لما له من أثر فى الجهاد فى سبيل الله، فكرر هذه العبارة لتأكيد هذه المكانة.

وبعد هذه الإشارة السريعة إلى بعض أحاديث التكرار كطريق من طرق الأداء فى الحديث أنتقل إلى الحديث عن الطريق الثالثة من طرق أدائه ﷺ للحديث.

ثالثاً: التصوير التعليمى :

وهذه الطريقة من طرق الأداء لها أكبر الأثر فى التعليم والتنبيه والتوجيه لما يترتب عليها من تصوير المعانى العقلية فى صورة حسية، وتوضيح الأمور بأمثلة من البيئة والواقع، وذلك مما يرسخ المعنى فى الذهن، ويجعله مرتبط بمثاله المضروب له من الواقع، وهذا مما يسر نقل الحديث إلى الآخرين نظراً للارتباط بين المعنى والصورة الواقعية فى الخيال والذهن، وهذا ما يسر أيضاً نقل كثير من الأمثال العربية التى كانت فى موردها حوادث معينة سيق فيها المثل بعبارة موجزة. **والتصوير**

---

(3) متفق عليه من حديث عبد الله بن مغفل. المشكاة ح (661) 244/2

(4) يراجع صحيح مسلم بشرح النووى 124/6

(1) رواه مسلم من حديث عقبة بن عامر – باب فضل الرمى والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه – 64/13، والحديث جاء فى تفسير قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...) (الأنفال:60)

النبوى منه ما اعتمد على صورة مشاهدة، ومنه ما كان عن طريق الخط والرسم، ومنه ما كان من خلال الربط الذهنى بين المعنى المقصود وصورة من الواقع.

أما عن التصوير المعتمد على مشهد من الواقع: فمن ذلك ما رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قدم على النبى ﷺ سبى، فإذا امرأة من السبى قد تحلّب ثديها تسعى إذا وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا النبى ﷺ: " **أترون هذه طارحة ولدها فى النار؟** " فقلنا: لا وهى تقدر على أن لا تطرحه فقال: " **لله أرحم بعباده من هذه بولدها** " (1)

وهنا نلمح اغتنام النبى ﷺ لهذه الفرصة وهذا المشهد ليبين من خلاله **رحمة الله بعباده** ، وهنا ربط بين الصورة المشاهدة والمعنى المقصود، وهذا مما يرسخ المقصود فى الذهن من خلال الصورة المشاهدة. فالمرء حين ينظر إلى الأم، وما جبلت عليه من الرحمة والعطف، وخاصة حين ترضع طفلها، وتضمه إلى صدرها، ويتأ مل فى قوله ﷺ: " **لله أرحم بالعباد من الوالدة بولدها** " لاتضح له مبلغ رحمة الله بعباده، فهو سبحانه الذى غرس فى قلب الأم وجوانحها عاطفة الأمومة بما فيها من حنان وعطف ورحمة وشفقة، **بل هو الذى اختار للإنسان أمه وأباه، فكيف تكون رحمته عز وجل، إنها فوق ما يتصور المتصورون!!**

وفى موقف آخر أراد النبى ﷺ أن يبين من خلاله **هوان الدنيا على الله** . فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفيه فمر بجدى أسك (صغير الأذن) ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: " **أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟** " فقالوا: ما نحب أنه لنا بشئ، وما نصنع به؟ ثم قال: " **أتحبون أنه لكم** " قالوا: والله لوكان حياً كان عيباً أنه أسك، فكيف وهو ميت، فقال: " **فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم** " (2)

المشهد التعليمى والتصويرى هنا الهدف منه بيان حقارة الدنيا من خلال النظر إلى صورة هذا الجدى الأسك الميت، وكلنا يعلم أن الميت من هذه الأنعام ينأى عنه الإنسان لنتن ريحه وعدم نفعه، فكيف إذا اجتمع نقص خلقته مع موته! فكذلك المسلم يجب أن ينأى عن الدنيا وزخرفها وزينتها فلا تفتنه وتصرفه عن طريق الهدى لهوانها على الله فى جانب الآخرة، ونقص نعيمها إلى جانب نعيم الآخرة. ولقد اغتنم النبى ﷺ رؤية هذا الذكر الميت من أولاد المعز ليؤدى إلى الصحابة هذا المعنى، **ودائماً ما ترتبط المشاهد التصويرية بمعانٍ مهمة يهدف البيان النبوى إلى**

---

(2) متفق عليه. المشكاة ح (2370) 137/5

(1) رواه مسلم فى أول كتاب الزهد والرقائق. نزهة المتقين 351/1

توضيحها وترسيخها فى النفوس من خلال ربطها بالصورة المشاهدة فلا يتطرق إليها النسيان.

أما عن التصوير المعتمد على الخط والرسم لأجل التعليم والتوضيح فمنه ما رواه ابن مسعود قال: خط النبى ﷺ خطاً مربعاً ،وخط فى الوسط خطاً خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذى فى الوسط فقال: " **هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به – أو قد أحاط به – وهذا الذى هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا** " [1] وهذه صورة الخط الذى خطه النبى ﷺ.

أراد النبى ﷺ أن يبين من خلال هذا الرسم والشكل [2] مدى أمل الإنسان وحرصه على الدنيا، وأن آماله تتجاوز عمره وحياته، وأن أعراض الدنيا وما فيها محيطة به إن أخطأه وجاوزه عرض من الأعراض أصابه عرض آخر من أعراض الدنيا وشرها. وما أروع التعبير عن الإصابة هنا بالنهش أو النهس: وهو لدغ ذوات السم. إشارة إلى شدة الإضرار. فبينما الإنسان طالب لأمله البعيد تدركه الآفات التى هى أقرب إليه فتؤدى به إلى الأجل المحيط به.

والنبى ﷺ اعتمد على الخط هنا، وهو الرسم والشكل [3] فى أداء الحديث لبيان قصر عمر الإنسان وطول أمله، وما يكتنفه من البلايا والمحن فى الدنيا، وأن على المرء أن يزهد فى الدنيا لأن الأجل لن يمهله ليحقق هذه الآمال العريضة، وأن ما يصيبه من المحن والشرور فى الدنيا والتى عبر عنها باللدغ تحول بينه وبين مراده [4]

أما عن التصوير المعتمد على الربط الذهنى بين المعنى المقصود وصورة من الواقع : فمن ذلك قوله ﷺ لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه: " **قل: اللهم اهدنى وسددنى، واذكر**

---

(1) رواه البخارى – كتاب الرقاق – باب فى الأمل وطوله – نزهة المتقين 422/1

(2) استخدم النبى صلى الله عليه وسلم الرسم التوضيحى لإيصال هذا المعنى، وهو من الوسائل التعليمية المهمة، ومن المسلمات لدى التربويين أنه كلما زاد عدد الحواس التى تشترك فى الموقف التعليمى زادت فرص الإدراك والفهم كما أن المتعلم يحتفظ بأثر التعليم فترة أطول.

(3) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 391/9

(4) ومن المشاهد التصويرية المعتمدة على صورة من الواقع ما رواه جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر. وقال: " إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا " ثم قرأ: (... وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) (ق: 39) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى. ينظر جامع الأصول 168/11

بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم "[1] فالهدى: هو الرشاد. والسداد فى أصله : هو الاستقامة فى الأمور، وأراد النبى ﷺ أن يربط فى الدعاء بين هداية الطريق مع الهدى، وسداد السهم: أى تقويمه مع السداد. والمعنى: اجعلنى منتصباً فى جميع أمورى مستقيماً، " ومعنى قوله: " اذكر بالهدى هدايتك الطريق وسداد السهم " أى تذكر ذلك حال دعائك بهذين اللفظين لأن هادى الطريق لا يزيغ عنه، ومسدد السهم يحرص على تقويمه ولا يستقيم رميه حتى يقومه، وكذلك الداعى ينبغى أن يحرص على تسديد علمه وتقويمه، ولزوم السنة . وقيل ليتذكر بهذا لفظ السداد والهدى لئلا ينساه "[1]

وهنا جاء أداء الحديث من خلال الربط الذهنى بين المعنى وصورة من الواقع، فليتأمل البصير بأسرار البيان فى قدرة النبى ﷺ على أداء المعنى بطرق مختلفة من إشارة، وخط، وتكرار، وتصوير مع الحرص على اختيار الألفاظ بدقة وعناية، وصوغها فى تراكيب بلاغية دقيقة. فالصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم وروائع الحكم [2]

الفصل الثانى: الحوار فى الحديث النبوى

---

(5) أخرجه مسلم – باب فى الأدعية – 17/ 43

(1) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 43/17

(1) سيأتى إن شاء الله تعالى مزيد بيان للناحية التصويرية فى الحديث النبوى، وذلك فى الفصل الرابع من الباب الرابع وهو الفصل الخاص بالتصوير وضرب الأمثال فى البيان النبوى، وسنلاحظ هناك مدى عناية النبى صلى الله عليه وسلم بضرب الأمثال، وصياغة التشبيهات، والاستعارات، والكنايات, واتباعه فى ذلك لمنهج القرآن الكريم، ولقد جمع الشريف الرضى كثيراً من الأحاديث النبوية المشتملة على الاستعارات والمجازات فى كتابه المجازات النبوية، وتناولها بالتحليل البلاغى الذى يكشف عما فيها من أسرار الجمال, كما ذكر ناصح الدين بن الحنبلى كثيراً من أحاديث التمثيل النبوى فى كتابه أقيسة النبى المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأشار الحسين بن خلاد الرامهرمزى إلى بعض الأمثال النبوية فى كتابه أمثال الحديث، كما أشار الثعالبى إلى بعض أحاديث التشبيه والتمثيل فى كتابه الإعجاز والإيجاز، ولكن العلماء حقيقة لم يعطوا التمثيل والتصوير النبوى ما يستحقه من العناية، وكان عليهم أن يجردوا أقلامهم للكشف عن أسرار التصوير والتمثيل فى البيان النبوى بما يتناسب مع منزلة هذا البيان فى الدين وفى دنيا الناس، وأن يبينوا أثر التمثيل القرآنى فى التمثيل النبوى. ولقد قام بعض الباحثين المحدثين بجهد مشكور فى هذا الميدان إلا انه ما زال بحاجة إلى جهود أخرى صادقة، ونسأل الله أن يوفق بعض العلماء المخلصين إلى جمع أحاديث الأمثال والتصوير والمجاز فى البيان النبوى وتناولها بالدراسة والتحليل من الناحية الموضوعية والبلاغية والتربوية وغير ذلك مع ربطها بالواقع، وهو عمل جليل يحتاج إلى جهد كبير.

حرص النبى ﷺ على استخدام أساليب مختلفة فى الحوار؛ وذلك لما للحوار من أثر فى أداء رسالته العظيمة، وكما اعتمد النبى ﷺ على طرق مختلفة فى الأداء اعتمد كذلك على طرق مختلفة فى الحوار، وقبل أن نقف على أبرز هذه الطرق لابد أولاً من معرفة معنى الحوار.

معنى الحوار: الحوار فى اللغة مصدر حاور، وهو حديث يجرى بين شخصين أو أكثر، ويطلق الحوار على المحادثة والمناقشة بين أشخاص، كما يطلق على الجدال والمجاوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ...﴾ (الكهف: 27) [1]

والحوار النبوى أسلوب راقٍ من أساليب الدعوة والتعليم لأن النبى ﷺ كان يستطيع من خلاله أن يكتشف ما عند الصحابة من أفكار ومعلومات بخصوص ما يريد أن يلقيه إليهم من تعليم وتوجيه، كما كان يستطيع من خلال الحوار أن يصحح ما علق فى أذهانهم من أفكار خاطئة عن الموضوع مجال التعليم، كما كان يستطيع من خلال الحوار أن يحل الإشكالات التى تعترض طريق الفهم عند بعض الصحابة، وكان يحثهم من خلال الحوار على إعمال الذهن وكد الفكر للوصول إلى الصواب والحق. ولأجل هذه الأسباب مجتمعة سلك النبى ﷺ طرقاً مختلفة من الحوار نظر اً لما له من جوانب إيجابية فى الدعوة إلى الله عز وجل حيث يتفاعل الصحابة من خلاله مع الوحى فيسألوا ويستفسروا لأجل معرفة الصواب والعمل به.

طرق الحوار : [2] 1- أن يأتى بجملة تبدو غريبة لأول وهلة، وقد تكون معارضة لما تعلمه الصحابة من أحكام هذا الدين الجديد فتستثير أسئلتهم. فعن أبى ذر أن ناساً قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: " **أوليس الله قد جعل لكم ما تصدقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهى عن منكر صدقة، وفى بضع أحكم صدقة** " قالوا: يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: " **أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر** " [3]

---

(1) يراجع المعجم الوسيط، و المحيط فى اللغة لأديب اللخمى وآخرين، والغنى فى اللغة د. عبد الغنى أبى العزم. والحوار فى العصر الحديث عنصر من العناصر الفنية للقصة والرواية والمسرحية

(2) نقلت هذه الطرق من كتاب الحديث النبوى مصطلحه وبلاغته وكتبه ص 84- 90 ولقد أضفت إليها ما يسره الله لى من أغراض أخرى مع ذكر الأمثلة من البيان النبوى.

(1) رواه مسلم. وهو فى رياض الصالحين – باب كثرة طرق الخير – رقم (122)

ففى قوله ﷺ: " **وفى بضع أحدكم صدقة** " غرابة تثير حواراً؛ ولذلك لم يستطع الصحابة السكوت لأن الذى وقر فى أذهانهم أن الأجر إنما يكون على الواجبات التى يتحمل المسلم فى أدائها شيئاً من المشقة، أما الشهوات التى يمارس الإنسان فيها غريزته ولنفسه فيها حظ ظاهر فكيف يكون له فيها أجر؟ فبين النبى ﷺ من خلال هذا الحوار أن كل عمل يعمله الإنسان، ويقصد من ورائه مرضات الله كان له فيه أعظم الأجر، وبهذا تتحول العادات والمباحات والشهوات إلى عبادات.

ويد خل فى هذا الطريق من طرق الحوار قوله ﷺ: " **انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً** " فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: " **تحجزه – أو تمنعه – من الظلم فإن ذلك نصره** " [1]، وقوله: " **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار** " قلت [2]: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: " **إنه كان حريصاً على قتل صاحبه** " [3]، وقوله ﷺ: " **كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى** " قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: " **من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى** " [4]

2- ومن هذه الطرق: أن يورد السؤال بشكل مشوق يرغبهم فى أن يعرفوا الجواب. وذلك كأن يذكر لهم أمراً عظيماً، ومقصداً هاماً ، وهدفاً مرجواً يسعى إليه كل مسلم ثم بعد ذلك يورد السؤال: ألا أدلكم عليه؟ ومن الطبعى أن يكون الجواب من الصحابة: (بلى)، **ومن ذلك قوله ﷺ: " ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: " **إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط** " [5]، ومنه الحديث السابق فى الأداء وهو قوله ﷺ: " **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**..." الحديث.

3- ومن هذه الطرق: أن يوجه ﷺ سؤالاً إلى الصحابة، ويستمع إلى أجوبتهم ثم يناقشهم فى هذه الأجوبة، ويبين لهم وجه الصواب...، وقد يعتذرون عن الإجابة، ويقولون: الله ورسوله أعلم. فيدلى بالجواب، ومن ذلك قوله ﷺ: " **أتدرون من المفلس؟** " قالوا: المفلس فينا من لا

---

(2) رواه البخارى من حديث أنس. وانظره فى رياض الصالحين – باب تعظيم حرمات المسلمين – ص 125

(3) القائل هو نفيع بن الحارث الثقفى راوى الحديث رضى الله عنه.

(4)متفق عليه. وهو فى رياض الصالحين – باب إخلاص النية – ص 15

(5) رواه البخارى من حديث أبى هريرة. وهو فى رياض الصالحين – باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها – ص 90

(1) رواه مسلم من حديث أبى هريرة. وهو فى رياض الصالحين – باب بيان كثرة طرق الخير – ص 78

درهم له ولا متاع. فقال: " **إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار** " (1) فمن خلال إثارة الحوار تبين للصحابة أن المفلس غير ما كانوا يعهدون، وبهذه الطريقة لن ينسى الصحابة أبداً المعنى الحقيقى للمفلس.

ومن ذلك قوله ﷺ: " **ما تعدون الصرعة فيكم؟** " قلنا: الذى لا تصرعه الرجال. قال : " **ليس ذلك، لكنه الذى يملك نفسه عند الغضب** " (2)

4- وهناك حوار نجده حواراً عادياً لم يتعمده النبى ﷺ، ولكنها الوقائع أملته فوصل إلينا فى شكل حوار...، وكان النبى يرحب بمثل هذه المحاورات أشد الترحيب لأنها مما كان يحرص عليه كما رأينا. فهذا أبو ذر يتوجه من تلقاء نفسه بسؤال، بل بسلسلة من الأسئلة ويطرحها على الرسول ﷺ فيتولى صلوات الله وسلامه عليه إجابته على أسئلته، ولنستمع إلى أبى ذر. يقول: قلت: يا رسول الله. أى الأعمال أفضل؟ قال: " **الإيمان بالله، والجهاد فى سبيل الله** " قلت: أى الرقاب أفضل؟ قال: " **أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمناً** " قلت: فإن لم أفعل. قال: " **تعين صانعاً أو تصنع لأخرق** " قلت: يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال : " **تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك** " (3)

وفى بعض الأحيان يطرح الصحابى السؤال، ويذكر أجوبة مختلفة، ويطلب من النبى ﷺ تحديد الجواب الصحيح الدقيق فيجيبه النبى ﷺ بتحديد الصواب من الأجوبة التى ذكرها. ومن ذلك ما رواه أبو موسى رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله؟ قال: " **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** " (4) ففى هذا الحوار حسم النبى ﷺ المسألة ،" وكنى عن الثالث وهو الذى يقاتل ليرى مكانه بقوله: " **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا** " إحماداً عليه، وشكراً لصنيعه، وإلا كان يكفيه فى الجواب أن يقول: " من يقاتل ليرى مكانه " وليس الأول ممن يدخل فى ذلك لأنه طالب للمغنم لا لتكون كلمة الله هى العليا، وليس الثانى كذلك لأنه طلب للشرف

---

(2) رواه مسلم والترمذى من حديث أبى هريرة. وانظره فى رياض الصالحين – باب تحريم الظلم – ص 119

(3) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب. وهو فى رياض الصالحين – باب المراقبة – ص 47

(1) متفق عليه. وهو فى رياض الصالحين – باب بيان كثرة طرق الخير – ص 202

(2) متفق عليه. المشكاة ح (3814) 341/7

والفخر والصيت. أما الثالث فعلى بناء الفعل " **يُرى** " للمجهول أى ليرى منزلته من الجنة، اى لتحصل له أو ليرى الناس منزلته فى سبيل الله، ويجوز أن يراد بالرؤية رؤية المؤمنين فى القيامة منزلته عند الله " [1] فيكون الرجل فى الحديث قد سأل عن أحوال المجاهدين بأسرها ومقاتلتهم إما للغنيمة، أو للذكر والصيت والفخر رياءً، أو لإعلاء كلمة الله.

وفى بعض الأحيان يسأل الصحابة سؤالاً فيجيب النبى ﷺ، فيبين الصحابة أنهم يسألون عن أمر آخر غير الذى أجاب عليه النبى حتى يجيبهم عن الأمر الذى يسألون عنه. ومن ذلك ما رواه أبو هريرة قال: قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: " **أتقاهم** " فقالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: " **فيوسف نبى الله بن نبى الله بن خليل الله** " قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: " **فعن معادن العرب تسألونى؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا** " [2]

والأمثلة على هذا الطريق من طرق الحوار كثيرة لأن الصحابة كانوا من الحرص على معرفة أحكام دينهم بمكان كبير.

5- وهناك أحاديث صيغت على شكل قصص قصيرة قصها رسول الله على المسلمين للعظة والعبرة والدعوة، ولا يخلو حديث منها من الحوار الرائع الموحى المعبر، وهذا من الأمور الطبعية ما دامت قد وردت على شكل أقاصيص، فالحوار دعامة القصة وأساس أصيل فيها، والأمثلة على ذلك كثيرة، ولكن طولها النسبى يحول دون الاستشهاد بها فى هذه العجالة، وأكتفى بالإشارة إلى بعضها، فمن ذلك: حديث الأعمى والأقرع والأبرص، وحديث القاتل، وحديث الراهب، وحديث الملك والغلام والساحر، وحديث جريج [3]، وغيرها من الأحاديث، والأحاديث السابقة كلها أحاديث صحيحة.

وكما يلاحظ ما فى الحوار من تفاعل بين النبى ﷺ والصحابة، وما له من أثر فى تصحيح الأفكار والتصورات الخاطئة عن المعانى التى يريد النبى غرسها فى نفوس الناس، ويلاحظ ما فى الحوار من الإجابة على بعض الأسئلة التى تدور فى خلد بعض الصحابة دون أن يعرفوا الجواب الصحيح والدقيق لهذه الأسئلة، ويلاحظ ما فى الحوار من ترسيخ للمفاهيم الإسلامية القويمة.

وهكذا يكون الحوار النبوى بطرقه المختلفة قد أسهم إسهاماً كبيراً فى مجال الدعوة مع الأداء بطرقه المختلفة أيضاً، ويضاف إليهما ما فى البيان النبوى من الخصائص البلاغية التى سيأتى

---

(3) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 341/7, 342

(4) متفق عليه. نزهة المتقين 84/1 ومعنى فقهوا: أى علموا أحكام الشرع.

(1) وهذه الأحاديث فى رياض الصالحين ص 20 ,134,49,33

الحديث عنها فى الباب التالى إن شاء الله، وقد مضى أن ما سبق ذكره بمثابة المقدمات لهذا الباب، وما يأتى بعده بمثابة المتممات.

الباب الرابع: الخصائص البلاغية لأسلوب الحديث النبوى

الفصل الأول: الإيجاز وجوامع الكلم

هذا الباب من أهم أبواب البحث لاتصاله ببلاغة البيان النبوى، ويتضمن أبرز خصائص البيان النبوى، وفى بداية كل خصيصة مقدمة موجزة تبين الخطوط العريضة فى الخصيصة موضوع البحث. وهذه الضوابط البلاغية بمثابة المقدمة للتطبيق على نماذج من البيان النبوى **وذكر هذه القواعد والضوابط المقصود منها طبعاً بيان أن البيان النبوى هو من أصول هذه القواعد والضوابط بعد القرآن الكريم، كذلك بيان أن الأسلوب النبوى يتربع على قمة البيان البشرى من خلال ما وضعه البلاغيون من ضوابط لكل خصيصة من الخصائص،** ولقد سبق بيان أثر الحديث فى اللغة والبلاغة والأدب فى الفصل الثانى والثالث من الباب الأول. فالبيان النبوى إذا قسناه بمقياس القواعد يأتى فى قمة البيان البشرى لأنه خرج من مشكاة النبوة على لسان من أوتى جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، وهو النبى ﷺ، وأول هذه الخصائص: **خصيصة الإيجاز.**

وهذه الخصيصة من أبرز خصائص البيان النبوى، وقد أشار إليها ﷺ بقوله: " **أوتيت جوامع الكلم** " وفى رواية " **أعطيت** " [1]، وجوامع الكلم كما قال النووى نقلاً عن الهروى: " القرآن جمع الله تعالى فى الألفاظ اليسيرة منه المعانى الكثيرة، وكلامه ﷺ كان بالجوامع، قليل اللفظ، كثير المعنى " [2]، وقال الطيبى: " وقيل: إيجاز الكلام فى إشباع من المعنى، فالكلمة القليلة الحروف منها تتضمن كثيراً من المعانى وأنواعاً من الكلام " [3]، ويقول ابن الأثير: " والمراد بذلك أنه ﷺ أوتى الكلم الجوامع للمعانى[4]

وهذه الخصيصة البارزة فى بيانه ﷺ يعرفها القاصى والدانى فهى لا تحتاج

---

(1) رواه مسلم من حديث أبى هريرة – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – 6,5/5

(2) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 5/5

(3) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 356/10

(4) وهى عنده تنقسم إلى قسمين: " الأول: ألفاظ تتضمن من المعانى ما لا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن يستعمل فى مكانها، ومن ذلك ما يأتى على حكم المجاز، ومنه ما يأتى على حكم الحقيقة. والثانى: من جوامع الكلم المراد به الإيجاز الذى يدل بالألفاظ القليلة على المعانى الكثيرة: أى أن ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعانى المقصودة على إيجازها واختصارها، وجل كلامه جار هذا المجرى فلا يحتاج إلى ضرب الأمثلة..." ينظر المثل السائر ص 33,31

إلى تمثيل لها لكونها ظاهرة وشائعة، ومن أولى بالفصاحة وأحق بالإيجاز منه ﷺ [1]

ولكن لأننا بصدد بيان الخصائص البلاغية لأسلوب الحديث النبوى فيجدر بنا ذكر ضوابط الإيجاز عند البلاغيين تمهيداً للتطبيق على بعض الأحاديث الجامعة الموجزة. وذكر ضوابط البلاغيين هنا – كما سبق – لبيان أن البيان النبوى يتربع على قمة البيان البشرى، وللربط بين ما وضعه البلاغيون من قواعد وبين البيان النبوى، وليتضح أن بيانه ﷺ من أسس هذه القواعد والضوابط، وأن أفضل نماذج التطبيق إنما تكمن فى هذا المعين الصافى، وفى هذا المنهل العذب المورود، والأصل أن تطوع القواعد البلاغية لخدمة البيان القرآنى والبيان النبوى لأنها إنما نشأت بسبب منهما [2]

فالقرآن والسنة كلاهما وحى من الله إلا أن القرآن وحى بلفظه ومعناه، والسنة وحى بالمعنى دون اللفظ ولكن مع تأييد الله وتوفيقه للنبى فى اختيار اللفظ الجامع الموجزالدقيق المعبر.

والإيجاز عند البلاغيين من شروط البلاغة والفصاحة. والبلاغة: الإيجاز والاختصار [3]، وحذف فضول الكلام حتى يعبر عن المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة...، وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس حتى إنهم يستحسنون من كتاب الله تعالى ما كان بهذه الصفة، فإن كان الكلام الموجز لا يدل على معناه دلالة ظاهرة فهو قبيح مذموم لا من حيث كان مختصراً، بل من حيث كان المعنى فيه خافياً.

معنى الإيجاز: الإيجاز فى اللغة: التقصير. يقال: أوجزت الكلام قصرته [4] أما فى اصطلاح البلاغيين فيرى ابن سنان الخفاجى " أنه إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ. فلابد أن تكون العبارة عن المعنى واضحة" [1] حتى لا يختلف الناس فى فهمها، فإن ذلك

---

(1) يراجع كلام ابن رشيق حول هذه الجزئية فى العمدة 253/1

(2)ويراجع للاستزادة الفصل الثانى والثالث من الباب الأول.

(3) والإيجاز والاختصار بمعنى واحد كما يؤخذ من كلام صاحب المفتاح، وهو ما صرح به الطيبى. وقال ابن سيدة: " بينهما فرق منطقى، ويقال: بينهما عموم من وجه لأن مرجع الإيجاز إلى متعارف الأوساط، والاختصار قد يرجع تارة إلى المتعارف، وأخرى إلى كون المقام خليقاً بأبسط مما ذكر فيه، وبهذا الاعتبار كان الاختصار أعم من الإيجاز، ولأنه لا يطلق الاختصار إلا إذا كان فى الكلام حذف، وبهذا الاعتبار كان الإيجاز أعم لأنه قد يكون بالقصر دون الحذف...، وقال بعضهم: الاختصار خاص بحذف الجمل فقط بخلاف الإيجاز. وقال الشيخ بهاء الدين: وليس بشئ " ويراجع اللسان 427/5, والكليات ص 220, والإتقان 54/2, وحاشية الدسوقى على مختصر السعد 163/3

(4) ينظر اللسان مادة " وجز " 427/5, وشروح التلخيص 160,159/3

وإن كان يستحق لفظ الإيجاز والاختصارفليس بمحمود حتى تكون دلالة اللفظ على المعنى دلالة واضحة، وعرفه ابن الأثير بأنه "حذف زيادات الألفاظ، ودلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه، والنظر فيه إلى المعانى دون الألفاظ " [2]، والأصل فى مدح الإيجاز والاختصار فى الكلام أن الألفاظ غير مقصودة فى أنفسها [3]، وإنما المقصود هو المعانى والأغراض التى احتيج إلى العبارة عنها بالكلام فصار اللفظ بمنزلة الطريق إلى المعانى التى هى مقصودة، وإذا كان طريقان يوصل أحدهما إلى المقصود على سواء فى السهولة إلا أن أحدهما أخصر وأقرب من الآخر فلابد أن يكون المحمود منهما هو أخصرهما وأقربهما سلوكاً إلى المقصد [4]

والإيجاز ينقسم إلى قسمين: أحدهما: الإيجاز بالحذف: وهو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون فيما زاد معناه عن لفظه. والقسم الآخر: ما لا يحذف منه شئ وهو ضربان: أحدهما: ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير، وهو الذى يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها. والآخر: ما زاد معناه على لفظه ويسمى القصر. والقسم الأول وهو الإيجاز بالحذف ينبه إليه من غير كلفة فى استخراجه لمكان المحذوف منه. وأما القسم الثانى: فإن التنبه له عسر لأنه يحتاج إلى فضل تأمل وطول فكرة لخفاء ما يستدل عليه ولا يستنبط ذلك

---

(5) ينظر سر الفصاحة ص 205-211

(1) ينظر المثل السائر ص 297

(2) وهذا لا يعنى أن تهمل الألفاظ بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة، بل المقصود أن مدار النظر فى هذا النوع إنما يختص بالمعانى، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير، ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل، ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعانى يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها، ولهذا سمى النبى الفاتحة "أم القرآن " ويراجع المثل السائر ص 297

(3) وهذا يتطلب بيان الفرق بين الإيجاز والإخلال والحشو والتطويل. فالإيجاز: إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ. والإخلال: هو نقص المعنى باختصار اللفظ. والفرق بين الحشو والتطويل أن الحشو: لفظ يتميز عن الكلام بأنه إذا حذف منه بقى المعنى على حاله، والتطويل: هو أن يعبر عن المعانى بألفاظ كثيرة كل واحد منها يقوم مقام الآخر، فأى لفظ شئت من تلك الألفاظ حذفته وكان المعنى على حاله، وليس هو لفظاً متميزاً مخصوصاًعلى أن الحشو فى الأكثر إنما يقع فى النظم لأجل الوزن، وفى النثر لأجل تساوى الفصول والأسجاع. وعند ابن الأثير التطويل: هو زيادة فى الدلالة على المعانى، ومهما أمكنك حذف شئ من اللفظ فى الدلالة على معنى من المعانى فإن ذلك اللفظ هو التطويل بعينه. والتطويل عيب وعى لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى فيه القليل فكان كالسالك طريقاً جهلاً منه بالطريق القريب. ويراجع سر الفصاحة ص 217 – 220, والنكت فى إعجاز القرآن ص 79, والمثل السائر ص 301

إلا من رست قدمه فى ممارسة علم البيان، وصار له خليقة وملكة كما يقول ابن الأثير [1]، وإيجاز القصر ينقسم إلى قسمين: أحدهما ما دل لفظه على محتملات متعددة، وهذا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها.

والآخر: ما يدل لفظه على محتملات متعددة ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها، لا بل يستحيل ذلك. وإيجاز التقدير والقصر شائعان فى البيان النبوى بصورة واضحة، والقسم الآخر من الضرب الثانى فى الإيجاز بالقصر وهو الذى لايمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً وأعوزها إمكاناً، وإذا وجد فى كلام البلغاء فإنما يوجد شاذاً ونادراً... " [2] هذا ولقد مثل ابن الأثير لإيجاز التقدير وإيجاز القصر بأمثلة من الحديث النبوى، ومما مثل به للأول: قوله ﷺ: " **الحلال بين والحرام بين** ..." [3]، وحديث " **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**..."[4] ومثل للثانى بحديث " **الخراج بالضمان**"[5].

وإذا تتبعنا مفهوم الإيجاز عند غير هؤلاء البلاغيين، وبحثنا عند السكاكى، والقزوينى، وغيرهما فإننا نجد أن مفهومه وإن اختلفت صيغ التعبير عنه واحد، وهو جمع المعانى الكثيرة تحت الألفاظ القليلة مع الإبانة والإفصاح[6] ولقد نقلت هنا عن ابن سنان الخفاجى، والرمانى، وابن الأثير لأن كلامهم أقرب إلى ما نحن بصدده من بيان الإيجاز فى البيان النبوى خاصة وأن ابن الأثير قد أشار فى التطبيق إلى نماذج من الأحاديث النبوية الموجزة كما أن ابن الأثير عنى فى كتابه المثل السائر بأحاديث رسول الله ﷺ بحيث لا يكاد فصل من فصوله يخلو من استشهاد بحديث نبوى يقرن بالاستشهاد بكتاب الله، وقد أفاض فى الاستشهاد بأحاديث الرسول فى أبواب الإيجاز، والتشبيه، والكناية، والسجع، وخص باباً بجوامع الكلم أشار فيه إلى روائع مختارة من البيان النبوى [7]

---

(4)ينظر المثل السائر ص 301

(1) ينظر المثل السائر ص 324 - 330

(2) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير. المشكاة ح (2762)7/6

(3) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب. المشكاة ح (1) 74/1

(4) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث عائشة. ومعناه أن الرجل إذا اشترى عبداً فاستغله ثم وجد به عيباً دلسه عليه البائع فله أن يرده ويسترجع الثمن جميعه، ولو مات العبد أو أبق أو سرقه سارق كان فى مال المشترى وضمانه عليه وإذا كان ضمانه عليه فخراجه له أى له ما تحصل من أجرة عمله. ويراجع شرح الحديث وتخريجه وطرقه فى جامع الأصول لابن الأثير 2/ 28 - 32

(5) ينظر علم المعانى ص 176 أ.د. عبد العزيز عتيق.

(6) ينظر البيان النبوى ص 325, والتصوير الفنى فى الحديث الشريف ص 55 - 67

وبعد هذه المقدمة الموجزة عن الإيجاز عند البلاغيين **أنتقل إلى التطبيق على بعض الأحاديث النبوية الموجزة**. ومن ذلك أنه ﷺ رأى امرأة تبكى عند قبر فقال: " **اتق الله واصبرى** " قالت: إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى، ولم تعرفه. فقيل لها: إنه النبى ﷺ. فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: "**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**"[1]

وما أروع عبارته الأخيرة ﷺ. لقد جمعت مع الإيجاز الحكمة، ولقد تألفت من خمس كلمات، ولكنها حوت الكثير من المعانى، فالنبى ﷺ بهذه العبارة الموجزة يريد أن يقول لهذه المرأة الثكلى التى فقدت صبيها [2] وقد آلمها المصاب، وأجزعتها الفجيعة أن الصبر الحقيقى عند شدة المصيبة وقوتها، وأن صاحبه يحمد ويثاب عليه فى هذه اللحظة لأن النفس إنما يشتد جزعها أو يكون ثباتها عند أول نزول البلاء. فمن الناس من يجزع ويفوت على نفسه فضيلة الصبر الذى جاء فى الحديث محصوراً بـ " **إنما** " وجاء أيضاً معرفاً بـ " **أل**" أى الصبر الحقيقى الكامل الذى يترتب عليه الأجر الجزيل لكثرة المشقة فيه [3]، والذى يستحق عليه صاحبه الأجر والثواب، والذى يعتد به ما كان فى هذه اللحظة التى عبر عنها النبى ﷺ بـ"**الصدم**" من الأمور الحسية. فالصدم هو ضرب الشئ الصلب بمثله [4] والمعنى الثبات عند نزول البلاء والتحمل فى سبيل الله، ونعت الصدمة هنا بالأولى بالأولى إشارة إلى ما سبق ذكره من أن الصبر عند قوة المصيبة وشدتها محمود صاحبه، ومثاب لأنه إذا طال الوقت فيصير الصبر طبعاً فلا يؤجرعليه. وهكذا نرى عبارته ﷺ على وجازتها ودقة ألفاظها قد حوت كثيراً من المعانى والإشارات، ويلاحظ أنه جاء بـ " **إنما** " التى تفيد القصر فى أول الكلام، وعرف الصبر بـ" **أل** "، وعبر عن شدة المصيبة بالصدمة الأولى.

كل هذا مقصود إليه فى إيجاز هذا الحديث، والحديث فضلاً عن ذلك حكمة من الحكم تدور على ألسنة الناس اليوم إذا أصيب أحدهم بمصيبة شديدة صبره الناس بهذا الحديث. وهكذا يظل البيان النبوى بإيجازه بياناً مفتوحاً مع الزمان.

ولنأخذ مثالاً آخر **فى مجال الحض على فعل الطاعات** قال رسول الله ﷺ:

---

(1) متفق عليه من حديث أنس.، وأخرجه أيضاً أبوداود والترمذى. وانظره فى مشكاة المصابيح ح (1728) 415,414/3, وجامع الأصول 283/7

(2) جاء فى رواية ذكرها ابن الأثير أنه صلى الله عليه وسلم مر بامرأة تبكى على صبى. ويراجع جامع الأصول 283/7

(3) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 227/6

(4) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 415/3

"**كل معروف صدقة**" [1] فالحديث من ثلاث كلمات، ولكن ما أعظم معانيه وغاياته، فلقد أتى هنا بلفظة " **كل** " التى تفيد العموم فى سياق الإيجاب مع تقديمها، وقد أضاف إليها " **المعروف** " منكراً وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وهو من الصفات الغالبة بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه، وما أكثر المعروف الذى يشمل كل أبواب الخير جليلها ودقيقها حتى أن يلقى المسلم أخاه بوجه طليق[2]، ولقد جاء هنا بكلمة " **معروف**" نكرة لهذا القصد أى ليشمل كل أنواع البر قليله وكثيره، وكلمة معروف هنا لها دلالتها لتشمل كل ما تعارف عليه الناس من الخير [3]، ولم يقل هنا: البر أو الطاعة مثلاً لأجل العموم فى فعل الخير كما سبق، وقد أدخل النبى ﷺ فعل الطاعات كلها فى باب الصدقات توسيعاً لمفهوم الصدقة التى لا تنحصر فى العطاء المادى للمحتاج، بل تشمل كل أنواع الخير من صلة للرحم، وحسن الصحبة للناس، ونحو ذلك. وإيجاز الحديث فى أنه أتى بالعموم فى فعل المعروف ليشمل كل خير فليتأمل المسلم فى أنواع البر وصنوف الطاعات، وليعلم أنها تدخل فى باب الصدقات حتى أن يمسك المسلم عن الشر فإنه له صدقة [4]، ويلاحظ هنا أن الإيجاز فى اللفظ قد راعى فيه البيان النبوى الدقة ليشمل كثيراً من المعانى لأنها المقصودة من هذا الإيجاز، وهذه الكلمات الثلاث قد عبرت عن المقصود أتم تعبير، وشملت من الخير الكثير.

ومن الإيجاز قوله ﷺ: " **الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون** " [5] وهذا الحديث مع ما فيه من الإيجاز" فيه مقابلة حيث قوبل الملعون بالمرزوق، والمقابل الحقيقى مرحوم أو محروم ليعم، فالتقدير التاجر مرحوم لتوسعته على الناس، والمحتكر ملعون محروم لتضييقه على الناس " [1]

---

(1) أخرجه البخارى من حديث جابر، وأخرجه مسلم من حديث حذيفة، وأخرجه أبوداود والترمذى. جامع الأصول 360/1, ونزهة المتقين 130/1

(2) ولقد عد هذا من المعروف كما فى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق " المشكاة ح (1894)

(3) وكما يقول الراغب: " المعروف اسم كل فعل يعرف حسنه بالشرع والعقل معاً، ويطلق على الاقتصاد لثبوت النهى عن السرف " وقال ابن أبى جمرة: " يطلق اسم المعروف على ما عرف بأدلة الشرع أنه من أعمال البر سواء جرت به العادة أم لا " ويراجع فتح البارى 462/10

(4) ففى الحديث المتفق عليه من حديث أبى موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "على كل مسلم صدقة " قالوا: فإن لم يجد ؟ قال: " فليعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق " قالوا: فإن لم يستطع ؟ قال: " فيعين ذا الحاجة الملهوف " قالوا: فإن لم يفعل ؟ قال: " فيأمر بالخير " قالوا: فإن لم يفعل ؟ قال: " فيمسك عن الشر فإنه له صدقة " المشكاة ح (1895) 117/4

(5) رواه الدارمى وابن ماجة من حديث عمر. المشكاة ح (2893)108/6

فجمع البيان النبوى هنا بين صنفين من التجار. أحدهما : يوسع على الناس وييسر ولا يحتكر، فبين النبى ﷺ أنه مرزوق موسع عليه لأنه وسع ويسرعلى الناس. أما الثانى: الذى اشترى الطعام فى وقت الغلاء وادخره ليغلو فهو ملعون خاطئ كما صح فى حديث آخر عند مسلم [2] لأنه شق على الناس وضيق عليهم، والمقابل للمرزوق هو المحروم ولكنه قابله بالملعون ليعم ويشمل الحرمان واللعنة أيضاً فوق ذلك لأن ضرره متعد إلى الناس الذين استغل حاجتهم إلى الطعام والشراب، فالاحتكار المحرم هو فى الأقوات خاصة.

وبهذه الكلمات الموجزة والمقابلة الدقيقة بين النبى ﷺ الفرق بين التاجر المرحوم والتاجر الملعون، ومن خلال كلامه يفهم الحض على التسامح والرفق بالناس فى التعامل، والتيسيير على ذوى الحاجة فليتأمل!

وفيما يتصل بالعين وأثرها فى المعين يقول ﷺ: " **العين حق** " [3] وما أروع الإيجاز فى هذا الحديث المؤلف من كلمتين، ولكن فيه من المعانى ما فيه، فالنبى ﷺ أراد بـ " **العين** ": الإصابة بالعين، ومعنى أنه " **حق** ": أى كائن مقضى به فى الوضع الإلهى لا شبهة فى تأثيره فى النفوس والأموال. فهذا الحديث بإيجازه رد على من ينكرون الحسد وأثره فى المحسود، وفيه إشارة إلى أن هذا الحسد من قضاء الله وهو ما عبرت عنه كلمة " **حق** " لتشمل هذا المعنى، وتشمل الرد على من ينكرون وجوده ووقوعه. وما أروع تعبيره بـ " **العين** " ولم يقل مثلاً: الحسد حق، وإنما قال: " **العين** " إشارة إلى الغالب فى الحسد، وهو أن يكون بالنظر من الحاسد إلى المحسود يقال: أصابت فلان عين: إذا نظر إليه عدو أو حسود فأثرت فيه فمرض بسببها، ويقال: عانه يعينه فهو عائن: إذا أصابه بالعين، والمصاب معين، فعبر عن الغالب فى الحسد بذكر آلته، وإلا فالحسد قد يكون مع السماع من غير رؤية أوفى القلب، ولا يشترط فيه الرؤية، ونلمح هنا الارتباط بين اللفظ والمعنى مع الإيجاز.

---

(1) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 109,108/6

(2) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من احتكر فهو خاطئ " رواه مسلم من حديث معمر المشكاة ح (2892) 108/6

(3) أخرجه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (4432) 270/8

ومن الإيجاز: قوله ﷺ: " **الحرب خَدْعة** " [1]، وهذا الحديث من جوامع كلمه، وروائع حكمه ﷺ، ولقد عده الثعالبي فى كتابه **الإعجاز والإيجاز**

من أمثال النبى ﷺ السائرة وأقواله الرائعة [2] وكلمة " **خدعة** " هنا فيها أكثر من ضبط [3] والضبط الأفصح فيها هو الضبط الأول بفتح الخاء وسكون الدال كما قال النووى وغيره، وهو لغة النبى ﷺ كما قال ثعلب؛ ولأن هذا الضبط يعطى معنى البنيتين الأخيرتين. وهذا الحديث من روائع الإيجاز ففيه استعمال الحيلة ولو مرة واحدة وإلا فقاتل. وقال الخطابى: " معناه أنها مرة واحدة: أى إذا خدع مرة لم تقل عثرته. والإتيان بالتاء للدلالة على الوحدة؛ فإن الخداع إن كان من المسلمين فكأنه حضهم على ذلك ولو مرة واحدة، وإن كان من الكفار فكأنه حذرهم من مكرهم ولو وقع مرة واحدة فلا ينبغى التهاون بهم لما ينشأ عنهم من المفسدة ولو قل، وفى اللغة الثالثة صيغة المبالغة كهمزة ولمزة. وهكذا نرى أن ضبط الحديث بفتح الخاء وإسكان الدال فيه من الإيجازما سبق ذكره؛ ولذا قال أبو بكر بن طلحة: " أراد ثعلب بقوله إنها لغة النبى ﷺ أن النبى كان يستعمل هذه البنية كثيراً لوجازة لفظها، ولكونها تعطى معنى البنيتين الأخيرتين، فكانت مع اختصارها كثيرة المعنى " [4]، وفى الحديث التريض على الحذر فى الحرب، والندب إلى خداع الكفار، وإن لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه، وفى الحديث الإشارة إلى استعمال الرأى فى الحرب، بل الاحتياج إليه آكد فى الشجاعة. ولقد قال ابن المنيّر: معنى " **الحرب خدعة** " أى الحرب الجيدة لصاحبها الكاملة فى مقصودها إنما هى المخادعة لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة، وحصول

---

(1) متفق عليه من حديث جابر. أخرجه البخارى –كتاب الجهاد – باب الحرب خدعة – ح (2929) 183/6, وأخرجه مسلم – باب جواز الخداع فى الحرب – 45/12, وأخرجه أيضاً أبوداود والترمذى.

(2)وذلك فى الفصل الذى عقده لأمثال النبى وروائع أقواله ص 5 – ط مكتبة مشكاة الإسلامية. وهذا الكتاب جمع فيه الثعالبى من نوادر الحكم والأمثال من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأقوال البليغة، والحكم والأمثال، والشعر السائر، والكتاب يمتاز بالتدرج الزمنى لأصحاب النصوص.

(3) قال صاحب النهاية: " "خدعة " يروى بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال، وبضمها مع فتح الدال. فالأول معناه: أن الحرب ينقضى أمرها بخدعة واحدة من الخداع : أى أن القاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن له إقالة، وهى أفصح الروايات وأصحها. ومعنى الثانى: هو الاسم من الخداع. ومعنى الثالث: أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم فلا تفى لهم كما يقال: فلان رجل لُعبَة وضُحكَة: أى كثير اللعب والضحك. ويراجع جامع الأصول 189/3

(4) يراجع صحيح مسلم بشرح النووى 45/12, وشرح الطيبى 428,427/7, وفتح البارى 183/6

الظفر مع المخادعة بغير خطر. وهذه العبارة مع وجا زتها مطابقة لمقتضى الحال لأن النبى ﷺ قالها فى غزوة الخندق.

ومن الإيجاز ما رواه أبو هريرة أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنا نركب البحر، ومعنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ قال رسول الله ﷺ: " **هو الطهور ماؤه، الحل ميتته** " [1]، والحديث من روائع الأيجاز حيث تألف من خمس كلمات. وقد عده العلماء من أصول الطهارة لاشتماله على أحكام كثيرة. قال ابن الملقن: " إنه حديث عظيم، أصل من أصول الطهارة مشتمل على أحكام كثيرة وقواعد مهمة، وقال الحميدى: قال الشافعى: هذا الحديث نصف الطهارة " [2] فألفاظ هذا الحديث مع قلتها وضعت بدقة وإحكام وعناية، فقوله " **الطهور** " جاء معرفاً بلام الجنسية المفيدة للحصر، وهذا الحصر لا ينفى طهورية غيره من المياه لوقوع ذلك جواباً لسؤال من شك فى طهورية ماء البحر من غير قصد للحصر. ومجئ لفظة " **الطهور** " معدولاً بها عن صيغة فاعل إلى فعول لزيادة معنى؛ لأن اختلاف الأبنية لاختلاف المعانى، فكما لا يجوز التسوية بين صابر وصبور وشاكر وشكور كذا فى طاهر وطهور، فهو اسم للماء الذى يتطهر به ولا يجوز إلا أن يكون طاهراً فى نفسه مطهراً لغيره ،و الشئ إذا كان طاهراً فى نفسه لا يجوز أن يكون من جنسه ما هو أطهر منه حتى يصفه بطهور لزيادة طهارة، وإذا نقلنا الطاهر إلى طهور لم يكن إلا لزيادة معنى، وذلك المعنى ليس إلا التطهير [3]، والنبى ﷺ فى إجابته الموجزة لم يجب بـ " نعم " بل أجاب بهذا اللفظ ليقرن الحكم بعلته وهى الطهورية المتناهية [4]، ولقد أخرج النبى ﷺ الجملتين مخرج الحصر حيث عرف خبريهما، يعنى ماء البحرلسعته وغزارته حكمه حكم سائر المياه فى طهوريته وحل ميتته لا يتجاوز إلى النجاسة. ويلاحظ الإيجاز فى قوله " **الحل ميتته** " لأن فيه دليلاً على حل جميع حيوانات البحر حتى كلبه وخنزيره وثعبانه [5]، وهذا الحديث مع إيجازه وقلة ألفاظه كثير الفوائد، ومن فوائده: أن التوضؤ بماء

---

(1) رواه مالك فى الموطأ وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة، وقال الترمذى: حسن صحيح.المشكاة ح (497) 123/2, وجامع الأصول 10/8, وعون المعبود ح (83) 106,0105/1

(2) يراجع تصحيح العلماء لهذا الحديث وكلامهم حوله فى نيل الأوطار 20/1- ط دار الفكر – بيروت.

(3) يراجع شرح الطيبى على المشكاة 123/2

(4) يراجع سبل السلام 16,15/1 ط دار الفكر.

(1) أخرجه مالك وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة. وقال الترمذى: حسن صحيح، وانظره فى نيل الأوطار23/1

البحر يجوز مع تغير لونه وريحه، ومنها أن الطهور هو المطهر لأنه ﷺ سأل عن تطهير ماء البحر لا عن طهارته، ولولا أنهم عرفوه من الطهور لكان لا يزال إشكالهم بقوله " **هو الطهور ماؤه** "

وقيل: الطهور ما يتكرر منه التطهير كالصبور والشكور، ومنها أن جميع حيوان البحر سواء فى الحل إلى غير ذلك مما ذكره العلماء. فلينظر إلى هذا الحديث الذى قل عدد ألفاظه مع دقة معانيه ووضوحه ،وبديع تركيبه، ومطابقته لمقتضى حال المخاطبين.

والأحاديث السابقة غيض من فيض مما يزخر به البيان النبوى فى باب الإيجاز، ويلاحظ من خلالها التنوع فى الموضوع، فلقد كان ﷺ لديه القدرة على الإيجاز فى عرض أى موضوع من الموضوعات. فالإيجاز فى الحديث الأول فى موضوع الصبر على البلاء، والإيجاز فى الحديث الثانى فى الحض على فعل المعروف، وفى الحديث الثالث فى بيان أصناف التجار، وفى الرابع لبيان أثر الحسد على المحسود ونفاذه، والإيجاز فى الخامس لبيان جواز الخدعة فى الحرب، وفى السادس لبيان طهورية ماء البحر وحل ميتته.

ويلا حظ على الإيجاز فى البيان النبوى أيضاً قلة الألفاظ مع وضوحها، وهذا الوضوح فى دلالة الألفاظ الموجزة شرط دقيق لأن الإيجاز إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ، فلابد أن تكون العبارة واضحة حتى لا يختلف الناس فى فهمها، ولا يستحق الكلام لفظ الإيجاز والاختصار حتى تكون دلالة اللفظ على المعنى دلالة واضحة كما لاحظنا فى الأمثلة السابقة.

ويلاحظ كذلك مراعاة ما تقتضيه الحال من حيث التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير كما فى حديث " **إنما الصبر عند الصدمة الأولى** " حيث جاءت " **إنما** " للقصر، وتعريف " **الصبر** " لما سبق ذكره، والتعبير عن أثر المصيبة بـ " **الصدم** " من الأمور الحسية. وكذلك فى حديث " **كل معروف صدقة** "بتقديم " **كل** " التى تفيد العموم، وتنكير" **معروف**"، واستعمال هذه اللفظة دون غيرها. وكذلك فى حديث " **العين حق** " حيث عبر عن الحسد بـ " ا **لعين** " دون لفظ الحسد أو نحوه لما سبق ذكره. وفى حديث طهارة ماء البحر جاء التعبير بـ " **الطهور** " والعدول عن فاعل إلى فعول مع التعريف لما سبق ذكره. وهذه بعض الأمثلة لروائع الإيجاز فى البيان النبوى من إيجاز القصر دون الحذف [1] وأشير إلى بعض أحاديث الإيجاز الأخرى لمن أراد التوسع فى البحث، والتأمل فى أسرار البيان النبوى.

---

(1) ولقد مضى أن هذا النوع من الإيجاز دقيق المسلك، وأنه من أعلى درجات الإيجاز مكاناً وأعوزها إمكاناً، وإذا وجد فى كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذاً ونادراً كما سبق فى مقدمة الفصل. أما إيجاز الحذف فله أيضاً أمثلة كثيرة فى البيان النبوى، ولكنى ركزت على نماذج القسم الأول نظراً لما سبق ذكره. وبحث الإيجاز فى

* قال رسول الله ﷺ: " **أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**"[1].

* قال رسول الله لحكيم بن حزام: " **أسلمت على ما سلف لك من خير** " [2]

* قال رسول الله: " **دعه فإن الحياء من الإيمان** " [3]

* قال رسول الله: " **لى الواجد يحل عرضه وعقوبته** " [4]

* قال رسول الله: " **قل: آمنت بالله ثم استقم** " [5]

ويراجع أيضاً جامع العلوم والحكم للحافظ بن رجب فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم.

البيان النبوى يحتاج إلى دراسة مستقلة، والمقام هنا يضيق عن التفصيل، وأكتفى بالإشارة إلى مواضع بعض الأحاديث الأخرى الموجزة.

(2) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة من حديث أبى سعيد. وإسناده صحيح. يراجع مشكاة المصابيح ح (3705) 254,253/7, وجامع الأصول 236/1

(3) أخرجه البخارى ومسلم من حديث حكيم بن حزام. جامع الأصول 357,356/1

(4) أخرجه مالك فى الموطأ والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث عبد الله بن عمر. جامع الأصول 353/4

(5) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث الشريد. مشكاة المصابيح ح (2919) 123/6

(6) أخرجه أحمد ومسلم والدارمى من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى. مشكاة المصابيح ح (15) 134/1

الفصل الثانى: الجزالة والرقة

تدور على الألسنة كثيراً كلمتا الجزالة والرقة عند الحديث عن آية قرآنية أو حديث نبوى، أو أبيات من الشعر، ويظن بعض الناس أن هاتين الكلمتين من المدح العام للكلام والذى يقال فى كل موضع، وهذا خطأ من القول. وسأبين أولاً معنى الجزالة قبل التطبيق على نماذج من الحديث النبوى، وسيأتى بيان معنى الرقة بعد ذلك والتطبيق على نماذج أيضاً من البيان النبوى.

معنى الجزالة: لكى نقف على الجزالة فى البيان النبوى لابد أولاً من بيان معناها اللغوى، ولا يوجد لدينا معجم تاريخى يبين تطور الكلمات على مر الزمان لنعرف متى انتقلت كلمة الجزالة مثلاً من معناها اللغوى إلى معناها النقدى البلاغى، " ولكن المدلول الأول للكلمة يعطى معنى القوة والكثرة، فالحطب الجزل: هو القوى العود الذى تصبر النار بعض الوقت على التهامه ثم قيل – على سبيل المجاز – رجل جزل إذا كان ذا عقل قوى، وشعر جزل إذا تماسك وقوى أسلوبه، ففى الجزالة قوة تقابل الرقة. ويقول صاحب الكليات: " الجزالة هى إذا أطلقت على اللفظ يراد بها نقيض الرقة، وإذا أطلقت على غيره يراد بها نقيض القلة " [1]، وفى اللسان: الجزالة فى الرأى جودته، وفى الكلام: قوته وشدته. واللفظ الجزل: خلاف الركيك، والجزل: العظيم. فالمعنى اللغوى للجزالة يدور حول قوة اللفظ وإحكامه وشدته وعظمته.

وأوفى من تحدث عن الجزالة والرقة ابن الأثير حيث يقول: " الألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحرب، وفى قوارع التهديد، والتخويف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنه يستعمل فى وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفى استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك. ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عُنجهية البداوة، بل أعنى بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته فى الفم ولذاذته فى السمع، وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس... وسأضرب لك مثالاً للجزل من الألفاظ والرقيق فأقول: انظر إلى قوارع القرآن عند ذكرالحساب والعذاب والميزان والصراط، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا، وما جرى هذا المجرى فإنك لا ترى شيئاً من ذلك وحشى الألفاظ، ولا متوعراً، ثم أنظر إلى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة والملاطفات فى خطاب الأنبياء وخطاب المنيبين والتائبين من العباد، وما جرى هذا المجرى فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيف

---

(1) ينظر اللسان مادة " جزل " 109/11, ومقاييس اللغة 453/1, وأساس البلاغة 123,122/1, والمصباح المنير ص 39, والكليات ص 353

الألفاظ ولا سفسفاً... واعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج... " [1]، ومن خلال كلام ابن الأثير يلاحظ " أن الجزالة جزالة موضوع لا جزالة كلمة أو بيت أو آية...، وكذلك الرقة لا تكون فى لفظة منقطعة من سياقها كما نعرف أن التماسك الآسر لا يكون بقوة الألفاظ وحدها بل بما تعبر عنه من مواقف قوية تتطلب التلاؤم بين اللفظ والمعنى، أو بين الشكل والمضمون كما يقال فى هذه الأيام...، فالجزالة ليست غرابة اللفظ بحال، فقد يكون الأسلوب بعيداً عن الغريب، وهو جزل متماسك جاءت جزالته من تماسك كلماته وترابطها ترابطاً صادقاً حين تعبر عن معنى مترابط متماسك فتنقل عنه فى قوة متمكنة بحيث يحاكى الأسلوب القولى تمكن الخاطر الشعرى " [2]

ولننتقل إلى البيان النبوى لنقف على نماذج للجزالة والرقة، ولنبدأ بالجزالة: قال رسول الله ﷺ: " **من ظلم من الأرض شيئاً طوقه من سبع أرضين** " [3]، وفى رواية " **من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين** "، وفى رواية " **من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين** " [4]، ونلمح هنا القوة والإحكام، والعظمة والجزالة فى هذا الحديث، والجزالة هنا جزالة موضوع كما سبق، وهى هنا للتحذير من الظلم، وما أخطر الظلم وأشد وقعه فى حياة الناس! ولقد شاركت الألفاظ فى جزالة الموضوع، فالفعل " **طوقه** " فيه جزالة وقوة [5]، ومعناه: أنه يكلف نقل ما ظلم منها فى القيامة إلى المحشر ويكون كالطوق فى عنقه لا أنه طوق على الحقيقة أو يكون معناه: أنه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين أى فتكون كل أرض فى تلك الحالة طوقاً فى عنقه، وهذا يؤيده رواية ابن عمر " **خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين** "، ويحتمل أن التطويق تطويق الإثم، والمراد به أن الظلم المذكور لازم له فى عنقه لزوم الإثم... ويحتمل أن تتنوع هذه الصفات لصاحب الجناية أو ينقسم أصحاب الجناية فيعذب بعضهم بهذا وبعضهم بهذا بحسب قوة المفسدة وضعفها " [6]، ويلمح الجزالة فى هذا الحديث فى التصريح بـ " **الظلم** "،

---

(1) ينظر المثل السائر ص 100- 106

(2) ينظر البيان القرآنى ص 35- 38

(3) أخرجه البخارى من حديث سعيد بن زيد - كتاب المظالم – باب من ظلم شيئاً من الأرض – ح (2378) 123/5

(4) ينظر صحيح البخارى مع فتح البارى 123/5

(1) يرى الصنعانى أن جزالة اللفظ تكون لتأليفه من حروف مخصوصة. ويراجع الرسالة العسجدية ص85

(2) يراجع فتح البارى 125/5

وذكر " **الطوق** "، وذكر" **الأرضين** " بصيغة الجمع، ويلمح أيضاً جزالة الموضوع وهو التحذير من الظلم. وإدراك الجزالة فى مثل هذه الأحاديث أمر يرجع إلى الذوق والحس، ومعرفة أسرار الجمال فى الأساليب. **ومن الجزالة : قوله ﷺ: " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم** " [1] وهذا الحديث كسابقه فى الجزالة،فقوله " **اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة** " فيه من القوة والفخامة ما فيه، حيث ذكر" **الظلم** " صراحة أولاً ثم ذكره ثانياً مسبوقاً بـ " **إن** " التى تفيد التأكيد، كذلك ذكره للظلمات بعد ذلك، وهذا التكرارللفظة الظلم، وجمع الظلمات ألقى على الكلام فخامة وقوة وجزالة، " وقد أفرد المبتدأ وجمع الخبر دلالة على إرادة الجنس واختلاف أنواع المظالم التى هى سبب لأنواع الشدائد فى القيامة من الوقوف فى العرصات، والحساب، والمرور على الصراط، وألوان العقاب فى النار، ثم عطف الشح الذى هو نوع من أنواع الظلم على الظلم ليشعر بأن الشح أعظم أنواعه لأنه نتيجة حب الدنيا وشهواتها ومن ثم علله بقوله: " **فإن الشح أهلك من كان قبلكم** " ثم علله بقوله: " **حملهم على أن سفكوا دماءهم** " على سبيل الاستئناف، فإن استحلال الحرام جامع لجميع أنواع الظلم من الكفر والمعاصى، وعطفه على سفك الدماء من عطف العام على الخاص عكس الأول " [2] كما أن الجزالة هنا أيضاً جزالة موضوع، وجزالة الموضوع هنا وقوته فى التحذير من الظلم وبيان أن عاقبته ظلمات يوم القيامة، فقد يكون على ظاهره ويكون الظلم ظلمات على صاحبه لا يهتدى يوم القيامة سبيلاً حتى يسعى نور المؤمنين بأيديهم وبأيمانهم، ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد، ويحتمل أنها الأنكال والعقوبات. كما تبدو الجزالة فى التحذير من الشح وهو أشد البخل أو البخل مع الحرص أو البخل فى المال والمعروف أو الحرص على ما ليس عنده [3] ولقد خرج الكلام فى التحذير من الظلم الذى يفضى بصاحبه إلى الظلمات يوم القيامة، والتحذير من الشح المهلك الذى حمل السابقين على سفك الماء واستحلال المحارم خرج الكلام مخرج القوة فى الألفاظ والموضوع، ففى التحذير من الشح أيضاً كرر الشح مع التأكيد، وهذا فيه من الجزالة ما فيه.

---

(3) أخرجه مسلم من حديث جابر – كتاب البر والصلة – باب تحريم الظلم – 134/16

(4) يراجع شرح الطيبى على المشكاة 90/4

(1) قال جماعة من العلماء: " الشح أشد البخل وأبلغ فى المنع من البخل، وقيل هو البخل مع الحرص، وقيل البخل فى أفراد الأمور والشح عام، وقيل البخل فى أفراد الأمور والشح بالمال والمعروف، وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده. ويراجع صحيح مسلم بشرح النووى 134/16

ومن الجزالة: قوله ﷺ: " تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين: أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبادّاً كالكوز مُجَخّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشرب من هواه " [1]، وهذا الحديث فيه من جزالة الموضوع ما فيه، لقد جاء فى مقام التحذير من الفتن التى تعرض للقلوب، وبيان ما تتركه من أثر، ولقد جاءت الجزالة فى الموضوع هنا مستندة إلى قوة الألفاظ من ناحية وإلى التشبيه من ناحية أخرى. فقوله: " **تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً** " بضم العين فى لفظة " **عوداً** " [2] معناه: أنها تلصق بعرض القلوب أى جانبها كما يلصق الحصير بجنب النائم ويؤثر فيه شدة التصاقها به [3]، ومعنى " **عوداً عوداً** " أى تعاد وتكرر شيئاً فشيئاً كما ينسج الحصير عوداً عوداً، وشظية بعد أخرى، وذلك أن ناسج الحصير عند العرب كلما وضع عوداً أخذ آخر ونسجه فشبه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحداً بعد واحد " وفى قوله **فأقلب أشربها** معنى أشربها دخلت فيه دخولاً تاماً وألزمها وحلت محل الشراب.

ومنه قوله تعالى: ﴿... وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ...﴾ (البقرة: 93)، ومن الجزالة قوله: " **والآخر أسود مرباداً مثل الكوز مجخياً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً** " فهو قلب منكوس لا يعلق به خير ولا حكمة، وفيه تشبيه للقلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المنحرف الذى لا يثبت الماء فيه " [4] فهوقلب لا يقبل إلا الاعتقادات الفاسدة و الشهوات النفسانية. وهنا ملحظ فيما يتعلق بالتمثيل للقلب الأبيض بـ " **الصفا** "، " فإنما ضرب المثل به لأن الأحجار إذا لم تكن معدنية لم تتغير بطول الزمن، ولم يدخلها لون آخر لا سيما النوع الذى ضرب به المثل فإنه أبداً على البياض الخالص لا يشوبه كدرة " [5]

---

(2) أخرجه مسلم من حديث حذيفة – باب ذكر الفتن التى تموج كموج البحر – 173,172/2

(3) وروى بفتح العين والدال المهملة، وروى بفتح العين والذال المعجمة، واختار القاضى عياض الأول، وهو ما ذكرته بضم العين وبالدال.

(4) أو يكون معنى قوله: " تعرض الفتن " أى توضع عليها وتبسط كما يبسط الحصير من عرض العود على الإناء والسيف على الفخذين يعرضه إذا وضعه.

(1) يراجع صحيح مسلم بشرح النووى 171/2

(2) يراجع شرح الطيبى على المشكاة 49/10

ومن الجزالة قوله ﷺ: " إن رجالاً يتخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة " [1] ونلمح هنا قوة الألفاظ مع خطر الموضوع، وهو التصرف فى المال بغيرحق، وبيان مصير من يفعل ذلك. ولقد جاء هنا الفعل " **يتخوضون** " بجزالته وقوته معبراً عن المعنى أدق تعبير، " فالخوض هو الشروع فى الماء والمرور فيه، ويستعار فى الأمور، وأكثر ما ورد فيما يذم الشروع فيه نحو قوله تعالى: ﴿...ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: 91)، والمقصود هنا الذين يتصرفون بالباطل وهو أعم من أن يكون بالقسمة وبغيرها"[2].

وهذه الأحاديث غيض من فيض، ونلمح فيها الجزالة فى الموضوع والجزالة فى الألفاظ، والمقام هنا مقام الإجمال لا التفصيل، وأكتفى بالإشارة إلى بعض الأحاديث المشتملة على الجزالة لأنتقل إلى الحديث عن الرقة.

فمن الجزالة قوله ﷺ: " إن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته فى الدنيا، ولا غدر أكبر من غدر أمير العامة يغرز لواؤه عند إسته " [3]، وقوله ﷺ : " **ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة** "**وقال: "اقرأوا** ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾"[*]، وقوله ﷺ:

"**لايدخل الجنة الجواظ ولا الجعظرى** "[4]، "والجواظ: الغليظ الفظ الذى جمع ومنع، وقيل: هو المختال من جاظ يجوظ إذا جمع و اختال، وقيل: الجموع المنوع من جاظ إذا جمع ومنع، وقيل: هو السمين، وقيل: الصياح المهذار. والجعظرى: الفظ الغليظ، وقيل القصير المنتفخ بما ليس عنده، وقيل: العظيم الجسم الأكول والمانع لدخول هؤلاء الجنة عجبهم، وسؤ خلقهم، وشرههم على الطعام وإفراطهم فى الكلام " [5]، وقوله ﷺ: " **لا يدخل الجنة قتات** " [1]، وفى وفى رواية لمسلم " **نمام** ".

---

(3) أخرجه البخارى من حديث خولة الأنصارية —كتاب الجهاد والسير — باب قوله تعالى: (...فأن لله خمسه...) (الأنفال: 41) ح (3014) 251/6

(4) يراجع فتح البارى 253/6

(1) أخرجه الترمذى وابن ماجة من حديث أبى سعيد. وقال الترمذى: حسن صحيح — المشكاة ح (5145) 318/9, وقد روى البخارى ومسلم هذا الحديث بلفظ آخر من حديث ابن مسعود. ويراجع جامع الأصول 316/9 (*) متفق عليه من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (5543) 183/10

(2) أخرجه أبو داود والبيهقى فى شعب الإيمان، وصاحب جامع الأصول، وفى شرح السنة من حديث حارثة بن وهب. المشكاة ح (5080) 276,275/9

(3) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 276/9

أما عن الرقة: وهى اللطف والسهولة، ورقة الحاشية، ونعومة الملمس. وهذه الرقة تكون فى الحديث عن الرحمة والمغفرة، والجنة ونعيمها، وفى الملاطفات فى خطاب الأنبياء، وخطاب المنيبين والتائبين من العباد، وما جرى هذا المجرى، وما أكثر الأحاديث المشتملة على الرقة فى البيان النبوى. فمن ذلك قوله ﷺ: " **إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها** " [2] ما أرق هذا الحديث فإن ألفاظه تدفق فى رقة حانية فيها من التناغم والتوافق ما يناسب الحديث عن الرحمة والمغفرة وقبول التائبين، وقد شاركت الاستعارة فى الحديث فى إبراز هذه الرقة، فبسط اليد عبارة عن التوسع فى الجود والمنع عند اقتضاء الحكمة، ومنه الباسط، وفى الحديث تنبيه إلى سعة رحمة الله وكثرة تجاوزه عن الذنوب، وقبول التائبين " [3]، وورد هنا لفظ " **بسط اليد** " لأن العرب إذا رضى أحدهم الشئ بسط يده لقبوله، وإذا كرهه قبضها عنه فخوطبوا بأمر حسى يفهمونه " [4]، ونلمح هنا الموسيقى الداخلية الرقيقة فى هذا الحديث حين نكرره عدة مرات فنرى تدفق الألفاظ فيه فى لين ورفق وعطف ولطف لتنسجم وتتجاوب مع الموضوع، ولتناسب حال هذا التائب الخاشع المنكسر بين يدى الله تعالى يرجو رحمته ويخاف عذابه.

وتأتى الرقة بسلاستها ولينها ولطفها فى كثير من أحاديث الدعاء والابتهال إلى الله والدعاء عبادة وخشوع، وطلب وذل وإنكسار بين يدى الله فتأتى ألفاظ الدعاء برقتها لتنسجم مع حال هذا الداعى الذى يطلب من الله. ومن ذلك قوله ﷺ: " **اللهم اجعل فى قلبى نوراً، وفى بصرى نوراً، وفى سمعى نوراً، وعن يمينى نوراً، وعن يسارى نوراً، وفوقى نوراً، وتحتى نوراً، وأمامى نوراً، وخلفى نوراً، واجعل لى نوراً** " [5] ونلمح هنا الرقة والتدفق فى ألفاظ هذا الحديث كما نلمح التناغم والهدوء يكتنف هذه الألفاظ لأن النبى ﷺ دعا بهذا الدعاء فى صلاة الليل، والفاظ الحديث برقتها تناسب جو الليل الهادئ الوديع الساكن، وهنا نرى الألفاظ والموضوع وما يحيط بهما من الزمن تتجاوب كلها فيما بينها وتتدفق فى رقة وهدوء. ومن بلاغة الحديث: تخصيص القلب والبصر والسمع والجهات الست بالنور، فالقلب مقرالتفكر فى آلاء الله ونعمائه

---

(4) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود من حديث حذيفة. جامع الأصول 311/9

(5) أخرجه مسلم من حديث أبى موسى – كتاب التوبة – باب قبول التوبة من الذنوب – 76,75/17

(1) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 106/5

(2) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 76/17

(3) أخرجه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث ابن عباس. وانظره فى مشكاة مصابيح ح (1195) 98/3

ومكانها ومعدنها. والبصر مسارح آيات الله المبثوثة المنصوبة فى الآفاق والأنفس ومحلها. والأسماع مراسى أنوار وحى الله تعالى ومحط آياته المنزلة على أنبياء الله ، ولقد أجمل فى آخر الدعاء بقوله: " **واجعل لى نوراً** " إجمالاً لما فصل وتوكيداً له... " [1]

ومن الرقة الحديث عن الجنة ونعيمها، ومن ذلك قوله ﷺ: " **إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، ولقاب قوس أحدكم فى الجنة خير مما طلعت الشمس أو تغرب** " [2]، وقوله ﷺ: " **موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها** " [3]، وهكذا نجد الرقة فى أحاديث وصف الجنة ونعيمها، وفى أحاديث الدعاء بما فيها من ذل وخضوع وانكسار بين يدى الله عزوجل، كذلك فى أحاديث الرحمة والمغفرة، وقبول توبة التائبين، وما يجرى هذا المجرى من موضوعات، وتراجع أحاديث هذه الموضوعات فى الصحيحين وكتب السنن، فالمقام هنا مقام الإشارة لا الحصر.

---

(4) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 98/3

(5) متفق عليه من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (5615) 251/10، والقاب: بمعنى القدر.

(1) متفق عليه من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (5613) 250/10

الفصل الثالث: البعد عن التكلف

نفى الله عز وجل عن رسوله ﷺ التكلف حين قال على لسانه: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) (ص: 86-88) " لأن التكلف فى كل أمر يحبط تأثيره ويلقى على صاحبه ظلالاً من الكراهية والاستثقال وأظهر ما يكون التكلف فى قول يقال لأن السامع لا يفتح صدره لمن يلمس فيه هذا الخلق الثقيل، ومهما كان قوله صائباً صحيحاً فإن مسحة التكلف تلقى عليه ظلالاً بغيضة تجعله أشبه بالقول المخطئ وما هو به لأن الروح التى يصدر عنها لا تظهر صافية مطبوعة، بل تعانى من آصار التكلف والتصنع ما يكاد يعصف بما لديها من السداد والإصابة " [1] أما عن النبى ﷺ فلقد مضى فى بداية البحث بيان مدى عنايته بالمنطق وحرصه على إصلاحه واعتداله، وبعده عن التكلف فيه، ومن هنا كره الثرثرة والتشادق والتخلل باللسان كما تخلل الباقرة بلسانها؛ ولذلك كان يتكلم بكلام بين فصل لو عده العاد لأحصاه حرصاً منه ﷺ على أداء أمانة التبليغ، ورعاية مقتضى حال المخاطبين فاتسم تعبيره بالوضوح والإشراق والبيان والسداد، ولتوضيح هذه الناحية فى البيان النبوى سأتناول بالبحث السجع فى الحديث النبوى، والموسيقى النثرية، وبعض فنون البديع اللفظية والمعنوية كالطباق، والمقابلة، والجناس؛ ولقد اخترت هذه الفنون البديعية دون غيرها لأن هذه الفنون مما كثر فيه التكلف فى كتابات كثير من الكتاب والأدباء عبر التاريخ، وفى كثير من الأسجاع نلمح أن كثيراً من الأدباء كانوا يحرصون على اللفظ أكثر من حرصهم على المعنى وكانت عنايتهم مصروفة إلى حشد الألفاظ المسجعة والعبارات المترادفة، وكان السجع هدفاً فى ذاته مما أخرج كثيراً منهم عن حد الاعتدال إلى التكلف المذموم، وهذا أمر معلوم وملاحظ فى مثل مقامات الهمذانى والحريرى، وفى كتابات القاضى الفاضل وغيرهم [2] أما فى البيان النبوى فسيتضح لنا كيف جاءت هذه الفنون البديعية فيه على نهج السداد والاعتدال بعيداً عن التكلف المذموم.وأقدم هنا بتمهيد موجز يتناول الحديث عن السجع ومعناه، وضوابطه عند البلاغيين، وموقف النبى ﷺ منه، وسبب رفضه للسجع فى كلام الأعرابى مع أنه قد جاء كثيراً فى البيان النبوى، ولم لم يأتِ القرآن والحديث مسجوعين؟، ويأتى بعد ذلك الحديث عن التوازن، وبعد ذلك التطبيق على نماذج من السجع والتوازن فى الحديث النبوى، ثم الموسيقى النثرية فى الحديث مع التطبيق على نماذج من البيان النبوى، ويأتى بعد ذلك أمثلة للطباق والمقابلة والجناس فى البيان النبوى.

---

(1) ينظر البيان النبوى ص 247

(2) ينظر علم البديع أ. د. عبد العزيز عتيق ص 216 – ط دار النهضة العربية – (1405) (1985) م.

أما عن السجع فى البيان النبوى: فحين نتحدث عنه فإننا نتحدث عن فن لا يتصدى له إلا من رسخت قدمه فى البلاغة، وألم بأسباب الفصاحة؛ لأن الأمر فى السجع ليس مجرد الجمع بين فاصلتين متفقتين فى حرف واحد، ولو كان الأمر كذلك لاستطاع كثير من الناس أن يقولوا السجع ويبدعوا فيه، ولكن هذا الفن من فنون الكلام له ضوابط ودقائق يعرفها من سبروا أغوار هذا الفن، وأدركوا سر الجمال فيه، ومنبع الحسن فى تركيبه. وقبل التطبيق على نماذج من البيان النبوى أقدم بذكر الضوابط التى وضعها البلاغيون للسجع الحسن البليغ حتى يتسنى لنا من خلالها الوقوف على دقة السجع فى البيان النبوى، وتربعه على ذروة سنام البلاغة.

معنى السجع: السجع مأخوذ من سجع الحمام: وهو تغريده [1]، وحده ابن سنان الخفاجى بأنه: " تماثل الحروف فى مقاطع الفصول " [2]، وقال الخطيب: " هو تواطؤ الفاصلتين على حرف واحد " [3]، وهذا معنى قول السكاكى: " الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر " [4] ولقد ردد ابن الأثير تعريف الخطيب حيث قال: " يقال فى السجع وحده تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد " [5]، وهذه التعريفات كلها تدور حول معنى واحد، وهو أن تتفق الكلمتان الأخيرتان من الفقرتين فى حرف واحد فى آخرهما [6]، وهذا التواطؤ بين**الفاصلتين لابد له من ضوابط ذكرها البلاغيون** ، وقد استخلصوها من خلال النظر فى شواهد هذا الفن فى القرآن والحديث، وكلام العرب، يقول ابن سنان الخفاجى: " والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولايكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأجله، وورد ليصير وصلة إليه فإنا متى حمدنا هذا الجنس من السجع كنا قد وافقنا دليل من كرهه، وعملنا بموجبه لأنه دل على قبح ما يقع من السجع بتعمل وتكلف، ونحن لم نستحسن هذا النوع، ووافقنا أيضاً دليل من اختاره لأنه إنما دل به على حسن ما ورد فى كتاب الله تعالى وكلام النبى ﷺ، والفصحاء من العرب [7]، ولقد أشار الأمام عبد القاهر إلى أن " الأحسن والأهدى أن ترسل المعانى على سجيتها، وتدعها

---

(1) ينظر خزانة الأدب 411/2, وعروس الأفراح 445/4

(2) ينظر سر الفصاحة ص 171

(3) ينظر الإيضاح 79,78/4

(4) ينظر المفتاح ص 203

(5) ينظر المثل السائر ص 114

(6) وقد يكون الاتفاق بين كل لفظة وما يقابلها فى الفقرتين فى الوزن والروى كما فى الترصيع، أو تتفق اللفظة الأخيرة من الفقرتين فى الوزن والروى كما فى المتوازى.

(1) ينظر سر الفصاحة ص 171

تطلب لنفسها الألفاظ... أما أن تضع فى لنفسك أنه لابد من تجنيس أو سجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بمعرض الاستكراه، وعلى خطر من الخطإ والوقوع فى الذم " [1]، وهذا ما نبه إليه صاحب الكشاف وهو بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل: 22) [2] " فالأصل فى السجع هو الاعتدال فى مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء...، ومع هذا فليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعاً...، بل ينبغى أن تكون الالفاظ حلوة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة، والمقصود بالغثة الباردة أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن، ووراء ذلك مطلوب آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى لا أن يكون المعنى تابعاً للفظ فإنه يجئ عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب، ولقد ذكر ابن الأثير شرطاً آخر لحسن السجع وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها، فإن كان المعنى فيها سواء فذلك هو التطويل بعينه؛ لأن التطويل هوالدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها. فالكلام المسجوع إذاً يحتاج إلى أن يتوافر فيه أربعة أمور: الأول: اختيار مفردات الألفاظ. الثانى: اختيار التركيب. الثالث: أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعاً للمعنى لا أن يكون المعنى تابعاً للفظ. الرابع: أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها... " [3]

" والسجع مبنى على الوقف، وكلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفاً عليها؛ لأن الغرض أن يجانس المنشئ بين القرائن ويزاوج، ولا يتم له ذلك إلا بالوقف، إذ لو ظهر الإعراب لفات الغرض، وضاق ذلك المجال على قاصده " [4]

وأحسن السجع : "أن تكون كل واحدة من الفقرتين مؤلفة من ألفاظ قليلة، وهو أشرف السجع للاعتدال فيه كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى: 9،10)، والفاصلتان هنا متساويتان لا تزيد إحداهما عن الأخرى كأنما أفرغتا فى قالب واحد.

---

(2) ينظر أسرار البلاغة ص 11,10

(3) ينظر الكشاف 364/3

(1) ينظر المثل السائر ص 116- 118

(2) ينظر خزانة الأدب 413/2

وأمثال ذلك فى القرآن كثيرة " [1]، ثم ما طالت الثانية ثم الثالثة، كقوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (العصر: 1-3)، ويشترط ألا يكون الفصل الثانى أطول من الأول طولاً يخرجه عن الأعتدال خروجاً كثيراً فإنه يقبح عند ذلك ويستكره ويعد عيباً... أما أن يكون الفصل الأخر أقصر من الأول – وهو عيب فاحش عند ابن الأثير – وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله ثم يجئ الفصل الثانى قصيراً عن الأول فيكون كالشئ المبتور فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها[2]

ويرى ابن الأثير أن السجع على اختلاف أقسامه ضربان : " أحدهما: يسمى السجع القصير وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة، وكلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع، وهذا الضرب أوعر مذهباً، وأبعد متناولاً، ولا يكاد استعماله يقع إلا نادراً. والضرب الآخر: يسمى السجع الطويل، وهوضد الأول لأنه أسهل متناولاً، وإنما القصير من السجع أوعر مسلكاً من الطويل لأن المعنى إذا صيغ بألفاظ قصيرة عز مواتاة السجع فيه لقصر تلك الألفاظ وضيق المجال فى استجلابه، وأما الطويل فإن الألفاظ تطول فيه ويستجلب له السجع. والسجع القصير أحسنه ما كان مؤلفاً من لفظين لفظين، ومنه ما يكون مؤلفاً من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة، وكذلك إلى العشرة، وما زاد على ذلك فهو من السجع

---

(3) ينظر التبيان فى المعانى والبيان 523/2

(4) وفى هذا التعليل نظر لأنهم عندما جعلوا أحسن السجع ما تساوت قرائنه عللوا ذلك بأمرين: أولهما: لأنه شبيه بالشعر الذى تساوت فيه الأبيات. وثانيهما: أن السمع ألف الانتهاء إلى الغاية فى السجعة الأولى فإذا زيد عليها فى الثانية ثقل عليه الزائد إذ يكون عند الانتهاء إلى مقدار الأولى كمن توقع الظفر بمقصود من فهم المراد فلم يجده. ويراجع فى ذلك شروح التلخيص 449/4، وهذا يتعارض ببديهة النظر مع ما عللوا به قصر الثانية عن الأولى، ويمكن حمل كلامهم على أن بين التعليلين فرقاً من حيث إن فى كل من الناقص والزائد خروجاً عما ألفه السمع وتعوده قياساً على القرينة السابقة طولاً أوقصراً. ويراجع فى تفصيل ذلك البديع من المعانى والألفاظ ص 139. فهذا العيب نسبى فإذا لم يخرج عن حد الاعتدال لم يعد عيباً، ولقد استشهد أبو هلال العسكرى على ذلك بما جاء فى الحديث النبوى من قوله صلى الله عليه وسلم: " رحم الله من قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم " حسنه الألبانى فى الصحيحة 51/2, 511ولقد جارى القلقشندى أبا هلال العسكرى فيما ذهب إليه، واستشهد من القرآن بقوله تعالى (إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور. وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور) (الأنفال: 44,43) فالأولى عشرون كلمة، والثانية تسع عشرة. الصناعتين ص 289

الطويل. والسجع الطويل تتفاوت درجاته أيضاً فى الطول، فمنه ما يقرب من السجع القصير، ومنه ما يزيد على ذلك " [1]

وهذه أبرز ضوابط السجع الحسن البليغ عند البلاغيين. أما عن أقسامه فسيأتى الحديث عنها فيما بعد. ولكن قبل ذلك لابد من توضيح أمر هام، وهو إذا كان السجع موجوداً فى البيان النبوى **فلم رفض النبى ﷺ السجع فى كلام الأعرابى** [2] الذى قال: كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل، فقال النبى ﷺ: " **إنما هذا من إخوان الكهان** "، وفى رواية لمسلم " **إنما هذا من إخوان الكهان من أجل سجعه الذى سجع** "، وفى رواية " **أسجع كسجع الأعراب** ". وهناك سؤال آخر: **وهو إذا كان للسجع منزلة فى البلاغة فلم لم يأتِ القرآن والحديث مسجوعين؟**

أما عن السؤال الأول: فالنبى ﷺ كره السجع فى كلام الأعرابى **لأنه وقع منه مع التكلف فى معرض مدافعة الحق.** فالتكلف فى هذا الفن والنظر فيه إلى الناحية اللفظية دون المعنى مما يعاب فيه، وإن أضيف إليه مدافعة الحق تضاعف التكلف، وزادت الكراهة فيه. أما ما يقع من هذا الفن عفو الخاطر بدون تكلف فى الأمور المباحة فجائز، وعلى ذلك يحمل ما ورد عنه ﷺ من الأحاديث المشتملة على السجع.

وفى ذلك يقول العلماء : " إنما ذم النبى ﷺ سجعه (أى الأعرابى) لوجهين: أحدهما: أنه عارض حكم الشرع ورام به إبطاله. والثانى: أنه تكلفه فى مخاطبته. وهذان الوجهان من السجع مذمومان، وأما السجع الذى كان النبى ﷺ يقوله فى بعض الأوقات – وهو مشهور فى الحديث – فليس من هذا لأنه لا يعارض حكم الشرع، ولا يتكلفه، فلا نهى فيه ، بل هو حسن، ويؤيد ما ذكرنا من التأويل قوله ﷺ: " **كسجع الأعراب** " فأشار إلى أن بعض السجع هو المذموم " [3]، ويقول ابن حجر: " والحاصل أنه إن جمع بين الأمرين من التكلف وإبطال الحق كان مذموماً، وإن

---

(1) ينظر تفصيل ذلك وأمثلته فى المثل السائر ص151,150, وخزانة الأدب 412/2

(2) سبب ورود الحديث أنه اقتتلت امرأتان من هذيل فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصابها فى بطنها وهى حامل فقتلت ولدها الذى ببطنها، فاختصموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقضى أن دية ما فى بطنها غرة عبد أو أمة، فقال ولى المرأة: كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل فمثل ذلك يطل.
والحديث رواه البخارى من حديث أبى هريرة. كتاب الطب – باب الكهانة – ح (5550) 226/10, ورواه مسلم – باب دية الجنين – 175/11

(1) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 178/11

اقتصر على أحدهما كان أخف فى الذم، ويخرج من ذلك تقسيمه إلى أربعة أنواع: فالمحمود ما جاء عفو الخاطر فى حق، ودونه ما يقع متكلفاً فى حق أيضاً، والمذموم عكسهما " [1]

ويرى ابن الأثير " أن النبى ﷺ إنما أنكر الحكم الذى تضمنه السجع من امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة، وأن السجع الذى أتى به الرجل كلام حسن من حيث السجع، وليس بمنكر فى نفسه " [2] [3]

ويبدو لى أن النبى ﷺ إنما أنكر السجع فى كلام الأعرابى لأجل تكلفه، ولأن السجع فى كلامه مقصود لذاته ويحال عليه المعنى، ولكن لو أتى السجع فى بعض كلامه ومنطقه، ولم تكن القوافى متكلفة ولا متمحلة مستكرهة، وكان ذلك على سجية الإنسان وطبعه فهو غير منكر ولا مكروه [4] أما أن سجع الرجل حسن لا بأس به فهذا مما انفرد به ابن الأثير [5]

أما عن السؤال الثانى: وهو إذا كان للسجع هذه المنزلة من البلاغة فلم لم يأتِ القرآن والحديث مسجوعين؟ ولقد أجاب على ذلك ابن سنان الخفاجى وابن الأثير، فقال ابن سنان: " فإن قال قائل: إذا كان عندكم أن السجع محمود، فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً؟ وما الوجه فى ورود بعضه مسجوعاً وبعضه غير مسجوع؟ قيل: إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعادتهم، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً لما فى ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع لا سيما فيما يطول من الكلام، فلم يرد مسجوعاً جرياً على عرفهم فى الطبقة العالية من الكلام، ولم يخل من السجع لأنه يحسن فى بعض الكلام على الصفة التى قدمناها، وعليها ورد فى فصيح كلامهم، فلم يجز أن يكون عالياً فى الفصاحة وقد أخل فيه بشرط من شروطها، فهذا هو السبب فى ورود القرآن مسجوعاً وغير مسجوع... " [6]، وقال ابن الأثير: " وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار، والسجع لا

---

(2) ينظر فتح البارى 229/10, والبيان والتبيين للجاحظ 290,289/1

(3) ينظر المثل السائر ص 116, ويقول الطيبى: " إنما ضرب المثل بالكهان لأنهم يروجون أقاويلهم الباطلة بإسجاع يروق السامعين فيستميلون بها القلوب، ويستصغون إليها الأسماع. فأما إذا وضع السجع فى موضعه من الكلام فلا ذم فيه وكيف يذم وقد جاء فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم " ينظر شرح الطيبى على المشكاة 98/7, والتبيان 524/2

(4) ينظر كتاب الصناعتين ص 286

(5) ينظر البيان النبوى ص 256,254

(6) ينظر البيان النبوى ص 256,254

(1) ينظر سر الفصاحة ص 174

يؤاتى فى كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار، فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب. وهاهنا وجه آخر هو أقوى من الأول، ولذاك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعاً " [1]

ومما تجدر الإشارة إليه أن العلماء اختلفوا هل يقال فى فواصل القرآن أسجاع أو لا؟

فمنهم من منعه، ومنهم من أجازه. والذى منع تمسك بقوله تعالى: ﴿... كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1) قال: " فسماه فواصل، وليس لنا أن نتجاوز ذلك، وتسمى فواصل لأنه ينفصل عنده الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها " [2]، ولأن أصله من سجع الطائر فشرّف القرآن الكريم أن يستعار لشئ فيه لفظ هو أصل فى صوت الطائر، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث فى اسم السجع الواقع فى كلام آحاد الناس، ولأن القرآن من صفات الله عزوجل فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها وإن صح المعنى، وفرقوا بينهما بأن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ثم يحال عليه المعنى، والفواصل التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة فى نفسها. وممن ذهب إلى ذلك الرمانى و تبعه القاضى الباقلانى ونقل عن الأشعرية امتناع كون فى القرآن سجعاً قال:

" ونص عليه الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى غير موضع من كتبه "، وذهب كثير من مخالفيهم إلى إثبات السجع فى القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التى يقع بها التفاضل فى البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات ونحوها، ورد الخفاجى على قول الرمانى: إن السجع عيب والفواصل بلاغة غلط، فإنه إن أراد بالسجع ما يتبع المعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله، وإن أراد ما تقع به المعانى تابعة له وهو مقصود متكلف فذلك عيب والفواصل مثله. وقال ابن النفيس: يكفى فى حسن السجع ورود القرآن، ولا يقدح فى ذلك خلوه فى بعض الآيات لأن الحسن قد يقتضى المقام الانتقال إلى أحسن منه إلى آخر ما ذكره أصحاب هذا الرأى " [3]

---

(2) ينظر المثل السائر ص 118,117

(3) ينظر الإتقان 97/2

(1) ينظر النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ص 97 ضمن ثلاث رسائل – ط دار المعارف، وإعجاز القرآن للباقلانى ص 57 – 65, وسر الفصاحة ص 172, والبرهان 45/1 – 58, والإتقان 96/2 – 98, وشروح التلخيص 452/4

أما عن التوازن [1] : وسماه الخطيب " الموازنة ": وهو أن تكون الفاصلتان متساويتين فى الوزن دون التقفية كقوله تعالى: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (الغاشية: 15،16) فإن كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن خص باسم " المماثلة " كقوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الصافات: 117،118) [2] فالموازنة التساوى فيها فى الوزن دون التقفية، وعليه فبين السجع والموازنة مباينة [3] لأنه يجب فى الموازنة عدم الاتفاق فى التقفية بخلاف السجع فإنه يشترط فيه الاتفاق فى التقفية[4].

وللكلام بالموازنة طلاوة ورونق، وسببه الاعتدال لأنه مطلوب فى جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان " [5] [6]، وهو دون السجع فى المنزلة لأن فواصله على أحرف متقاربة المخارج، وليست من جنس واحد " [7]

وبعد أن وقفنا على ضوابط السجع والتوازن عند البلاغيين ننتقل إلى روائع البيان النبوى فى هذين الفنين من فنون البديع.

---

(2) سماه الطيبى فى كتابه التبيان بـ" المتوازى "، وعرفه بأنه التوافق فى الوزن دون الروى، ومثل له بالآية المذكورة وأدخل فيه المماثلة، ومثل له بالآية الثانية المذكورة، وقد جعله ضرباً من ضروب السجع. التبيان 522/2. ولقد أشار السبكى إلى أن من البلاغيين من عد الموازنة من ضروب السجع وجعلها أربعة أضرب، ومنهم من لم يعدها منه وهو الصحيح. عروس الأفراح 455/4. وعند علماء البديع السجع ثلاثة أضرب: المطرف، والمتوازى، والترصيع أو المرصع، الإيضاح 78/4 – 83، وفى خزانة الأدب جعله أربعة أضرب، وأضاف إلى الثلاثة السابقة المشطر. خزانة الأدب 412,411/2

(3) ينظر الإيضاح 84/4

(4) إلا على رأى ابن الأثير فإنه يشترط فى السجع التساوى فى الوزن والتقفية، ويشترط فى الموازنة التساوى فى الوزن دون الحرف الأخير. شروح التلخيص 457,456/4

(5) ينظر حاشية الدسوقى على مختصر السعد 456/4

(1) ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك فرقاً بين السجع، والفاصلة، والقرينة، والفقرة. فالقرينة: قطعة من الكلام جعلت مزاوجة لأخرى. والفقرة: مثلها إن شرط مزاوجتها الأخرى وإلا كانت أعم سواء كانت مع تسجيع أو لا كما هو ظاهر كلامهم، وأما الفاصلة فهى الكلمة الأخيرة من القرينة التى هى الفقرة. وأما السجع فقد يطلق على نفس الفاصلة الموافقة لأخرى فى الحرف الأخير منها، ويطلق على توافق الفاصلتين فى الحرف الأخير. ينظر حاشية الدسوقى 445/4

(2) انظر المثل السائر ص 169

(3) انظر الصناعتين ص 288

فالسجع فى البيان النبوى ما أروعه وأبدعه لأنه سجع يأتى لموافقة المعنى بعيداً عن التكلف، ولقد جرى عليه كثير من كلامه صلى الله عايه وسلم كما يقول أبو هلال العسكرى [1]، ومن ذلك قوله ﷺ: " **اتقوا الله، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم، تدخلوا جنة ربكم** " [2]، وهنا السجع فى أعلى درجات الحسن لقصر عباراته من ناحية، وتنوع فواصله واختلافها فى المعنى من ناحية أخرى. وقد مضى أن السجع القصير الفقرات أوعر مسلكاً، وأن من صفات السجع الحسن أن تختلف فواصله فى المعنى ولاتتكرر بألفاظ أخرى مرادفة لها، وهنا نلمح أيضاً أن السجع مما يناسب المقام لأنه بصدد بيان بعض أصول الإسلام، ويحتاج إلى ترسيخها فى الأذهان، وبهذه الموسيقى اللفظية فى العبارات يتسنى تثبيت المعانى المذكورة فى النفوس حتى يتمكن من فهمها والعمل بها، والسجع برنته مما يساعد على ذلك. **كذلك قوله** ﷺ: " **خير الناس من طال عمره، وحسن عمله** " [3]، وهذا الحديث يشارك ما قبله فى قصر عباراته وعذوبة ألفاظه مع إيجازه حيث جمع بين الخيرين: طول العمر، وحسن العمل. فما أروع معناه، وأعذب ألفاظه. **ومن ذلك** قوله ﷺ: " **أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب** " [4]، ونلاحظ هنا أن فواصل السجع جاءت ساكنة الأعجاز فى حال الوقف، وقد مضى أن السجع مبنى على الوقف، وأن كلمات الأسجاع مبنية على أن تكون ساكنة الأعجازموقوفاً عليها. ويبدو لى فى الوقف على السجع فى هذا الحديث سر آخر، فالسكون فى الفاصلتين — هنا — مرتبط بالمعنى تمام الارتباط، وكأنه جاء بسكون الفاصلتين لقطع الكلام وحسمه فى هذا الأمر وثباته فى الموقف يوم حنين [5]، فصدقه فى نبوته أمر محسوم مقطوع به، وكونه ابن عبد المطلب أيضاً أمر مقطوع به فأراد أن يوافق بين المعنى واللفظ فأتى بالعبارتين على السكون والوقف والقطع ليناسب اللفظ المعنى فيكون الوقف فى الفاصلتين، والسكون مما يناسب القطع والحسم فى المعنى المقصود، فهو النبى صدقاً فلا يفر، وهو ابن عبد المطلب صاحب النجدة، وزعيم مكة، وهذا يؤكد ما سبق ذكره من أن السجع الحسن المقبول ما كان اللفظ فيه تابعاً للمعنى فلا يتكلف السجع لتزيين اللفظ، وإنما المعنى هو الذى يطلبه لأن السجع أدق ما يعبر عنه، وهذا ما نلاحظه فى البيان النبوى **ومن السجع الحسن الذى تعددت فقراته مع قصرها، واختلاف معناها، وعذوبة**

---

(4) انظر الصناعتين ص 286

(5) أخرجه الترمذى من حديث صدىّ بن عجلان الباهلى. وقال الترمذى: حسن صحيح. نزهة المتقين 86/1

(6) أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن بسر الأسلمى. وقال الترمذى: حديث حسن. نزهة المتقين 112/1

(7) أخرجه أحمد والبخارى ومسلم من حديث البراء بن عازب. مشكاة المصابيح ح (4895) 159/9

(1) لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال هذا الحديث يوم حنين.

ألفاظها قوله ﷺ: " بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر " [1]، ويلاحظ هنا قصر الفقرات مع تنوعها واختلاف معناها، وعذوبة ألفاظها. وقافية السجع فى قوله: " **منسياً، ومطغياً** " إلخ مرتبطة بالمعنى تمام الارتباط، وهى فيما يبدو لى تصور غفلة الناس عن هذه الأمور مع قربها منهم ،والأمر فى هذه الأسجاع يحتاج إلى ذوق وتأمل لإدراك العلاقة بين السجع والمعنى، واللفظة التى تنتهى بها الفقرة المسجوعة، فالأمر فى السجع ليس مجرد الموافقة فى الفواصل كما سبق، بل الأمر مرتبط بالمعنى تمام الارتباط، وهو ما يلاحظ عند التأمل فى البيان النبوى [2].

ويلاحظ فى الأمثلة الماضية أن السجع فيها من السجع الذى تساوت فقراته مع قلة الألفاظ فى كل فقرة منها، وهو من أشرف السجع منزلة للاعتدال فيه كما مضى، ولأنه إذا كانت كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة كان ذلك أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع، وهو أوعر مذهباً كما سبق.

ومن السجع الذى توسطت فقراته بين الطول والقصر قوله ﷺ : " لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت " [3]

ويلاحظ هنا أن الفقرتين فى السجع تزيد أعداد كلماتهما عن الأحاديث السابقة، وقد مضى أن السجع الحسن يتفاوت فى الطول بين القصير والطويل، ويلاحظ أن الفقرتين فى السجع متساويتان فى أعداد الكلمات، وهذا التساوى مما يزيد السجع حسناً وجمالاً نظراً للاعتدال فيه.

كذلك قوله ﷺ: " إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة " [4]

ومن أسرار الجمال هنا اللفظة التى تنتهى بها الفقرة فى السجع، فاللفظة الأخيرة مع السجع لها رنة وموضع وسر، فلم يقل مثلاً: ستحرصون على الولاية أو نحو ذلك، وإنما قصد هذه اللفظة لأنها بالأذهان أعلق وإلى النفوس أحب، وفى النطق أعذب، وفى المزاوجة بينها وبين القيامة ربط

---

(2) أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة. وقال الترمذى: حديث حسن. نزهة المتقين 423/1

(3) وهذا يؤكد ما ذكره أبو هلال العسكرى من أنه صلى الله عليه وسلم ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها قصداً للتوازن وصحة التسجيع. وكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف...، والحكيم العليم بالكلام يتكلم على قدر المقامات. ويراجع كلام أبى هلال العسكرى والأمثلة التى ساقها من البيان النبوى فى الصناعتين ص287,286

(1) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة. نزهة المتقين 443/1

(2) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة. نزهة المتقين 481/1

ذهنى بين الدنيا والآخرة فى ومضة عين.وهذا يؤكد ما سبق ذكره أن السجع فن دقيق يراعى فيه المعنى واللفظ والقافية السجعية بمايتلاءم مع المعنى. **ومن ذلك قوله ﷺ: " لا تحل الصدقة لغنى، ولا لذى مرة سوى** "[1]، ويلاحظ الاعتدال والتساوى بين الفقرتين فى الحديث، وذلك مما أكسب الفقرتين عذوبة فى النطق، ولذة فى السمع، وذلك من خلال المواءمة بين اللفظ والمعنى.**ومن السجع الذى طالت فقرته الأولى عن الثانية: قوله ﷺ: " اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به** "[2] وقد مضى أن قصر الفقرة الثانية مع طول الأولى أمر نسبى يختلف تبعاً لطبيعة الكلام والمقام، فقد يكون قصر الثانية عن الأولى مما يتطلبه المقام ويناسب المعنى، وقد ذكر أبو هلال العسكرى بعض الأحاديث التى كان الجزء الثانى أو الأخير فيها أقصر من الأول. وهذا أيضاً وارد فى كلام الفصحاء والبلغاء [3]

ومن ذلك قوله ﷺ: " إن الرفق لا يكون فى شئ إلا زانه، ولا ينزع من شئ إلا شانه "[*] والسجع هنا قد ترشح بفن آخر من فنون البديع المعنوى، وهو فن الطباق وذلك فى قوله: " **لا يكون، ولا ينزع** "، وقوله: " **زانه، وشانه** "، وهذا مما يزيد السجع حسناً وجمالاً أن يجمع معه فن آخر من فنون البديع فيزداد الكلام رونقاً وحلاوة وطلاوة.

ومن هذا النوع قوله ﷺ : " يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا "[4] ففى هذا الحديث يلاحظ أن ألفاظ الجزءين مسجوعة فيما بينها، ويلاحظ أن الفاصلتين مسجوعتان، فالكلام سجع فى سجع، وقد ترشح بفن آخر من فنون البديع المعنوى وهو الطباق بين " **يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا** " وهذا مما زاد الكلام طلاوة وجمالاً ويبدو لى أن هذا السجع مع المطابقة بهذه الألفاظ أمر مقصود إليه فى البيان النبوى

ومن الأحاديث المسجعة التى طالت فيها الأجزاء الأولى، وقصرت فيها الأجزاء الأخيرة: قوله ﷺ: " **إن الله كتب الإحسان على كل شئ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته** "[5]، وقوله ﷺ: " **كلمتان**

---

(3) أخرجه البخارى والترمذى والدارمى من حديث عبد الله بن عمرو. وقال الترمذى: حديث حسن. المشكاة ح (1830) 60,59/4

(4) أخرجه مسلم من حديث عائشة. نزهة المتقين 468/1

(1) راجع كلام أبى هلال فى الصناعتين ص 288 (*) أخرجه مسلم من حديث عائشة. نزهة المتقين 456/1

(2) متفق عليه من حديث أنس. نزهة المتقين 457/1

(3) أخرجه مسلم من حديث شداد بن أوس. نزهة المتقين 458/1

خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم " [1]

ومن الأحاديث التى كثر فيها السجع أحاديث الدعاء ، والسجع مما يناسب هذا المقام مقام التضرع والابتهال إلى الله عزوجل، وقد تنوعت فواصل السجع فى أحاديث الدعاء ما بين القصيرة والطويلة حسب المقام والغرض، وأحاديث الدعاء المسجعة لها رنة وصدى فى الأذن مما يناسب حال الداعى الخاشع المتضرع، وقد روعى فيها مناسبة الألفاظ لمعانيها، **ومن ذلك** قوله ﷺ: " **اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم** " [2]، وقصر الفواصل هنا مما يناسب الحال و المقام، ويلاحظ أن الفاصلة الأخيرة تخالف فواصل السجع قبلها، ولقد ختم بها الدعاء، وجاءت بصيغة الأمر ومعناه الدعاء، ويلاحظ أيضاً قصر فواصل السجع واعتدالها، وهذا الضرب أوعر مسلكاً، ولا يتصدى له إلا أرباب الفصاحة والبلاغة.

ومن السجع الذى طالت فيه الفاصلة قبل الأخيرة فى أحاديث الدعاء: قوله ﷺ: " **اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إنى أعوذ بعزتك لا إله إلا انت أن تضلنى، أنت الحى الذى لا يموت، والجن والإنس يموتون** " [3]

والسجع هنا مما يناسب المقام، وموسيقى الدعاء هنا هى الموسيقى الحانية التى تناسب جوالليل الوديع الهادئ لأن هذا الدعاء كان مما يقوله النبى ﷺ إذا قام إلى الصلاة فى جوف الليل [4]، وطول الفاصلة قبل الأخيرة مع اتفاقها مع ما قبلها فى القافية مما يحسن فى السجع بشرط ألا تطول طولاً يخرجها عن حد الاعتدال، وما نراه هنا جاء على نهج الاعتدال، وقد ترشح السجع بفن آخر من فنون البديع المعنوى، وهو فن الطباق ،وهو من طباق السلب بين " **لايموت، ويموتون** "، وقد جاءت هذه العبارة فى الحديث مخالفة فى القافية لما قبلها، ومعناها يشير إلى قيومية الحق سبحانه وديمومته، ولعظم هذا المعنى والحرص على تثبيته فى النفوس جاءت هذه الفقرة مخالفة لقافية السجع فى الحديث لفتاً للأنظار، والأمر فى ذلك دقيق حين نقرأ هذا الحديث ونكرره

---

(4) متفق عليه من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (2298) 78/5

(1) متفق عليه من حديث عبد الله بن أبى أوفى. جامع الأصول 185/3, ونزهة المتقين 69/1

(2) متفق عليه من حديث ابن عباس واللفظ لمسلم. نزهة المتقين 89/1

(3) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 55,54/6

بفقراته المسجوعة، فمن بدايته نراه يشير إلى الإسلام لله، والإيمان به، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والمخاصمة فيه، والعياذ بعزته، وكلها تدور حول هدف واحد ومحور واحد. أما العبارة الأخيرة بما فيها من مطابقة تشتمل على معنى آخر، وهو الإشارة إلى قيومية الله تعالى وبقائه؛ ولذلك خالف فى الفاصلة فليتأمل.

ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ: " اللهم أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، وبنبيك الذى أرسلت " [1]

وهذا الدعاء برنته وتناغمه مما يناسب حال من أخذ مضجعه لينام [2]، وقد تنوعت قافية السجع ما بين الكاف فى الفقرات الست الأولى، والتاء فى الفقرتين الأخيرتين، ويلاحظ أنه فى الفقرة الأخيرة قد جمع بين النبوة والرسالة فى قوله: " **ونبيك الذى أرسلت** " وقد يقول قائل: إن هذا تكرار لنفس المعنى وهو مما يخالف شرطاً من شروط السجع الحسن المقبول، ولكن عند التأمل الدقيق يلا حظ أن وراء ذلك سراً بلاغياً، " وهو أنه اختار أن يثنى عليه بالجمع بين الاسمين تعديداً للنعمة فى الحالين، وتعظيماً للمنة على الوجهين " [3]

ومن أحاديث الدعاء التى قصرت فقرات السجع فيها وجمعت الطباق مع السجع قوله صلى الله عليه : " **اللهم اغفرلى ذنبى كله، دقه وجله، وأوله وآخره وعلانيته وسره** "[4] ويلاحظ هنا اقتران السجع بالطباق فى الفقرات الثلاث الأخيرة، وهذا مما زاد المعنى جمالاً حيث إنه أجمل أولاً فى قوله: " **اللهم اغفرلى ذنبى كله** " ثم فصل بعد ذلك فى سائر الحديث فذكر الدقيق والجليل، والأول والآخر، والسر والعلانية، ويلاحظ اعتدال فقرات السجع واستوائها وقصرها، وذلك مما يناسب المقام والسياق، والسجع هنا زاد المعنى جمالاً لأنه تابع للمعنى الذى هو طلب المغفرة لكل الذنوب على اختلاف أشكالها.

ومن ذلك قوله ﷺ: " اللهم اغفرلى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفرلى جدّى وهزلى، وخطئى وعمدى، وكل ذلك عندى. اللهم اغفرلى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منى. أنت المقدم والمؤخر،

---

(1) متفق عليه من حديث البراء بن عازب. نزهة المتقين 93/1

(2) لأن هذا الدعاء مما يقال عند النوم. ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 34/17

(3) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 151/5

(4) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة. نزهة المتقين 214/2

وأنت على كل شئ قدير " [1]، ويلاحظ هنا تنوع فقرات السجع ما بين القصيرة والمتوسطة فى الفقرات الخمس الأولى، ويلاحظ اختلاف قافية السجع فى الفقرتين التاليتين لهذه الخمس مع اقتران السجع بالطباق فى بعض الفقرات كما فى قوله: " **جدى وهزلى، وخطئى وعمدى** "، وقوله: " **ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت** "، ولقد خالف فى القافية فى الفاصلتين الأخيرتين من الحديث وذلك لاختلافهما فى المعنى عن الفواصل السابقة، فالفواصل الأولى كلها على اختلاف قافيتها تدور حول طلب المغفرة للذنوب بكل أشكالها، والفاصلتان الأخيرتان تتحدثان عن أن الله هو المقدم والمؤخر لمن يشاء، وأنه على كل شئ قدير؛ ومن ثم تغيرت الفاصلة تبعاً للمعنى. ويبدو لى أن هذا أمر مقصود إليه فى الحديث، فليتأمل فى دقة البيان النبوى وروعته.

ومن أحاديث الدعاء المتضمنة للسجع قوله صلى الله عليه : " **اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك** "[2] وهنا يلاحظ تنوع فقرات السجع ما بين القصيرة والمتوسطة، وهذا التنوع يأتى تبعاً للمعنى، ويمكن ملاحظته عند التأمل فى معنى كل فقرة من الفقرات.

ومن أحاديث الدعاء التى طالت فيها فقرات السجع: قوله ﷺ: " **اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به** " [3]، وهنا قد جمع بين المقابلة من فنون البديع المعنوى وبين السجع من فنون البديع اللفظى. والمقابلة هنا بين قوله: " **فشق عليهم فاشقق عليه** "، وقوله: " **فرفق بهم فارفق به** "، والسجع هنا مع طول فقراته إلا أنه يجرى على سمت الاعتدال لأنه تابع للمعنى ، ولأن تنوع فقرات السجع ما بين الطويلة والقصيرة مما يختلف أيضاً تبعاً للموضوع، والأمر فى السجع دقيق يحتاج إلى فضل تأمل وذوق.

والفواصل السجعية فى الحديث النبوى كما تتنوع فى الطول والقصر تبعاً للمعنى كذلك تختلف تبعاً للمعنى، وقد مضى مثال ذلك فى قوله ﷺ: " **اللهم اغفرلى خطيئتى وجهلى...** " الحديث، ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ: " **اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة** " [4]

---

(5) متفق عليه من حديث أبى موسى. مشكاة المصابيح ح (2482).

(1) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر. نزهة المتقين 240/2

(2) أخرجه مسلم من حديث عائشة. نزهة المتقين 468/1

(3) أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث أبى هريرة. مشكاة المصابيح ح (2469) 212/5

ومن السجع الذى قصرت فقراته، وهو من أحسن السجع وأشرفه للاعتدال فيه: قوله ﷺ: " **اللهم أعنى على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك** "[1]، وقوله ﷺ: " **إن الله يحب العبد التقى، الغنى، الخفى** "[2]، وقوله ﷺ: " **أنا برئ ممن حلق، وصلق، وخرق** "[3]، وقوله: " **اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام** "[4]، والحديث الأخير مما طالت فقرته الثالثة عن الأولى والثانية، وهذا من أحسن السجع، وقصر فقرات السجع وطولها وتنوع فواصلها مما يرتبط بالمعنى والسياق فى البيان النبوى، والأمر يحتاج إلى فضل تأمل مع الربط بين المعنى والسياق والمقام. وهذه الأحاديث غيض من فيض مما يزخر به البيان النبوى من الأحاديث المشتملة على السجع، ويلاحظ من خلالها أن السجع فى الحديث النبوى مما جرى على نهج الاعتدال لأنه جاء تابعاً للمعنى، كما برئ من التكرار المعيب، وقد ترشح فى كثير من الأحاديث بفنون أخرى من البديع كالطباق والمقابلة، وتنوعت فواصله بين الطويلة والقصيرة تبعاً للمعنى، واتضح أن كثيراً من أحاديث الدعاء يغلب عليها السجع الذى تختلف فيه القافية وطول الفقرة وقصرها تبعاً للمعنى والغرض، والأمر كما سبق يحتاج إلى فضل تامل مع الربط بين السياق والمقام.

وإذا كان البيان النبوى قد جاء بالبديع الرائق من السجع فقد جاء فيه أيضاً " التوازن " الذى تتساوى فيه الفاصلتان فى الوزن دون التقفية[5]، ومن ذلك قوله ﷺ: " **ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: " إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط** "[6] فنجد هنا التوازن بين " **المكاره** " فى نهاية الفقرة الأولى، و" **المساجد** " فى نهاية الفقرة التى تليها، والكلمتان مختلفتان فى التقفية، ولكنهما متفقتان فى الوزن، وهذا التوازن بين الكلمات فى

---

(1) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث معاذ. نزهة المتقين 211/2

(2) أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبى وقاص. مشكاة المصابيح ح (5284) 399/9

(3) متفق عليه من حديث أبى بردة الأسلمى واللفظ لمسلم. مشكاة المصابيح ح (1726) 412/3. ومعنى حلق: أى حلق شعره عند المصيبة. وصلق: هو الصوت الشديد يرفعه فى المصائب وعند الفجيعة بالموت. وخرق: أى شق ثوبه على المصيبة، وكان ذلك فى أغلب الأحوال من صنيع النساء. ينظر شرح الطيبى 413/3

(4) أخرجه مسلم من حديث ثوبان. مشكاة المصابيح ح (961) 453/2

(5) وقد سبق تعريفه عند البلاغيين وأمثلته، والفرق بينه وبين السجع فى التمهيد لهذا الفصل فليراجع

(6) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (282)، ونزهة المتقين 128/1

القافية مما يزيد الكلام طلاوة. **ومن ذلك** قوله ﷺ: " **السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب** " [1]، وهنا اجتمع التوازن بين " **الفم، والرب** "، وحرفا الفاصلتين وهما " **الميم، والباء** " متقاربان فى المخرج مع الاختلاف فى القافية.

ومن التوازن قوله ﷺ: " **اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من فتنة القبر** " [2]، والتوازن هنا بين قافية الفقرة الأولى " **البخل** "، وقافية الفقرة الثانية " **العمر**"

ومن ذلك ما رواه ابن أبى أوفى أنه صلى الله عليه كان إذا رفع رأسه من الركوع قال: " **سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شئ بعد** " [3]، والتوازن هنا بين " **الأرض** "، و" **بعد** " فى الفقرتين الأخيرتين، وهذا التقارب بين الفواصل فى الحروف مع اتفاقها فى الوزن مما يزيد الكلام طلاوة ورونقاً وبهاءً وإن كان التوازن دون السجع فى المنزلة إلا أن البيان النبوى قد استعمل من فنون البديع ما يزيد المعانى وضوحاً، ويعطى الألفاظ عذوبة ورقة وجمالاً، ومن هنا جاء فى البيان النبوى السجع الحسن المعتدل البعيد عن التكلف والذى يتبع فيه اللفظ المعنى مع البعد عن التكرار المعيب فى السجع، وجاء فيه التوازن بين الكلمات حرصاً منه ﷺ على إيضاح المعانى وصوغها فى أفضل قوالب من الألفاظ. ولم يقف الأمر فى البيان النبوى فيما يتعلق بالبديع عند السجع والتوازن، بل امتد ليشمل الموسيقى النثرية التى لا تكون بالمحسنات البديعية، وهذا يحتاج إلى إيضاح.

الموسيقى النثرية [4] فى الحديث النبوى:

يظن بعض الناس أن الموسيقى النثرية لا تكون إلا بالمحسنات البديعية من سجع وازدواج وجناس، وهذا بعض الحق لا كله؛ لأن الموسيقى النثرية قد تكون بهذه المحسنات إذا أتت عن طبع، وصدرت عن أصالة كما سبق، وقد تكون بغيرها إذا رتب الكلام ترتيباً نفسياً يوافق اهتزاز المشاعر، وتموجات النفس بأن يعبر الأديب عن خواطر تطرد وتتدفق منسجمة فى نسق خاص،

---

(1) أخرجه النسائى وابن خزيمة فى صحيحه من حديث عائشة بأسانيد صحيحة. نزهة المتقين 102/2

(2) أخرجه البخارى من حديث سعد بن أبى وقاص. نزهة المتقين 211/2

(3) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى من حديث ابن أبى أوفى. جامع الأصول 35/5

(4) الموسيقى: لفظ يونانى يطلق على فنون العزف على آلات الطرب، وتذكر وتؤنث، وعلم الموسيقى: هو علم يبحث فيه عن أصول النغم من حيث تأتلف وتتنافر، وأحوال الأزمنة المتخللة بينها ليعلم كيف يؤلف اللحن، وهذه اللفظة معربة. المعجم الوسيط ص 891. ولقد شاع استخدامها عند بعض المحدثين لما رأو أنها تعبر تعبيراً دقيقاً عن سمة من سمات الأسلوب فى الحديث النبوى، وهى سمة التعبير.

فكأن سلكاً خفياً ينظمها نظم الدرر، وهذا ما يعرف بـ " الموسيقى الخفية "، وأمارتها أن تسمع للأثر الأدبي يتلى عليك ومن ورائه أذنك المرهفة تصغى لنظم قد تماسك والتحم معنى ومبنى بمعنى أن القارئ لو سكت فجأة دون إتمام مقاله الأدبي لشعرت أن نشازاً حدث فانبترت الموسيقى انبتاراً قاطعاً، فإذا أتم الحديث لغايته فقد بلغ بك الطرب النفسى أقصاه إذ رويت ظمأك بما ينقع الغليل...، وهذه الموسيقى النثرية ليست حركة لفظة وإنما حركة نفسية أو هى ترجمة صوتية عن تجربة للكاتب من شأنها أن تعين اللغة والكلمات على أداء المضمون الروحى للكاتب، وبعبارة أخرى أن تعبر الألفاظ عن المعانى بذواتها، فإذا نسقت هذه الألفاظ تنسيقاً خاصاً اكتسبت من موسيقاها معانى جديدة، وهذا هو الذى يقصده البلاغيون من ألفاظ العذوبة، والرقة، والفخامة، والطلاوة، والسماحة... التى تفصح عن موسيقى الأدب وأثرها فى نفوسهم " [1]، " وهذه الموسيقى من صفات الجودة فى الأسلوب، وهى أمر يرتبط بالموهبة، والأذن المرهفة، والذوق السليم...، وموسيقى الحديث عذبة تنساب فى الكلمة الحديثية، وفى الجملة الحديثية كما تنساب فى الكلام النبوى " [2] وإلى **التطبيق على المنبع الصافى، والمعين الشافى** لنقف على هذا التناغم والتلاحم فى البيان النبوى. ومن ذلك قوله ﷺ: " **من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً فى الجنة كلما غدا أو راح** " [3]، وهنا التناغم جاء من الارتباط والتلاحم بين كلمات الحديث، فالكلمات فى ذاتها متناسبة ومتقاربة، وهذا التناسب بين الكلمات يترتب عليه تناسب العبارات مما يعطى الكلام هذه الموسيقى الداخلية والتى نحس بها كلما كررنا الحديث ورددناه حيث نجده يدخل إلى الأذن دخول المأنوس بلا استئذان.

ومن ذلك قوله ﷺ: " **من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والأخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه. ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه** " [4] ماأروع هذا الحديث، وما أرق موسيقاه الداخلية، وما أشد التلاحم بين أجزائه، إنك حين تقرأه تشعر

---

(1) ينظر البيان النبوى ص 250,249

(2) ينظر الحديث النبوى مصطلحه وبلاغته وكتبه ص 79,78

(3) متفق عليه من حديث أبى هريرة. نزهة المتقين 123/1

(1) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة. نزهة المتقين 211/1

أنك تطوف فى رياض نضرة مزينة بالورود، وأنت تسير فى رحابها فى هدوء وسكينة، فمعانى هذا الحديث يضيق المقام عن بسطها وتفصيلها، وألفاظه عليها مسحة من الرقة والتناغم والتلاحم فيما بينها، وخذ مثلاً قوله ﷺ: " **ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة** " ترى وأنت تقرأ وتردد هذا الجزء من الحديث كأنك ترافق هذا السالك، وتأمل فى اختياره للفعل "**سلك** " دون مشى أو نحو ذلك، وكذلك الفعل " **يلتمس** " بصيغة المضارع دون يطلب أو يحصل أو نحو ذلك وكذلك الفعل " **سهل** "، إن هذه الأفعال برقتها وعذوبتها مما يناسب هذا الموقف وهذه الحال حال طالب العلم، وما يتطلبه العلم من تحمل ومثابرة، و هى برقتها تبين الرفق والتمهل والتريث فى الطلب، وعدم التعجل مع التزام الهدوء والسكينة والتأنى فى الطلب والتحصيل وهى من الصفات والأخلاق التى يجب أن يتحلى بها طالب العلم. وخذ مثلاً آخر من نفس الحديث، هو قوله ﷺ: " **وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله...** " إلخ تشعر وأنت تقرأ هذه الفقرة من الحديث كأنك فى محراب العلم، وقد نزلت عليك السكينة، وغشيتك الرحمة...، إن ألفاظ الحديث بعذوبتها تنساب على اللسان وتدخل إلى الأذن بلا استئذان، وفيها من التلاحم والتناغم ما فيها، ولقد ختم هذا الحديث بعبارة مسجعة، وهى قوله ﷺ: " **ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه** " وحين نقرن ونربط بين الفقرتين الأخيرتين وبين سائر الحديث نلمح اختلافاً فى التناغم والموسيقى الداخلية **فالموسيقى فى الحديث جاءت من الألفاظ والتئامها والتحامها وترابطها ورقتها وعذوبتها** . وفى آخر الحديث جاءت الموسيقى من خلال السجع والاتفاق فى القافية بين " **عمله، ونسبه** "، ولا شك أن اختلاف المعنى هو الذى تطلب اختلاف الفاصلتين عما قبلهما ويتضح ذلك من خلال النظر فى معانى الحديث. فالحديث من أوله يدعو إلى تنفيس الكرب عن المكروب، والتيسير على المعسر، والستر على المسلم، ومعاونة العباد، وسلوك طريق العلم، والحض على طلبه، وحضور مجالس الذكر، وكلها مما رغب فيه الدين ودعا إليه من من مكارم الأخلاق. أما نهاية الحديث فمختلفة لأنها تقرر أمراً آخر، وهو أن من قصر فى العمل لم ولن ينفعه النسب، وهو معنى آخر غير المعانى السابقة، وهو ما تطلب اختلاف الفاصلة مع السجع والمطابقة بين " **بطأ، ويسرع** " [1]

ومن ذلك قوله ﷺ: " ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس " [2]، وموسيقى هذا الحديث رقيقة، والصلة بين ألفاظه ومعانيه واضحة، فالزهد فى الدنيا من

---

(1) وقد مضى بيان اتفاق الفاصلتين فى القافية فى قوله: " عمله، ونسبه "

(2) أخرجه ابن ماجة وغيره من حديث سهل بن سعد بأسانيد حسنة. نزهة المتقين 356/1

الأخلاق التى تتطلب شفافية النفس ورقتها، وعذوفها عن متع الدنيا، وهذا ما يناسبه موسيقى الألفاظ فى الحديث برقتها وتدفقها مع ما فيها من تناغم نلمحه حين نقرأ و نردد هذا الحديث.

ومن هذه الموسيقى الداخلية ما جاء فى الدعاء والابتهال إلى الله عز وجل، ومن ذلك قوله ﷺ: " **لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحينى ما كنت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى** " [1] فقوله: " **اللهم أحينى...** " إلخ نلمح أن ألفاظه تنساب على اللسان انسياباً يناسب حال هذا المبتلى مع الهدوء والسكينة اللذين يعتريانه، وهذه الألفاظ بتناغمها تعبر عن حال هذا المبتلى أدق تعبير.

كذلك قوله ﷺ فى ركوعه وسجوده: " **سبوح قدوس، رب الملائكة والروح** " [2]، وما أروع أن تربط بين موسيقى هذا الحديث وتناغمه، وبين حال هذا الساجد الخاشع القانت لله. وهذا غيض من فيض مما يزخر به البيان النبوى، وهذه الموسيقى النثرية مما يكثر فى أحاديث الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل.

وإذا كنا بصدد الحديث عن البعد عن التكلف فى البيان النبوى، وقد اتضح لنا ذلك من خلال السجع، والتوازن، والموسيقى النثرية أتم الحديث فى هذا الموضوع بذكر نماذج للطباق، والمقابلة، والجناس من البديع المعنوى واللفظى ليتضح لنا أن الفنون البديعية فى البيان النبوى مما جاء على سمت الاعتدال مع البعد كل البعد عن التكلف، ومناسبة المقام، بل جاء لأن المقام يتطلبه، والمعنى يطلبه.

الطباق والمقابلة ومعناهما :

الطباق فى اللغة : الجمع بين الشيئين. يقولون: طابق فلان بين ثوبين، ثم استعمل فى غير ذلك، وهو راجع إلى الجمع بين الشيئين. وقد أجمع الناس على أن المطابقة فى الكلام هو الجمع بين الشئ وضده فى جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة مثل الجمع بين البياض والسواد...، والليل والنهار...، والحر والبرد... " [3]

وله أقسام عند البلاغيين من علماء البديع يأتى ذكرها أثناء التحليل والتطبيق على الأحاديث.

---

(3) متفق عليه من حديث أنس. مشكاة المصابيح ح (1600) 339/3, و نزهة المتقين 428/1

(4) أخرجه مسلم من حديث عائشة. نزهة المتقين 213/2

(1) انظر الصناعتين ص 339, والعمدة 5/2

أما عن المقابلة:

فهى أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم ما يقابل ذلك على الترتيب وأكثر ما تجئ المقابلة فى الأضداد [1]، وقد تكون فى غير الأضداد، ولكنها بالأضداد أعلى رتبة وأعظم موقعاً [2] وللمقابلة أنواع يأتى الحديث عنها فى التطبيق على الأحاديث.

أما عن الطباق: فمنه قوله ﷺ: " **اللهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا. وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا** " [3]، والطباق هنا من طباق الإيجاب الذى صرح فيه بإظهار الضدين، ولم يختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً، وقد جاء الطباق هنا بين الأسماء، وهو ما يناسب المعنى والغرض، فهذا الدعاء كان رسول الله ﷺ يقوله إذا صلى على الجنازة، فأراد أن يجمع فى ظل هذا الموقف فى طلب الرحمة والمغفرة للحى والميت، والشاهد والغائب، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، والطباق بما فيه من تضاد يجمع بين هذه المعانى، فالأمر ليس مجرد الجمع بين ضدين فحسب.

ومن الطباق: قوله ﷺ: " **اليد العليا خير من اليد السفلى** " [4]، وهذا الحديث مجاز لأن النبى صلى اله عليه وسلم أراد باليد العليا يد المعطى، وباليد السفلى يد المستعطى، ولم يرد أن هناك عالياً وسافلاً، وصاعداً ونازلاً، وإنما أراد أن المعطى فى الرتبة فوق الآخذ، ولقد ساعد الطباق فى رسم هذه الصورة، وفى بلاغة المجاز، وذلك من خلال التضاد بين العليا والسفلى.

ومن الطباق: قوله ﷺ: " **اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت، ومن شر ما لم أعمل** " [5]

والطباق هنا من طباق السلب بين قوله: " **ما عملت، وما لم أعمل** " حيث لم يصرح فيه بإضهار الضدين، واختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً، ومصدر الفعلين واحد وهو " ا**لعمل** " فجاء الأول على الإيجاب، وجاء الثانى على السلب، وبلاغته هنا واضحة لأنه لو قال: " **من شر ما**

---

(2) ينظر العمدة 15/2

(3) أما عن الطباق فلا يكون إلا بالأضداد، ويكون بين ضدين على خلاف المقابلة. ينظر علم البديع أ. د. عبد العزيز عتيق ص 87,86

(4) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة والنسائى من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (1675) 390/3

(1) متفق عليه من حديث أبى هريرة. وأخرجه أبو داود والنسائى والدارمى. المشكاة ح (1843) 72/4

(2) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى من حديث عائشة، جامع الأصول 123/5, والمشكاة ح (2462) 208/5

عملت " فقط لدخل ما سبق من عمل الشر، ولم يدخل ما يمكن أن يعمله الإنسان من الشر فى المستقبل، وعلى ذلك تكون الاستعاذة من الشر مقصورة على عمل الماضى ولم يدخل فيها المستقبل، فأتى بقوله: " **ومن شر ما لم أعمل** " ليدخل فى الاستعاذة العمل فى مستقبل الزمان بما لا يرضاه الله، فإنه لا مأمن لأحد من مكر الله [1] فجاء الطباق هنا ليكون الدعاء جامعاً فى الاستعاذة من الشر فى الماضى والمستقبل.

ومن المقابلة: قوله ﷺ: " **البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما** " [2]، والمقابلة هنا بين " **صدقا، وبينا، وبورك لهما** " من جهة، و بين " **كتما، وكذبا، ومحقت بركة بيعهما** " من جهة أخرى ،وقد مضى أن المقابلة تكون بالأضداد وبغيرها إلا أنها بالأضداد أعلى رتبة، وأحسن موقعاً كما نلا حظها فى هذا الحديث.

ومن المقابلة: قوله ﷺ: " **إنها ستكون بعدى أثرة، وأمور تنكرونها** " قالوا: فما تأمرنا؟ قال: " **تؤدون الذى عليكم، وتسألون الذى لكم** " [3]، والمقابلة هنا بين " **تؤدون ،وعليكم** " من جهة، وبين " **تسألون، ولكم** " من جهة أخرى، ومن بلاغة المقابلة هنا أنها جمعت بين الحالين: حال أداء الحق المفروض على المسلم، وسؤال الحق الذى له، وبهذا يكون المسلم متوازناً فى حياته مراعياً للحقوق والواجبات، فليس همه أن يأخذ الذى له ويسأل عنه، وينسى الذى عليه من واجبات وحقوق، أو أن يؤدى الحق دون أن يأخذ حقه، فجاءت المقابلة لتضع توازناً وربطاً بين أداء الحق والسؤال عنه. وما أروع هذا المعنى لو عمل به المسلم فى حياته.

ومن المقابلة البديعة: قوله ﷺ: " **لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً، وتروح بطاناً** " [4]، والمقابلة هنا بين " **تغدو وتروح، وخماصاً وبطاناً** "، وهنا أيضاً ربط ما بين الحالتين: حالتى الغدو و الرواح، وحالتى الجوع والشبع، والمقابلة هنا أظهرت الحالتين: حالتى الجوع والشبع مع الأخذ بالأسباب فى الغدو والرواح، واتضح من خلالها أن الله لا يحرم من توكل عليه حق التوكل وأخذ بالأسباب، لا يحرمه المولى الكريم من فضله.

---

(3) قال تعالى: (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) (الأعراف: 99)، وقيل: " استعاذ من أن يصير معجباً بنفسه فى ترك القبائح، وسأله أن يرى ذلك من فضل الله " ينظر شرح الطيبى على المشكاة208/5

(4) متفق عليه من حديث حكيم بن حزام. نزهة المتقين 74/1

(1) متفق عليه من حديث ابن مسعود. نزهة المتقين 68/1. والأثرة: الانفراد بالشئ عما له فيه حق.

(2) أخرجه الترمذى من حديث عمر. وقال: حديث حسن. نزهة المتقين 92/1

ومن المقابلة: قوله ﷺ: " **بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً، ويمسى كافراً، ويمسى مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا** " [1]، والمقابلة هنا بين قوله: " **يصبح ويمسى، وكافراً ومؤمناً** "، ولقد جاءت فى قوله: " **يصبح الرجل** " على سبيل الاستئناف لبيان حال المشبه وهو قوله " **فتناً** " والتشبيه فى قوله: " **فتناً كقطع الليل المظلم** "، واجتماع التشبيه من البيان مع المقابلة من البديع مما زاد الحديث جمالاً وبهاءً.

ومن المقابلة: قوله ﷺ: " **التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء** " [2] فجمع بالمقابلة بين حال الرجل والمرأة فى الصلاة إذا نابهما شئ من الصلاة بأن حدث حادث فى الصلاة أو أخطأ الإمام.

ومن المقابلة: قوله ﷺ: " **إن أحب البلاد إلى الله المساجد، وأبغض البلاد إلى الأسواق** " [3]، والمقابلة هنا بين " **أحب وأبغض، والمساجد والأسواق** "، وقد مضى أن المقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد.

ومن المقابلة: قوله ﷺ: " **لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً** " [4]، والمقابلة هنا بين " **ضحكتم وبكيتم، وقليلاً وكثيراً** "

وقد يجتمع فى الحديث الواحد طباق ومقابلة: كما فى قوله ﷺ: " **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة** " [5] فالطباق هنا بين قوله " **يريبك ولا يريبك** "، وهو من طباق السلب، والمقابلة بين قوله " **الصدق والكذب، وطمأنينة وريبة** "، وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ [6]، وقوله ﷺ: " **إن الأنصار كرشى وعيبتى، وإن الناس سيكثرون سيكثرون ويقلون، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم** " [7]

والطباق هنا بين " **سيكثرون ويقلون** "، والمقابلة بين سائر الحديث.

---

(3) أخرجه أحمد ومسلم والترمذى من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (5383) 54,53/10

(1) متفق عليه من حديث سهل بن سعد. جامع الأصول 328/6

(2) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة. جامع الأصول 374/1

(3) أخرجه البخارى والترمذى من حديث أبى هريرة. جامع الأصول 419/4

(4) أخرجه الترمذى من حديث الحسن بن على، وقال الترمذى: حسن صحيح. نزهة المتقين 71/1

(5) يراجع شرحه وتفصيله فى جامع العلوم والحكم لابن رجب.

(6) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى من حديث أنس. جامع الأصول 107/10

وهذا غيض من فيض مما يزخر به البيان النبوى من الأحاديث المشتملة على الطباق والمقابلة من فنون البديع المعنوى، وكلها جاءت فى مواضعها الدقيقة لخدمة المعنى، وبعدت **عن التكلف، فالمعنى هو الذى يطلبها لتوضيحه وبيانه وكماله، وهذا من أسرار جمالها.**

وأذكر هنا بعض أحاديث المقابلة الأخرى تاركاً للقارئ أن يتأمل فى بلاغتها، وحسن موقعها فى البيان النبوى، وأسرار جمالها.

قال رسول الله ﷺ: " **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها و تمنى على الله الأمانى** " [1]، وقال: " **خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها** " [2]، وقال: " **شر الطعام طعام الوليمة، يمنعها من يأتيها، ويدعى إليها من يأباها، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله** " [3]، وقال: " **ما ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً** " [4]، وقال ﷺ فى الأنصار: " **لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله** " [5]، وقال: " **إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين** " [6]، وقال: " **اذكروا اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساويهم** " [7]، وقال : " **إنما يغسل من بول الأنثى، وينضح من بول الذكر** " [8] وقال: " **من تطهر فى بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة**"[9].

ويلاحظ من خلال الأحاديث التى سبق التطبيق عليها، والأحاديث التى ذكرتها على سبيل المثال لمن أراد التوسع يلاحظ اختلاف الموضوع فى كل حديث من هذه الأحاديث، ويستخلص

---

(1) أخرجه الترمذى من حديث شداد بن أوس. وقال: حديث حسن. نزهة المتقين 82/1

(2) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث أبى هريرة. جامع الأصول 392/6, والمشكاة ح (1092)

(3) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة. نزهة المتقين 227/1

(4) متفق عليه من حديث أبى هريرة. نزهة المتقين 243/1

(5) متفق عليه من حديث البراء بن عازب. نزهة المتقين 294/1

(6) متفق عليه من حديث أبى هريرة. نزهة المتقين 116/2

(7) أخرجه أبو داود والترمذى من حديث ابن عمر. المشكاة ح (1678) 391/3

(8) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة من حديث لبابة بنت الحارث. المشكاة ح (501) 136/2

(9) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة. جامع الأصول 255/10

من ذلك أن المطابقة والتقابل فى بيانه ﷺ لم يتقيدا بموضوع معين بل إنهما يأتيان لتوضيح المعنى فى كل موضع وموضوع يتطلبهما.

والحديث عن دقة الألفاظ هنا حديث يطول، وأترك للقارئ أن يتأمل فى هذه الأمثلة وغيرها من البيان النبوى لأنتقل إلى الحديث عن فن آخر من فنون البديع اللفظى فى الحديث النبوى وهو فن " **الجناس**".

الجناس [1]: هذا الفن من فنون البديع اللفظى واسع متشعب المسائل، ونتيجة لذلك فإن وضع تعريف له يجمع شتاته من الصعوبة بمكان، ولقد اكتفى البلاغيون بوضع تصور أو ضابط لنوع من أنواعه مما أدى إلى كثرة هذه التعريفات مع ما فيها من قصور، **ويفهم من كلام القدماء أن الجناس عندهم: اتحاد طرفيه وتشابههما فى الصورة والتلفظ مع اختلاف المعنى** [2] **فاللفظ فيه واحد والمعنى مختلف، وينقسم إلى جناس تام، وغير تام.**

وهذا الفن من فنون البديع اللفظى له أمثلة مشهورة فى الحديث النبوى ينقلها اللاحق عن السابق، مثل قوله ﷺ: " **الظلم ظلمات يوم القيامة** " [3]، وقوله: " **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده...** " [4]، وقوله: " **غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله، وعصية عصت الله ورسوله** " [5]، وقوله: " **الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة...**" [6]

وهذه الأحاديث وغيرها مما يدور فى كتب البلاغة مثل: البديع لابن المعتز ت (296) و هو من أوائل من فطنوا إلى هذا الفن، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ت (327)، والصناعتين لأبى

---

(1) من العلماء من يسمى هذا الفن من فنون البديع اللفظى تجنيساً، ومنهم من يسميه مجانساً، ومن يسميه جناساً، أسماء مختلفة والمسمى واحد؛ وسبب هذه التسمية راجع إلى أن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد. والجنس: أصل كل شئ تتفرع منه أنواعه وتعود كلها إليه كالإنسان: وهو جنس وأنواعه: عربى، ورومى، وزنجى. ينظر العمدة 33/1, والمثل السائر ص 153

(2) انظر الصناعتين ص 353, والعمدة 321/1, وسر الفصاحة ص 193, والمثل السائر ص 153, وانظر لبعض العصريين الفنون البديعية فى دائرة البحث البلاغى ص190 أ.د. فوزى السيد، البديع المصطلح والقيمة ص 115- 129 أ.د. عبد الواحد علام، والبديع من المعانى والألفاظ ص 102 أ.د. عبد العظيم المطعنى, وعلم البديع ص 196,195 أ.د. عبد العزيز عتيق.

(3) متفق عليه من حديث ابن عمر. المشكاة ح (5123) 301/9

(4) متفق عليه من حديث ابن عمر.المشكاة ح (6) 111/1

(5) متفق عليه من حديث ابن عمر. المشكاة ح (5984) 197/11

(6) أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله. المشكاة ح (3867) 379/7

هلال العسكرى ت (395)، والعمدة لابن رشيق القيروانى ت (456)، وسرالفصاحة لابن سنان الخفاجى ت (466)، وأسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ت (471) ،والمثل السائر لابن الأثير ضياء الدين ت (637) والخطيب القزوينى ت (739) [1]

وغيرهم إلى يومنا هذا [2]

ويضاف إلى هذه الأحاديث التى ذكرها البلاغيون بعض الأحاديث الأخرى التى يسر الله لى الوقوف عليها فى كتب الحديث ،ولم أر أحداً من البلاغيين ذكرها أو أشار إليها فيما وقفت عليه من كتب البلاغة، وهى قوله ﷺ: " **إنما الماء من الماء** " [3]، والجناس هنا بين " **الماء والماء** " فالماء الأول: هوالغسول الذى يغتسل به. والماء الثانى: هو المنى. والمعنى: وجوب الاغتسال بالماء من أجل خروج الماء الدافق، وقد صح أن هذا الحديث منسوخ، وما يعنينا هنا هو المجانسة بين اللفظين. والجناس هنا من الجناس التام المماثل بين اسمين: وهو ما كان ركناه من نوع واحد من أنواع الكلمة، وقد اتفق اللفظان فى أنواع الحروف، وعددها، وهيئتها، وترتيبها [4]

ومن الجناس غيرالتام: وهو ما اختلف فيه اللفظان فى واحد من الأمور الأربعة السابقة، وهى أنواع الحروف، وعددها، وهيئتها الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيبها.

---

(7) انظر على الترتيب البديع ص 25, ونقدالشعر ص 162, والصناعتين ص 356,355, والعمدة 321/1, وأسرار البلاغة ص 9, والمثل السائر ص 156,153, والإيضاح 71/4-73

(1) ومن الأحاديث التى ذكروها أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: " اللهم حسنت خلقى فأحسن خلقى " أخرجه أحمد من حديث عائشة و هو فى المشكاة ح (5099)، و قوله صلى الله عليه وسلم: " اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى..." أخرجه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد وأبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث ابن عمر. المشكاة ح (2397)

(2) أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد. المشكاة ح (431) 92/2

(3) وهذا هو تعريف الجناس التام. ومن أمثلة هذا النوع من الجناس فى القرآن: قوله تعالى: (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة...) (الروم: 55) فالساعة الأولى: يوم القيامة. والساعة الثانية: مطلق الوقت أو اللحظة القصيرة من الزمن. وليس لهذا النوع (وهو الجناس الاسمى) شواهد أخرى فى القرآن سوى هذه الآية كما يرى ابن الأثير. وذكر السيوطى أن شيخ الإسلام ابن حجر استنبط موضعاً آخر منه فى القرآن وهو قوله تعالى: (... يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار * يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) (النور: 44,43) فالأبصار الأولى: بمعنى البصر. والأبصار الثانية: بمعنى البصائر. وعلى هذا فالجناس بينهما تام مماثل. راجع المثل السائر ص 153, والإيضاح 4/ 66 والإتقان 91/2

فمن الأول وهو ما اختلف فيه اللفظان فى أنواع الحروف: ما رواه حكيم بن حزام أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيت أموراً كنت أتحنث بها فى الجاهلية هل لى فيها من شئ؟ فقال: " **أسلمت على ما أسلفت من خير** " [1]

والجناس هنا بين قوله: " **أسلمت وأسلفت** "، وهو من **الجناس المضارع** الذى اختلف فيه اللفظان فى أنواع الحروف، والاختلاف هنا بين حرفين متقاربين فى وسط الكلمتين، وهما " **الميم** " فى الأول، و " **الفاء** " فى الثانى، ولم يقع الاختلاف فى أكثر من حرف، وهذا مما اشترطه البلاغيون فى الجناس المضارع [2]

ومن الجناس الذى اختلف فيه اللفظان فى أعداد الحروف : قوله ﷺ فى عمار رضى الله عنه: " **ائذنوا له، مرحباً بالطيب المُطيب** " [3]

والجناس هنا بين " **الطيب والمطيب** "، والزيادة هنا جاءت فى اللفظة الثانية حيث زيدت الميم فى أول اللفظ مع الاتفاق فى سائر الحروف، وهذا النوع من الجناس يسمى **بالجناس الناقص**، والزيادة فيه قد تكون فى أحد اللفظين بحرف واحد فى أول اللفظ أو فى الوسط أو فى الآخر، وقد تكون الزيادة فى أحد لفظيه بأكثر من حرف واحد فى الآخر، وربما يسمى النوع الأخير مذيلاً.

ومن الجناس غير التام الذى اختلف فيه اللفظان فى هيئات الحروف الحاصلة من الحركات والسكنات: قوله ﷺ لجعفر رضى الله عنه: " **أشبهت خَلقى وخُلقى** " [4] والجناس هنا بين " خَلقى " بفتح الخاء، و" خُلقى " بضمها، وهو من الجناس المحرف الذى اتفق ركناه أى

---

(4) متفق عليه من حديث حكيم بن حزام. أخرجه البخارى –كتاب وجوب الزكاة – باب من تصدق فى الشرك ثم أسلم – ح (1404) 354/3, ولفظه عند البخارى: قلت يارسول الله أرأيت أشياء كنت أتحنث بها فى الجاهلية من صدقة وعتاقة وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال النبى: " أسلمت على ما سلف من خير " وأخرجه مسلم فى باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم 141,140/2. وموضع الشاهد فى رواية مسلم المذكورة فى أعلى الصفحة. والحديث فى اللؤلؤ والمرجان ح (77) 24/1

(1) ينظر الإيضاح 71/4

(2) أخرجه الترمذى من حديث على. وقال الترمذى: حسن صحيح. المشكاة ح (6235) 350/11. والحديث فى إسناده هانئ بن هانئ. قال المدينى: مجهول، وقال الشافعى: لا يعرف.

(3) متفق عليه من حديث البراء بن عازب. المشكاة ح (3377) 436/6

لفظاه فى عدد الحروف، وترتيبها، واختلفا فى الحركات فقط سواء أكانا اسمين أو فعلين أو اسم وفعل أو غير ذلك، فالقصد هو اختلاف الحركات [1]

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأحاديث المشتملة على الجناس فى بيانه ﷺ معدودة ومحدودة، فالجناس مما يستملح فى الكلام إذا جاء على نهج الاعتدال، وبعد عن التكلف، وقد يكون الإكثار منه فى الكلام داعية إلتى التكلف، وذلك إذا حرص المتكلم على أن يتحرى التجنيس فى كلامه، فرب معنى زينه الجناس فى موضع وقبحه فى موضع آخر، وهذا ماأشار إليه الإمام عبد القاهر وغيره [2] من البلاغيين ،يقول ابن سنا ن الخفاجى: " وهذا (أى الجناس) إنما يحسن فى بعض المواضع إذا كان قليلاً غير متكلف ولا مقصوداً فى نفسه"[3]

ويقول الإمام عبد القاهر: " أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجمع بينهما مرمى بعيداً، فقد تبين لنا أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن، ولذلك ذم الإكثار منه والولوع به وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعانى، والمصرفة فى حكمها، وكانت المعانى هى المالكة سياستها المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشئ عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين... " [4]

---

(4) ومن أمثلة هذا النوع من القرآن: قوله تعالى: (ولقد أرسلنا فيهم منذرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) (الصافات: 73,72) فاللفظة الأولى " المنذرين " هم الفاعلون للإنذار وهم الرسل. واللفظة الثانية: المفعولون وهم الذين وقع عليهم الإنذار.

(1) وروى عن بعضهم أنه قال: " سمعت بعض أهل الأدب يقول: إن القليل من التجنيس يحسن الكلام، والإكثار منه يسلب الكلام بهجته. قال: ومثله مثل الخال فى الحسناء فى أنه يزيدها حسناً، فإن كثرت الخيلان حتى تستوفى جسدها كستها الوحشة وسلبتها البهجة. فكذلك الاستكثار من الجمع بين الحروف المتجانسة يوجب التنافر، فأما إذا وقع ذلك لمعاً فى الكلام فإنه يزيده حسناً وبهجة " ينظر الرسالة العسجدية فى المعانى المؤيدية ص 136 للعباس بن على بن أبى عمر الصنعانى من علماء القرن السادس الهجرى – ط الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس – (1396) هـ (1976) م.

(2) ينظر سر الفصاحة ص 193

(3) ينظر أسرار البلاغة ص 5

(4) ينظر عروس الأفراح 412/4، وأسرار البلاغة ص 5

ويقول السبكى عن الجناس : " وهو حسن ما لم يكرر" [1]

وهذا ما جاء فى البيان النبوى؛ لأن البيان النبوى إنما يسير على نهج الاعتدال، ويبعد كل البعد عن التكلف، فاستعمل البيان النبوى من فنون البديع المعنوى واللفظى ما يخدم المعنى والغرض، ويناسب السباق والسياق، ويزين الكلام، ويكون تابعاً للمعنى مع انتقاء الألفاظ. ومن هنا جاء البيان النبوى متميزاً بهذه الخصيصة " **خصيصة البعد عن التكلف** " كما رأينا فى فنون السجع، والتوازن، والطباق، والمقابلة، والجناس وغيرها. **رأيناه يضع كل فن من هذه الفنون فى موضعه المناسب بميزان دقيق.**

وحقاً ما قاله الجاحظ عن بلاغته ﷺ: "... فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة و الحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، ثم لم يسمع الناس بكلام قط هو أعم نفعاً، ولا أقصر لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ... " [2].

وأختم هنا بما ذكره بعض البلاغيين حول **فائدة الجناس**، يقول السبكى: " ولم أر من ذكر فائدته، وخطر لى أنها الميل إلى الإصغاء، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاءً إليها، ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد منه معنى آخر كان للنفس تشوف إليه " [3]

---

(1) ينظر البيان والتبيين 18,17/2

(2) ينظر عروس الأفراح 413,412/4, وأسرار البلاغة ص 5

الفصل الرابع: التصوير وضرب الأمثال

أولاً : المعنى اللغوى للتمثيل وتطوره: " كلمة " مثل " من المثول: وهو الانتصاب، والممثل: المصور على مثال غيره. يقال: مثل الشئ إذا انتصب وتصور، ومنه الحديث " **من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار** " [1]، والتمثال: المصور، وقالوا: الماثل من الأضداد يكون للمنتصب واللاطئ بالأرض " [2] فأصله الأول ما ذكر ثم استعمل بمعنى النظير، ويقال: مَثل بفتحتين، ومثل بكسر فسكون، ومثيل كقتيل بمعنى، وقال الميدانى: سمع فعل وفعل وفعيل بمعنى فى ثلاثة أحرف: شبه، ومثل، وبدل لا غير، وقد يكون بمعنى الصفة. واستعمل فى القول السائرالممثل مضربه بمورده، والمراد بالسائر الشائع المشهور على الألسنة، وهو مجاز مشهور فيه صار كالحقيقة، وحقيقته قطع المسافة، فشبه تداول الألسنة بتنقل الأمكنة. والمضرب: بفتح الميم وكسر الراء، ويجوز فتحها اسم مكان، والمراد به الموضع الذى استعمل فيه بعد استعمال قائله الأول. والمورد بالكسر لا غير: الموضع الذى ورد فيه، أى أول استعمالاته فيه ، وسيأتى أن له معنى آخر وهو المعنى الوضعى...، والمثل: هو المجاز المركب والاستعارةالتمثيلية الشائعة فى الاستعمال، فلا تسمى الاستعارة المركبة أو مطلقاً، ولا التشبيه مطلقاً، ولا معنى اللفظ الحقيقى مثلاً عندهم على ما قرره شراح التلخيص والمفتاح، وكافة أهل المعانى، واتفقت كلمة الشروح عليه هنا أيضاً، وهذا إذا سلم وأخذ على ظاهره لا غبار عليه. وأمثال العرب أفردها المتقدمون بالتأليف [3]، **ولقد ذكر النظام أن المثل تجتمع فيه أربعة أمور لا تجتمع فى غيره: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة. فالحاصل أنه يشترط فى المثل أن يكون كلاماً بليغاً مشهوراً لحسنه أولاً لاشتماله على حكمة بالغة** (4)

ثانياً: أهمية التمثيل وأثره فى توضيح المعانى: لا شك أن التمثيل له أكبر الأثر فى التعليم والتوضيح والتوجيه، وفى تصوير الأمور العقلية فى صورة حسية، وهذا مما يساعد على ترسيخ المعانى وتثبيتها فى النفوس، وسيأتى بمشيئة الله بعد ذلك بيان أسباب تأثير التمثيل.

---

(1) أخرجه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد وأبو داود والترمذى من حديث معاوية. المشكاة ح (4699) 51/9

(2) ينظر المفردات للراغب الأصفهانى، ومختار الصحاح، والمعجم الوسيط مادة " مثل "، وشرح الطيبى على المشكاة 51/9

(3) ولقد صنفوا فيها تصانيف جليلة المقدار كأمثال أبى عبيدة، والميدانى، وابن حبيب، والزمخشرى، وابن قتيبة، وابن الأنبارى، وأبى هلال. (4) ينظر الكشاف 109/1, وحاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى 365 -363/1

وعن أهمية ضرب الأمثال يقول الزمخشرى : " ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيات المعانى، ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل فى صورة المتحقق، والمتوهم فى معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبى، ولأمر ما أكثر الله فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثاله، وفشت فى كلام رسوله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء قال تعالى: ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**) (العنكبوت: 43)، ومن سور الإنجيل سورة الأمثال. والمثل فى كلامهم بمعنى: المثل وهو النظير. يقال: مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده: مثل. ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتسيير والتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثم حوفظ عليه وحمى من التغيير " [1]، والأمثال بما فيها من حكمة وبلاغة وتشبيه وتصوير إنما يقصد منها الاعتبار والاستدلال بالنظير على النظير و فى ذلك يقول ابن القيم: " قالوا: قد ضرب الله سبحانه الأمثال وصرفها قدراً وشرعاً، ويقظة ومناماً ودل عباده على الاعتبار بذلك، وعبورهم من الشئ إلى نظيره، واستدلالهم بالنظير على النظير، بل هذا أهل عبارة الرؤيا التى هى جزء من أجزاء النبوة، ونوع من أنواع الوحى فإنها مبنية على القياس والتمثيل واعتبار المعقول بالمحسوس " [2]

ثالثاً: عناية النبى ﷺ بالتمثيل والتصوير: استعان النبى ﷺ فى قيامه بمهمة التبليغ التى كلفه الله بها بشتى أساليب الإيضاح والتعليم، وفى الذروة من تلك الأساليب يأتى أسلوب " **ضرب الأمثال** "، وضرب الأمثال فى البيان النبوى لم يأتِ لغاية فنية بحتة كغاية الأدباء فى تزيين الكلام وتحسينه، وإنما جاء لهدف أسمى، وهو إبراز المعانى فى صورة مجسمة لتوضيح الغامض، وتقريب البعيد، وإظهار المعقول فى صورة المحسوس، كما أن ضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية يحث النفوس على فعل الخير، ويحضها على البر، ويدفعها إلى الفضيلة، ويمنعها عن المعصية والإثم، وهو فى نفس الوقت يربى العقل على التفكير الصحيح، والقياس المنطقى السليم، لأجل ذلك ضرب النبى طائفة من الأمثال فى قضايا مختلفة، وفى مواطن متعددة. ولما كان الهدف من ضرب الأمثال هو إدراك المعانى الذهنية المجردة وتقريبها من العقل، وتكوين صورة لهذا المعنى فى المخيلة ليكون التأثير بتلك الصورة أشد وأقوى من الأفكار المجردة كثر الاعتماد على هذا الأسلوب فى القرآن. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر: 27) حتى ضربت فيه الأمثال ببعض الأشياء التافهة كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ

(1) ينظر الكشاف 109/1

(2) ينظر إعلام الموقعين 72/1

مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ...﴾ (البقرة: 26) والرسول كان يمر بآيات الأمثال المضروبة للناس ويجد أثرها فى الرد والتحدى، والترغيب والترهيب، وكان يعرف دور المثل ومكانته عند قومه، فلا غرابة إذاً أن يحظى المثل باهتمامه ﷺ ما دام وسيلة من الوسائل التى تعينه على أداء هذه المهمة.

والمتأمل فى الأمثال النبوية يجد التنويع صفة ظاهرة فيها، فقد نوع رسول فى الممثل، وضارب المثل نفسه، فتارة يسند ضرب المثل إلى نفسه كما فى حديث البخارى الذى مثل فيه لحاله مع الانبياء قبله [1]، وتارة يسند ضرب المثل إلى الله [2]، وتارة يسند ضرب المثل للملائكة [3] كما فى حديث البخارى فى قصة الملائكة الذين جاءوا إلى النبى ﷺ وهو نائم، والشاهد فيه أنهم قالوا: " إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً و فضربوا مثلاً لحاله مع أمته، ونوع كذلك فى موضوع المثل والغرض الذى سيق لأجله ،

فضرب المثل فى موضوعات متعددة ولأغراض شتى من أمور العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والزهد، والعلم، والدعوة، وفضائل الأعمال، والترغيب والترهيب، وغير ذلك. ونوع كذلك فى أسلوب العرض وطريقة ضرب المثل، فاتخذ لضربه طرقاً متعددة، وأساليب مختلفة، وسلك فى ذلك كل ما من شأنه إيضاح المراد وإبرازه ماثلاً أمام الأعين، فمن ذلك استخدامه للإشارة التى تلفت أنظار السامعين، وتعينهم على الفهم، وفيها يشترك أكثر من حاسة فى العملية التعليمية، فالناظر يرى الإشارة ويسمع العبارة، فيكون ذلك أدعى للتذكر كما فى البخارى فى حديث الإشارة بالإصبع إلى قرب الساعة، ومن ذلك استعانته بالرسم التوضيحى كوسيلة من وسائل التعليم والإيضاح عندما تحدث عن قضية اتباع سبيل الله وصراطه المستقيم، والتحذير من سبل الشيطان الأخرى.

---

(1) وهو قوله صلى الله عليه وسلم: " إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال: " فأنا اللبنة، وأنا خاتم المرسلين " والحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة. وانظره فى المشكاة ح (5745) 353/10

(2) كما فى قوله صلى الله عليه وسلم: " ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة... " الحديث. أخرجه أحمد والترمذى من حديث ابن مسعود. وانظره فى المشكاة ح (191) 383/1

(3) كما فى حديث جابر رضى الله عنه قال: جاءت الملائكة إلى النبى صلى الله عليه وهو نائم، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً. قال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعى دخل الدار... " الحديث. أخرجه البخارى من حديث جابر. المشكاة ح (144) 328/1

وقد حرص النبى ﷺ على ضرب المثل فى الأحداث والمواقف المتعددة لأهداف تربوية، ففى بعض المواقف كان يكفيه ﷺ أن يرد رداً مباشراً لكنه آثر ضرب المثل لما يحمله من توجيه تربوى، وسرعة فى إيصال المعنى المراد، وقد لا يؤدى غيره دوره فى هذا المقام، فيراه الصحابة مرة نائماً على حصير وقد أثر فى جنبه فيقولون له: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فيقول: "**مالى وللدنيا؟، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها** " [1] و حتى المشاهد التى تمر فى حياة الناس فلا يلتفتون إليها، ولا يلقون لها بالاً يجد الرسول فيها أداة مناسبة للتوجيه والتعليم، وضرب الأمثال بها، يمر ومعه الصحابة على سخلة منبوذة فيقول لهم: " **أترون هذه هانت على أهلها؟** فيقولون: يا رسول الله من هوانها على أهلها ألقوها، فيقول: " **فوالذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها** " [2].

وبعد هذه المقدمة الموجزة حول معنى المثل وتطوره، وأثره فى توضيح المعانى، وبيان عناية البيان النبوى بالتمثيل والتصوير **أنتقل إلى المعين الصافى، والمنهل العذب المورود لنقف على روائع التمثيل النبوى**، ومدى دقة التصوير فيه، والسر فى براعته وجماله فى كل موضع جاء فيه. **ولنأخذ مثلاً لأثر الصلاة فى محو الذنوب والخطايا** ، قال رسول الله ﷺ: " **أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً، هل يبقى من درنه شئ؟** قالوا: لا يبقى من درنه شئ. قال: " **فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا** " [3]

ما أروع هذا التمثيل، وما أقربه من الواقع، إن النبى ﷺ يتحدث عن أثر الصلاة فى محو الذنوب، وأراد أن يوضح ما تتركه الصلاة من أثر فى عمل الإنسان، وما ينتج عنها من مغفرة، فأخذ صورة من الواقع، وهى صورة النهر الجارى أمام بيت المرء وهو يغتسل فى هذا النهر خمس مرات كل يوم، إن التصوير هنا جاء بماء النهر فى عذوبته وجريانه وصفائه، فهو ماء متجدد يغتسل فيه المرء، فإذا اغتسل الإنسان بهذا الماء العذب الصافى المتجدد لا يبقى من أثر الأوساخ فى بدنه شئ، ومن هنا ذكر ماء النهر دون غيره نظراً لعذوبته ونقائه، فالماء المالح إذ اغتسل به الإنسان قد يترك فى جسمه آثاراً بسبب ملوحته، أما هذا الماء العذب فكله منافع ولا ضرر فيه بحال من الأحوال، فهو للشرب والاغتسال وسائر وجوه الانتفاع. وكذلك الصلوات الخمس تمحو الخطايا والذنوب، والربط هنا ما بين الصورة الحسية، وهى الاغتسال للطهارة والنظافة، والصورة المعنوية،

---

(1) أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجة من حديث ابن مسعود. وانظره فى المشكاة ح (5188) 351/9

(2) سبق تخريج حديث صحيح فى معناه فى الفصل الاول من الباب الثالث عند الحديث عن التصوير التعليمى من طرق الأداء فى الحديث النبوى، والحديث المذكور هنا أخرجه أحمد.

(1) متفق عليه من حديث أبى هريرة. وانظره فى مشكاة المصابيح ح (565) 172/2

وهى الطهارة من الذنوب والآثام الحاصلة بالصلاة مما أكسب التمثيل جمالاً وواقعية وبهاءً. والصورة هنا صورة مركبة، فالتمثيل ضرب من ضروب التشبيه ،فالتشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً[1]، وقد سلك النبى ﷺ سبيل التمثيل هنا لأن التمثيل يكسو المعانى أبهة، ويكسبها منقبة، ويرفع من أقدارها، ويشب من نارها، ويستثير لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفاً، ومحبة وشغفاً، ولأن للتمثيل من الأثر فى توضيح المعقول بالمحسوس ما سبق ذكره.

ومن روائع التصوير والتمثيل: قوله ﷺ: " **إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى، وإنى أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء. فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا. وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به، ومن عصانى، وكذب ما جئت به من الحق** " [2]

فى هذا الحديث صور النبى لذاته وبعثته بصورة من الواقع يضرب بها الناس المثل لشدة الأمر، فالنبى ﷺ بعث فى وقت كانت فيه البشرية غارقة فى أوحال الكفر والإلحاد، والشرك ضارب بأطنابه فى شبه الجزيرة العربية خاصة، وفى أنحاء الأرض عامة، فرسالته من الأهمية بمكان لإنقاذ البشرية من العذاب والهلاك فى الدنيا والآخرة، ولشدة الامر، وبيان مكانة رسالته ﷺ ضرب المثل بصورة يعرفها الناس من واقعهم، وهى صورة " **النذير العريان** ". والنذير العريان مثل سائر يضرب لشدة الأمر ودنو المحذور وبراءة المحذر من التهمة [3] وقد أكمل الصورة بقوله : " **فالنجاء النجاء** " بالمد

---

(2) ينظر أسرار البلاغة ص 75. والتشبيه التمثيلى: ما كان وجه الشبه فيه وصفاً مركباً منتزعاً من متعدد أمرين أو أمور بمعنى أن يكون وجهه مركباً مطلقاً. وهذا مذهب الخطيب والجمهور، فلا فرق عندهم بين الوجه الحقيقى وغيره، وهو عند عبد القاهر: ما كان وجهه غير حقيقى ولو كان مفرداً، وعند الزمخشرى يرادف التشبيه. ينظر الإيضاح 50/3, وبغية الإيضاح 50/3

(1) متفق عليه من حديث أبى موسى. وانظره فى المشكاة ح (148) 334/1

(2) وأصله أن الرجل إذا رأى العدو قد هجم على قومه، وأراد أن يفاجئهم، وكان يخشى لحوقهم عند لحوقه تجرد عن ثوبه وجعله على رأس خشبة، وصاح ليأخذوا حذرهم ويستعدوا قبل لحوقهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم، وهو طليعتهم ورقيبهم. قالوا: وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظراً، فهو أبلغ فى استحثاثهم فى التأهب للعدو. وقيل: معناه: أنا الذير العريان الذى أدركنى جيش العدو فأخذ ثيابى، فأنا أنذركم عرياناً. ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 48/15, وشرح الطيبى على المشكاة 335/1

[1] أى انجوا النجاء أو على الإغراء، ثم بين من خلال هذه اللوحة التصويرية موقف الناس إزاء هذا النذير العريان. هل صدقوه أم كذبوه؟ لقد صدقته طائفة وأطاعته، وساروا فى آخر الليل على مهل فى سكون وطمأنينة نفس، واستقرار روحى، وسعادة فى الآخرة، ونجاة من العذاب، وذلك حيث يقول تعالى: ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون**) (الأنعام: 82)، إن تصوير نجاتهم من العدو بسيرهم فى هدأة الليل فيما يبدو لى يصور خروج الناس من بيداء الجاهلية وظلامها إلى نور الهدى والرشاد، وهذا السير إنما كان على مهل، وكذلك النبى ﷺ أخرجهم من الضلال إلى الهدى فى رفق ولين، ومكث ثلاث عشرة سنة يربى ويعلم، ويوجه ويرشد فما ضاق ذرعاً، أو يئس من هدايتهم!

أما من كذبوا النذير، واستهانوا بتحذيره فقد جاءهم الجيش واجتاحهم فى الصباح فأهلكهم، وهنا ملحظ فى قوله: " **فى الصباح** " فالنذير قد جاءهم فى اليوم الذى قبل يوم هلاكهم، ثم صبحهم الجيش فما أقصر الوقت بين الإنذار والإهلاك، وكذلك بالنسبة لدعوته ﷺ ما أقربها من الساعة ،وما أقصر عمر الإنسان ،فإذا كان من أنكر على النذير واستهزأ بتحذيره قد صبحه الجيش وأهلكه بعد ساعات، فكذلك حال من عصى الرسول وكذب بدعوته هلاكه قريب بدنو أجله. ثم بين النبى ﷺ أن هذا مثل من أطاعه وصدق برسالته وبما جاء به واتبعه على الهدى، ومثل من كذب به وعصاه وسلك طريق الضلال والردى. **ومن الأسرار البلاغية الأخرى فى هذا الحديث غير التمثيل**: فى قوله: " **أنا النذير**... " إلخ أنواع من التأكيد: أحدها: قوله " **بعينى** " فالرؤية لا تكون إلا بالعين، وفى ذكرالعينين أشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام قد تحقق عنده جميع ما أخبر به تحقق من رأى الشئ بعينيه لا يعتريه وهم، ولا يخالطه شك. ثانيها: قوله: " **إنى، وأنا** "، وثالثها: " **العريان** " فإنه دل على بلوغ النهاية فى قرب العدو، وفى ذلك تنبيه على أنه الذى يختص فى إنذاره بالصدق والذى لا شبهة فيه، وهو الذى يحرص جداً على خلاص قومه من الهلاك، وقال فى القرينة الأولى: " **فأطاعنى** "، وقابله فى الثانية " **يكذب** " ليؤذن بأن الإطاعة مسبوقة بالتصديق، ويشعر بأن التكذيب مستتبع للعصيان كأنه جمع فى كل من الفقرتين بين المعنيين، وإلى المعنيين أشار بقوله: " **من أطاعنى** " إلخ، وأتبع قوله " **اجتاحهم** " قوله " **أهلكهم** " إعلاماً بأنه أهلكهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد " [2]

---

(3) والنجاء بالمد: مصدر نجا إذا أسرع. يقال: ناقة ناجية أى مسرعة، ونصبه على المصدر أى انجوا النجاء، أو على الإغراء. وقال القاضى: المعروف فى النجاء إذا أفرد المد، وحكى أبو زيد فيه القصر أيضاً، فإذا ما كرروه قالوا: النجاء النجاء ففيه المد والقصر معاً. ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 49/15

(1) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 336,335/1

ومن روائع التمثيل: قوله ﷺ: " **مثلى كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها و جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقحمون فيها** " هذه رواية البخارى، ولمسلم نحوها، وقال فى آخرها: " **فذلك مثلى ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار: هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبونى تقحمون فيها** " [1] وهذا الحديث فيه معنى الحديث السابق، ولكن التصوير والتمثيل فيه مختلف، فالصورة السابقة كانت للنذير العريان مع قومه، ومنهم من أطاعه وصدقه فكتبت له النجاة ،ومنهم من عصاه وكذبه فكتب عليه الهلاك، أما هنا فالصورة صورة الرجل الذى استوقد ناراً، أى أوقدها. وعبر هنا بـ " **استوقد** " لأنه أبلغ، ويقصد بهذه النار التى عبر عنها بالإضاءة وهى فرط الإنارة [2] ما أظهره من حدود الله ببياناته الشافية من الكتاب والسنة، وقد انتشر هذا البيان فى مشارق الأرض ومغاربها، وهو ما عبر عنه بالإضاءة التى هى فرط الإنارة، ولكن الناس فى جهلهم وضلالهم وغفلتهم وانصرافهم عن هذا النور كهذا الفراش المتهافت على النار مع أن النار فيها هلاكه. فهؤلاء المعرضون عن الحق حولوا هذه النار، وهذا الضوء الذى مثل به لحدود الله وكتابه وسننه حولوه إلى سبب لهلاكهم بدلاً من أن يكون سبباً لنجاتهم، فهذه البيانات من الله ورسوله الهدف منها هدايتهم وإرشادهم ،ولكنهم بجهلهم جعلوها سبباً لهلاكهم، ولما كان المستوقد غرضه من فعله انتفاع الخلق به من الاهتداء ،والاستدفاء وغير ذلك ،والفراش بجهلها جعلته سبباً لهلاكها، كذلك كان القصد بتلك البيانات اهتداء الأمة واحتماءها عما هو سبب هلاكهم، وهم مع ذلك جعلوها موجبة لترديهم. وما أروع الاستعارة فى قوله ﷺ: " **فأنا آخذ بحجزكم** " فلقد مثل لحاله فى منعه لأمته من الهلاك بحال رجل آخذ بحجزة صاحبه الذى أوشك أن يهوى فى قعر بئر مردية " وفهم هذا التشبيه موقوف على معرفة معنى قوله تعالى: ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾ (البقرة: 229)، وذلك أن حدود الله هى محارمه ونواهيه كما ورد فى الصحيح " **ألا إن حمى الله محارمه** "، ورأس المحارم حب الدنيا وزينتها، واستيفاء لذاتها وشهواتها " [3] وما أدق التعبير النبوى فى قوله: " **جعل الفراش وهذه الدواب** " فلقد أراد بذلك تحقير شأنها، وتخصيص ذكر الدواب والفراش لا تسمى دواب فى العرف لبيان جهلها كقوله تعالى: ﴿**إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**﴾ (الأنفال: 22)، وكل ذلك تعريض لطالب الدنيا المتهالك فيها، والتعبير بـ" **الفراش**

---

(2) متفق عليه من حديث أبى هريرة. مشكاة المصابيح ح (149) 336/1

(1) واشتقاقه من الضوء: وهو ما انتشر من الأجسام النيرة. ينظر شرح الطيبى على المشكاة 336/1

(2) ينظر شرح الطيبى 338/10

والدواب" يناسبه قوله " **تقحمون فيها** " لأن التقحم: هو الإقدام والوقوع فى الأمور الشاقة من غير تثبت " [1]

ويلاحظ على هذا التمثيل النبوى والذى قبله أنه تمثيل دقيق نابع من البيئة، ويلاحظ أن ألفاظه معبرة أدق تعبير عن الصورة المقصودة، فكل لفظة فيه تناسب المعنى وتخدم المشهد المعروض لنصل من خلالها إلى لوحة تصويرية متناسبة الأجزاء كأننا نشاهدها رأى العين و وهذا التمثيل النبوى فيه نظر إلى القرآن كما سبق.

ومن روائع التمثيل النبوى قوله ﷺ: " **إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت** " [2] وهذا الحديث كسابقه فى تلاحم أجزائه، وروعة التصوير فيه، فالنبى ﷺ مثل لحال من يتعاهد القرآن، ويحافظ على تلاوته ويحذر من نسيانه بصاحب الإبل المشدودة بالعقال [3]

وهو الحبل الذى يشد فى ركبة البعير، وفى التعبير عن ذلك بـ " **الصاحب**" مع الإضافة إلى القرآن سر بلاغى؛ لأن المقصود من المصاحبة هنا: المؤالفة [4]، وهذه المؤالفة إنما تكون بالمداومة على قراءة القرآن، والنظر فى المصحف، والعيش فى رياض كتاب الله، والعمل به، وهذا هو المقصود من المصاحبة، فليس مجرد التلاوة باللسان عن ظهر قلب، بل المقصود أن هذا التالى الذى أضيف إليه القرآن وثبتت له مصاحبته أن يكون القرآن جليسه وأنيسه، ونظام حياته، كذلك صاحب الإبل المعقلة مداوم على مصاحبة إبله فى حضره وسفره، " وخص الإبل بالذكر هنا لأنها من أشد الحيوان الإنسى نفوراً، وفى تحصيلها بعد نفورها صعوبة " [5]

ويبدو لى فى تخصيص الإبل بالذكر هنا سر آخر، وهو ما كانت تمثله الإبل من مكانة فى حياة العربى، فلقد كان يحمل عليه زاده فى سفره، وتحمله، ويصحبها فى المراعى حضراً وسفراً، فهى جزء من حياته، ولذلك فهو يحرص على عقلها خشية ضياعها، وكذلك صاحب

---

(3) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 50/15

(1) متفق عليه من حديث ابن عمر. وانظره فى مشكاة المصابيح ح (2189) 329/4

(2) والمعقلة: بضم الميم وفتح العين، وتشديد القاف: أى المشدودة بالعقال، وهو الحبل الذى يشد فى ركبة البعير. ينظر فتح البارى 709/8

(3) قال القاضى: " ومعنى صاحب القرآن: أى الذى ألفه. والمصاحبة: المؤالفة، ومنه فلان صاحب فلان، وأصحاب الجنة وأصحاب النار، وأصحاب الحديث، وأصحاب الرأى، وأصحاب الصفة، وأصحاب إبل وغنم، وصاحب كنز, وصاحب عبادة. ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 77/6

(4) ينظر فتح البارى 710/8

القرآن يتعاهده لأنه جزء من حياته، وذلك خشية نسيانه، فإذا كان التعاهد موجوداً فالحفظ موجود، كما أن البعير ما دام مشدوداً بالعقال فهو محفوظ. **ومن روائع التمثيل النبوى:** قوله ﷺ: " **مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر مثل الحى والميت** " [1] وما أدق التمثيل هنا حيث شبه الذاكر لله بالحى. والمقصود بالذكر هنا ذكر اللسان بالتسبيح والتحميد والتهليل وغير ذلك، وذكرالقلب بالاستسلام والتفكر والخضوع، والاستحضار لعظمة الله فى النفس، وذكر الجوارح بالانقياد والخشوع فمن كان هذا حاله فهو من الأحياء، أما من لا يذكر الله فهو قلباً وقالباً من الأموات معنى وإن كان بين الأحياء صورة. فالحياة الحقيقية إنما هى للذاكرين، وهى حياة روحية ومادية والموت الروحى إنما هو لغير الذاكرين. وحول التمثيل فى الحديث يقول الطيبى: " شبه الذاكر بالحى الذى تزين ظاهره بنور الحياة وإشراقها فيه، وبالتصرف التام فيما يريد، وباطنه بنور العلم والفهم والإدراك، كذلك الذاكر مزين ظاهره بنور العمل والطاعة، وباطنه بنور العلم والمعرفة، فقلبه مستقر فى حظيرة القدس وسره فى مخدع الوصل، وغير الذاكر عاطل باطنه وباطل ظاهره " [2] وهنا وضع الذاكر بين الأحياء لأنه أحيا روحه بذكر الله وطاعته، وما قدمه من عمل يقوده إلى الحياة الدائمة فى الآخرة، فلقد فهم حكمة الخالق فى الخلق والحياة. أما الثانى فبغفلته وانصرافه عن ذكر الله فكأنه ميت وإن كان يسير بين الأحياء، فلا ذكر له، ولا وجود له، " وفى هذا الحديث ندب إلى ذكر الله تعالى، وأن طول العمر فى الطاعة فضيلة، وإن كان الميت ينتقل إلى خير لأن الحى يستلحق به، ويزيد عليه بما يفعله من الطاعات " [3]، ولقد قيل: إن موقع التشبيه بالحى والميت لما فى الحى من النفع لمن يواليه، والضر لمن يعاديه وليس ذلك فى الميت " [4] **ومن التمثيل النبوى الذى يدعو إلى الإنفاق فى سبيل الله** : قوله ﷺ: " **مثل الذى يتصدق عند موته أويعتق كالذى يهدى إذا شبع** " [5] والتشبيه هنا موجه إلى طائفة من الناس لم يبذلوا الصدقة فى فى أوانها، وأخروها عن وقتها حرصاً منهم على مصلحتهم، وتقديماً لأنفسهم على المحتاجين، وهو مسلك معيب لأن الدين أمر بالإيثار، وإنما يحمد الإنفاق إذا كان عن إيثار للمحتاج، وذلك كما

---

(1) أخرجه البخارى من حديث أبى موسى –كتاب الدعوات – باب فضل ذكر الله تعالى – ح (6183) 212/11, وأخرجه مسلم فى باب استحباب صلاة النافلة فى بيته وجوازها فى المسجد بلفظ: " مثل البيت الذى يذكر الله فيه، والبيت الذى لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت "68/6

(2) ينظر شرح الطيبى على المشكاة ح (2263) 390/4

(3) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 68/6

(4) ينظر فتح البارى 214/11

(5) أخرجه أحمد والنسائى والدارمى والترمذى من حديث أبى الدرداء. وقال الترمذى: حسن صحيح. مشكاة المصابيح ح (1871) 94/4

فى قوله تعالى: ﴿...وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...﴾ (الحشر: 9) فهؤلاء بتأخيرهم للصدقة عن أوانها يشبهون من تفرد بالأكل، واستأثر به لنفسه ثم إذا شبع يؤثره على غيره. وما أحسن موقع الفعل " **يهدى** " فى هذا المقام ودلالته على الاستهزاء بالمهدى.

ومن روائع التمثيل: قوله ﷺ: " **إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة ،وأنا خاتم المرسلين** "[1]، وفى رواية: " **مثلى ومثل الانبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع اللبنة** "[2] فى هذا الحديث نحن أمام وصف وتصوير يهدف إلى بيان أهمية رسالة النبى ﷺ ومكانتها بين رسالات السابقين من الأنبياء، وبيان أن دعوة الأنبياء واحدة[3]، ولنا أكثر من وقفة أمام هذا الحديث: الوقفة الأولى: عند قوله: " **مثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه** " لقد جاء التشبيه التمثيلى[4]هنا لبيان مكانة دعوة النبى ﷺ بين دعوات الأنبياء، وبيان القواسم المشتركة بين سائر الأنبياء فى رسالاتهم. فالدعوة إلى الله تعالى واحدة فى كل مكان وزمان[5]، والأنبياء إنما

---

(1) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة – باب خاتم النبيين – ح (3413) 645/6

(2) أخرجه البخارى من حديث جابر بن عبد الله – باب خاتم النبيين – ح (3412) 645/6, وأخرجه مسلم – باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين. 50/15- 52

(3) مما تجدر الإشارة إليه أن ناصح الدين بن الحنبلى ذكر هذا الحديث ضمن أقيسة النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابه أقيسة النبى صلى الله عليه وسلم ص 152,122,80

(4) يقول الطيبى: " هذا من التشبيه التمثيلى شبه الأنبياء وما بعثوا به من الهدى والعلم وإرشاد الناس إلى مكارم الأخلاق بقصر شيد بنيانه وأحسن مادته، ولكن ترك منه ما يصلحه وما يسد خلله من اللبنة. فبعث نبينا لسد ذلك الخلل مع مشاركته إياهم فى تأسيس القواعد ورفع البنيان. هذاعلى أن يكون الاستثناء منقطعاً، ويجوز أن يكون متصلاً من حيث المعنى إذ حاصل الكلام: تعجبهم المواضع إلا موضع تلك اللبنة، وليس ذلك المصلح إلا ما اختص به من معنى المحبة وحق الحقيقة الذى يعتنى به أهل العرفان. شرح الطيبى على المشكاة 354,353/10

(5) يقول تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (الأنبياء: 25)، ويقول: (إن هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (الانبياء: 92)، ويقول: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه...) (الشورى: 13) إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بأن دعوة الأنبياء واحدة، وشرائعهم مختلفة تبعاً للزمان والمكان.

بعثوا بتوحيد الله تعالى لهداية الناس وإرشادهم إلى مكارم الأخلاق، وإلى طريق الحق والعدل والخير، وكل نبي يمثل جانباً من جوانب هذه الدعوة، ولبنة من لبنات هذا البناء العظيم، ويأتى النبى بعد النبى ليكمل ما أسسه من قبله ليتم البناء، وكذلك البيت يقوم على أسس ودعائم وأركان وزوايا مترابطة، وذلك ليثبت على وجه الأرض، وبعد ذلك تأتى مرحلة التزيين والتحسين. وكذلك دعوات الأنبياء ورسالاتهم تقوم على أسس ودعائم من توحيد الله، ونبذ الشرك، وتحريم الظلم، ونشر العدل، والتوجه بالعبادة إلى الحق سبحانه. وتمثل دعوة كل نبى لبنة من اللبنات فى ركن من أركان هداية الإنسانية ليكتمل البناء بعد ذلك وتثبت دعائمه فى مواجهة أصحاب الانحراف والفساد فى الأرض.وبعد تمام البناء بتمام دعوات الأنبياء تأتى مرحلة التزيين والتحسين بالشرائع وما فيها من اليسر، ومراعاة أحوال الناس فى كل مكان وزمان، وهذا التحسين والتزيين لابد منه ،وإلا كان البناء ناقصاً، وكذلك الشرائع لابد منها وإلا لم تكتمل دعوات الأنبياء. ومن خلال هذا التصوير الدقيق يتضح لنا مدى التناسب والتناغم بين البناء وبين دعوات الأنبياء، فكما أن البيت فيه صلاح الناس فى معاشهم واستقرارهم وسكونهم، وحمايتهم من الحر والبرد [1] والأمان من الأذى، والتوارى عن أعين الناس، كذلك دعوات الأنبياء فيها الأمان فى الدنيا والصلاح والهدى ،وطمأنينة النفس، والأمان من العذاب والهلاك فى الدنيا والآخرة.لقد جاء التشبيه ببناء الدار [2] ليبين وحدة الأنبياء والأديان. والعرب من عادتها أن تمثل ما يبالغون فيه من الوثاقة والأصالة وأشباه ذلك بالبنيان. قال الله عزوجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف: 4)، وقال تعالى: ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (النازعات: 27،28) [3]

---

(1) ولقد امتن الله على عباده بهذه النعمة العظيمة فقال تعالى: (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين. والله جعل لكم مما خلق ظللاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) (النحل: 81,80)

(2) قيل فى قوله: " مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً " أن المشبه به واحد، والمشبه جماعة فكيف صح التشبيه ؟ وجوابه أنه جعل الأنبياء كرجل واحد لأنه لا يتم ما أراد من التشبيه إلا باعتبار الكل، وكذلك الدار لا تتم إلا باعتبار البنيان. ويحتمل أن يكون من التشبيه التمثيلى، وهو أن يوجد وصف من أوصاف المشبه ويشبه بمثله من أحوال المشبه به فكأنه شبه الأنبياء وما بعثوا به من إرشاد الناس ببيت أسست قواعده ورفع بنيانه، وبقى منه موضع به يتم صلاح ذلك البيت " فتح البارى 646/6

(3) وقال عبدة بن الطيب يذكر قيس بن عامر: فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تصدعا =

إن بناء البيت بحاجة إلى التماسك والتلاحم بين أركانه، وأن توضع كل لبنة فى موضعها المناسب من الزوايا والجدران، وكذلك دعوات الأنبياء كل نبى بحاجة إلى دعوة من بعده لتكتمل مسيرة الهداية مع مراعاة الشرائع لظروف المكان والزمان والحال.ونأتى إلى الوقفة الثانية عند التصوير الدقيق فى قوله ﷺ: " **فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة** " إن هذه الصورة التى تمثل نظر الناس إلى هذا البيت وطوافهم به، وتعجبهم من حسن بنائه وجمال هيئته، وإدراكهم لنقصان اللبنة فى زاوية من زوايا البيت لتمثل — فى تصورى — حيرة الناس فى الوقت الذى كانت فيه البشرية فى مسيس الحاجة إلى دعوة النبى ﷺ لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، إن البناء العظيم بحاجة إلى اللبنة الأخيرة فى الزاوية. فليست اللبنة فى جدار من الجدران، أو فى جانب من الجوانب يمكن أن يعالج محلها، لا، إن اللبنة المطلوبة فى زاوية من زوايا البناء، والزوايا مع القواعد تمثل أساس البناء، فدعوته ﷺ أساسية ومتممة لدعوات الأنبياء، فبها سيتم بناء الدين، ويكتمل حسنه وبهاؤه وجماله ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون حيث يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: 9) ويأتى بعد ذلك تمثيل الرسول لنفسه باللبنة [1] التى ستتم هذا البناء حيث يقول: " **فأنا اللبنة، وأنا خاتم المرسلين** " فما أعظم تواضعه ﷺ، إن هذه اللبنة إذا لم توضع لكان البناء غير كامل، فالبشرية جمعاء بحاجة إلى رسالته لأنه خاتم المرسلين، ولا نبى بعده، فبرسالته يكون تمام الدين حيث يقول تعالى: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِيناً﴾ (المائدة: 3) إن اللبنة المكملة والمتممة للبناء فى الزاوية لابد أن توضع فى مكانها المناسب لتسد ذلك الموضع مع مراعاة الناحية الهندسية فى ذلك، كذلك دعوته ﷺ جاءت فى وقتها المناسب ومكانها المناسب لتكمل بناء الدين الذى شيده الأنبياء من لدن نوح عليه السلام وختاماً بنبينا محمد ﷺ، كما جاءت أمته وسطاً بين الأمم [2]، وتصوير

= وقال آخر: أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا * وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا. وأكد النبى صلى الله عليه وسلم هذه الوحدة بقوله: " الأنبياء إخوة من علات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد " أخرجه مسلم. فهم ينتسبون إلى أب واحد على الرغم من اختلاف الأمهات مشيراً بهذا إلى أن الأنبياء على الرغم من اختلاف شرائعهم التطبيقية التى تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة إلههم واحد و كلهم يدعون إلى إفراده بالعبادة، ويحذرون من الشرك، وينبهون إلى أن هناك بعثاً وجنة وناراً... " ينظر أمثال الحديث ص99,98

(1) اللبنة: بفتح اللام وكسر الموحدة بعدها نون، وبكسر اللام وسكون الموحدة أيضاً: هى القطعة من الطين تعجن وتجبل وتعد للبناء. ويقال لها ما لم تحدق: لبنة فإذا أحرقت فهى آجرة. تحفة الأحوذى128/8

(1) حيث يقول تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) (البقرة: 143)

الرسول لنفسه باللبنة لا يقلل من قدره، ولا من منزلة رسالته لأن هذه اللبنة فى موضع مكمل ومتمم لركن من الأركان فى البناء، ولولاه ما اكتمل البناء، ولظلت البشرية تعانى من الضياع والانحلال [1]، ولما اكتملت رسالة السماء إلى الأرض لهداية البشرية، فسبحان من قال فى شأنه ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 107)، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة: 48) كما أن شريعته ﷺ بالنسبة إليه كاملة، والمراد هنا النظرإلى الأكمل بالنسبة إلى الشريعة المحمدية مع ما مضى من الشرائع الكاملة.

إن التصوير النبوى هنا تصوير جامع موجز بين من خلاله أن رسالة الأنبياء واحدة، وأن رسالته جزء من هذه الرسالات، وأن كل رسالة ترتبط بما قبلها، وأن رسالته خاتمة الرسالات...، فلقد اكتمل البناء، وتجلى فى ذروة الحسن والبهاء، فلا مجال للإكمال ولا للتزيين بعد رسالة خاتم النبيين، كما اكتملت الشرائع بشريعته التى جاءت باليسر لا بالعسر، واكتملت الأمم بأمته التى جاءت وسطاً بين الامم.

ومن روائع التمثيل: قوله ﷺ: " **ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض، وملء ما شئت من شئ بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد** " [2] فى هذا الحديث نحن أمام لوحة تصويرية من أروع ما يكون لحال هؤلاء المولعين بذكر الله وحمده والثناء عليه، وهم فى أشرف

---

(2) زعم ابن العربى أن اللبنة المشار إليها كانت فى أس الدار، وأنها لولا وضعها لانقضت تلك الدار. وقال: بهذا يتم المراد من التشبيه المذكور أهـ. قال ابن حجر: وهذا وإن كان منقولاً فهو حسن، وإلا فليس بلازم، نعم ظاهر السياق أن تكون اللبنة فى مكان يظهر عدم الكمال فى الدار بفقدها، وقد وقع عند مسلم " إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها " فيظهر أنها مكملة محسنة، وإلا لاستلزم أن يكون الأمر بدونها كان ناقصاً، وليس كذلك، فإن شريعة كل نبى بالنسبة إليه كاملة، فالمراد هنا النظر إلى الأكمل بالنسبة إلى الشريعة المحمدية مع ما مضى من الشرائع الكاملة. فتح البارى 646/6

(3) أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد – باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع – وأخرجه من حديث ابن عباس بلفظ " أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع لرأسه من الركوع قال: " اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض وملء ما بينهما ,وملء ما شئت من شئ بعد، أهل الثناء والمجد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد " 195,194/4

مقامات العبودية لله تعالى فى الصلاة.... ومن روائع التصوير هنا: قوله " **ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض، وملء ما شئت من شئ بعد** " [1]

وسر الجمال فى التمثيل [2] للحمد بـ " **ملء السماوات والأرض وما بينهما، وملء ما شاء الله من شئ بعد** "، وفى تخصيص الحمد بذلك دون غيره من التسبيح والتكبير والتهليل. فأما عن وصف مقدار الحمد بأنه ملء السماوات والأرض، وملء ما شاء الله من شئ بعد، فما أروعها من صورة، فالحمد ليس جسماً من الأجسام حتى يملأ الأماكن، وأى أماكن؟! إنها السماوات والأرض، وما بينهما، وما شاء الله من شئ بعد. فالمقصود تكثير هذا الحمد والمبالغة فيه، والولوع به [3]، والثناء على الله بكل ما يعلمه العبد وما لا يعلمه، وهذا التصوير لمقدار الحمد إنما يرجع إلى مقدار ما لله من نعم عند عباده...

فالمتأمل فى نعم الله عزوجل يرى أنها تملأ حياة العبد، ففى كل حركة وسكنة ما لا يخفى من النعم، ففى نفس الإنسان ملايين النعم، فإذا جئنا لما حوله وما يحيط به من نعم فى الأهل والمال، والسكن، والزرع، والماء والهواء لما أحصيناها عدداً [4]، فهى تملأ المكان والزمان ولذلك جاء

---

(1) وفى رواية ابن عباس السابقة " اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وما بينهما، وملء ما شئت من شئ بعد " الحديث، فليتأمل الفرق بين الروايتين.

(2) قال صاحب النهاية: " هذا تمثيل لأن الكلام لا يسع الأماكن والمراد به كثرة العدد، يقول: لو قدرأن تكون كلمات الحمد أجساماً لبلغت من كثرتها أن تملأ السماوات والأرض، ويجوز أن يكون المراد به تفخيم شأن كلمة الحمد، ويجوز أن يكون المراد به أجرها وثوابها، ويقول الطيبى: هذا تمثيل والكلام لا يقدر بالمكاييل ولا يسعه الأوعية، وإنما المراد منه تكثير العدد حتى لو يقدر أن تكون تلك الكلمات أجساماً تملأ الأماكن لبلغت من كثرتها ما يملأ السماوات والأرضين.

(3) يقول الصنعانى: " قد جعل الحمد كالأجسام، وجعله ساداً لما ذكره من الظروف مبالغة فى كثرة الحمد، وزاده مبالغة بذكر ما يشاءه تعالى مما لا يعلمه العبد " سبل السلام 515/1 – ط دار العاصمة – الرياض – (1422) هـ.

(4) ولقد جاء ذكر كثير من هذه النعم فى القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: (الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخرلكم الأنهار* وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) (إبراهيم: 22- 34)

التمثيل بـ" حمد يملأ السماوات والأرض وما شاء الله من شئ بعد " [1] ليتوافق الحمد مع هذه النعم، فكما أن النعم تملأ المكان والزمان فليكن الحمد ملء المكان

والزمان، وأنى للعبد أن يصل إلى شكر نعم ربه عليه، ففى هذا التمثيل إشارة إلى الاعتراف بالعجز عن أداء حق الحمد بعد استفراغ الجهد [2]، فإنه حمده ملء السماوات والأرض، وهذه نهاية أقدام السابقين، ثم ارتفع فأحال إلى المشيئة، وليس وراء ذلك الحمد منتهى، فإن حمد الله أعز من أن يعتوره الحسبان، أو يكتنفه الزمان والمكان [3]

ولنا وقفة عند تخصيص الحمد بكونه ملء السماوات والأرض دون التسبيح، والتكبير والتهليل. فالتحميد إثبات المحامد كلها لله، فدخل فى ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها. والتسبيح: هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب والآفات. والإثبات أكمل من السلب [4]، ولقد جاء ذكر الثناء والمجد فى الحديث بعد ذكر الحمد. والثناء: هو الوصف الجميل والمدح.

---

(5) وما شاء الله من شئ بعد: أى بعد المذكور، وذلك كالكرسى والعرش، وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، والمراد تكثير الحمد. تحفة الأحوذى 114/2

(1) ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى سجوده: " اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك " أخرجه مسلم من حديث عائشة – باب ما يقال فى الركوع والسجود – 203/4. وقوله: " لا أحصى ثناءً عليك... " إلخ اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء، وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته...، فوكل ذلك إلى الله سبحانه المحيط بكل شئ جملة وتفصيلاً...، وكل ثناء أثنى به عليه وإن كثر وطال وبولغ فيه فقدر الله أعظم، وسلطانه أعز، وصفاته أكبروأكثر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ " صحيح مسلم بشرح النووى 204/4

(2) ولم ينته أحد من خلق الله مبلغه ومنتهاه صلى الله عليه، وبهذه الرتبة استحق أن يسمى بأحمد. والفرق بين محمد وأحمد من وجهين: أحدهما: أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه. وأحمد أفعل تفضيل من الحمد يدل على أن الحمد الذى يستحقه أفضل مما يستحقه غيره. فـ " محمد " زيادة حمد فى الكمية، وأحمد زيادة حمد فى الكيفية، فيحمد أكثر حمد وأفضل حمد حمده البشر. الوجه الثانى: أن محمداً هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم. وأحمد هوالذى حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره. فدل أحد الاسمين وهو محمد على كونه محموداً، ودل الاسم الثانى وهو أحمد على كونه أحمد الحامدين لربه. جلاء الأفهام ص 104 – ط دار الطباعة المحمدية.

(3) ولهذا لم يرد التسبيح مجرداً بل مقروناً بما يدل على إثبات الكمال، فتارة يقرن بالحمد كقوله: سبحان الله وبحمده، وتارة باسم من الأسماء الدالة على العظمة والجلال كقولك: سبحان الله العظيم. وقد أختلف أى الكلمتين أفضل ؟ كلمة الحمد أم كلمة التهليل ؟ وقد حكى هذا الاختلاف ابن عبد البر وغيره. وقال النخعى: كانوا يرون أن الحمد أكثر تضعيفاً. وقال الثورى: ليس يضاعف من الكلام مثل الحمد. والحمد يتضمن إثبات جميع أنواع الكمال لله فيدخل فيه التوحيد. جامع العلوم والحكم ص262- 264

والمجد: العظمة ونهاية الشرف كما ذكر النووى [1]، ولقد جاء البيان النبوى هنا بلفظة جامعة لكل معانى الثناء والوصف الجميل لله تعالى لتناسب ملء السماوات والأرض ،لذلك قال بعد هذا الوصف الجامع : " **أهل الثناء والمجد ،أحق ما قال العبد**[2] فهذا الحمد أحق ما يقوله الإنسان لأن فى الحمد إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها. وهذا الحمد الذى يملأ السماوات والأرض، وما بينهما وما شاء الله من شئ بعد لا يكون إلا ممن اجتمعت فيه صفات العبودية لله؛ ولذلك قال " **أحق ما قال العبد** " [3]، فحمد العابد الخالص ليس كحمد غيره؛ لأن حمده حمد قلب ولسان، وحمد عبادة وعرفان، وخضوع وذل للرحمان، إنه حمد من يقدر نعم الله حق قدرها، ويعرف حق موجدها؛ ولهذا جاء الوصف بالعبودية لأنها أشرف منازل العبد بين يدى الله [4] فكلما كان العبد أكثر عبادة لله كلما كان أرفع منزلة عند الله، وكلما كان أكثرعبادة كلما كان أكثر حمداً لله. ولهذا جاءت تسمية النبى صلى الله علي وسلم بـ " **أحمد** " لأنه اكتملت فيه صفات العبودية لله كما وصفه القرآن، وأضافه الله إلى نفسه فى أكثر من موضع تشريفاً وتكريماً لأنه وصل إلى أن يكون أحمد الحامدين لربه، واستحق أن يحمد أفضل مما يستحقه غيره! [5] **وبعد هذه الرحلة القصيرة فى رياض التمثيل النبوى أنتقل إلى ذكر بعض أحاديث التمثيل الأخرى**

---

(4) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 196,195/6

(5) ويكون التقدير: المذكور من الحمد الكثير أحق ما قال العبد.

(1) التعريف فى العبد للجنس، وقيل للعهد، والمراد رسول الله صلى الله عليه وسالم، و" ما " فى قوله: " ما قال العبد " موصوفة: أى أحق الأشياء التى يتكلمها العبد إن فصلتها واحداً بعد واحد ثناء الله تعالى من العبد المطيع الخاشع الخاضع. شرح الطيبى على المشكاة 397,396/2

(2) فالعبودية الخالصة لله هى – فى واقع الأمر – عين الحرية، وسبيل السيادة الحقيقية، فهى وحدها التى تعتق القلب من رق المخلوقين، وتحرره من الذل والخضوع لكل ما سوى الله تعالى من الآلهة والطواغيت التى تستعبد الناس وتسترقهم أشد الاسترقاق والاستعباد وإن ظهروا – صورة وشكلاً – بمظهر السادة الأحرار, وللتوسع فى هذا المعنى ينظر العبادة فى الإسلام ص 102- 104 أ. د. يوسف القرضاوى – ط مؤسسة الرسالة – ط الثامنة عشرة – (1406) هـ (1986) م.

(3) ومن مقامات وصف النبى بالعبودية مع الإضافة إلى الله تعالى: قوله تعالى: (... وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير) (الأنفال: 41)، وقوله تعالى: (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله...) (الإسراء: 1)، وقوله تعالى: (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) (الفرقان: 1)، وقوله تعالى: (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) (الجن: 19)

على سبيل المثال لا الحصر؛ لأن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة [1] فمن أحاديث التمثيل: قوله ﷺ: " **مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه والبخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها** " [2]، وقوله: " **مثل الجليس الصالح و السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة** " [3] وقوله: " **مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا ورعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به** " [4] وقوله : "**مثل المنافق**

---

(4) ولقد كتب بعض علماء الحديث قديماً عن التمثيل فى البيان النبوى، فكتب الإمام الحسن بن عبد الرحمان بن خلاد الرامهرمزى ت (360) هـ كتاباً صغيراً سماه " أمثال الحديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "، ولقد ذكر فى هذا الكتاب بعض أحاديث التمثيل النبوى المشهورة الصحيحية مثل: " مثل الجليس الصالح والجليس السوء... "، وحديث " مثل البخيل والمنفق... " كما ذكر بعض أحاديث التمثيل الضعيفة السند مثل: حديث " مثل الذى يعين قومه على الظلم مثل البعير الذى يتردى فى الركى بذنبه " وغيره من الأحاديث. وأحاديث الأمثال التى ذكرها من الصحيح وغيره لا تتجاوز خمسة وثلاثين حديثاً، وهى الجزء الأكبر من الكتاب، وقد ذكر فى بقية الكتاب بعض الأحاديث فى الكناية، والتشبيه، وفى نعت الجنة والنار، والدنيا، والخيل، والنساء. وقد سلك فى هذا الكتاب النهج الاصطلاحى الذى يعنى فيه بإبراز الكلمة ومعناها دون النهج الأدبى. وينظر ترجمته فى معجم الأدباء 3/3. كذلك فى كتاب أقيسة النبى لناصح الدين ابن الحنبلى عدد كبير من أحاديث الأمثال، ولكنه اكتفى بسردها دون تحليلها تحليلاً يكشف عن أسرار جمالها. ولقد كتب بعض العصريين كتاباً حول أمثال الحديث، وهو الدكتور / عبد المجيد محمود فى كتابه أمثال الحديث مع مقدمة فى علوم الحديث إلا أنه لم يستوعب أحاديث الأمثال وإنما أشار إلى أشهرها مع شرحها وتحليلها تحليلها تحليلاً دقيقاً.

(1) متفق عليه من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (1864) 89/4.والجنتان: أى وقايتان، ويروى بالباء تثنية جبة اللباس فجاء بالروايتين. والجنتان بالنون أنسب لأن الدرع لا يسمى جبة بالباء. شرح الطيبى89/4

(2) متفق عليه من حديث أبى موسى. المشكاة ح (5010) 234/9. ومعنى يحذيك: أى يعطيك. يقال: أحذيته أحذيه إحذاءً وهى الحذيء والحذية. شرح الطيبى 234/9

(3) متفق عليه من حديث أبى موسى. المشكاة ح (150) 339/1

كالشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة "[1]**وغير ذلك من الأحاديث** [2] **وأنتقل إلى الحديث عن التشبيه فى البيان النبوى** ،وسأسوق بعض الأمثلة من الحديث ليتضح لنا من خلالها دقة التصويرفى البيان النبوى، ومن ذلك أنه ﷺ أشرف على أطم من آطام المدينة فقال: " **هل ترون ما أرى؟ إنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر** " [3] فى هذا الحديث يخبر المصطفى ﷺ عما سيقع من فتن فى المستقبل، ولنا أكثر من وقفة أمام التصويرفى هذا الحديث. **أولاً**: عند قوله: " **مواقع الفتن خلال بيوتكم** "، فقوله: " **خلال بيوتكم** " فيه إشارة إلى أن هذه الفتن قد تخللت فى حياة جميع الناس فلم يسلم منها أحد، فلقد نزلت خلال البيوت. وهذا التشبيه لأهل المدينة وهى دار الهجرة، وفيها نزل الوحى، والصحابة من حوله ﷺ، فكيف بغيرها من الأمصار والبلاد التى تبعد عنها أوتقترب منها؟!أحرى أن تكون الفتن قد عمتها وأحاطت بها. وكأن البيان النبوى يشير من طرف خفى من خلال هذه الصورة إلى أنه إذا كانت هذه حال المدينة وقد ظهرت فيها الفتن بهذه الصورة، فلا شك أن غيرها من البلاد قد عمت فيه الفتن. إن هذه الفتن قد نزلت بين البيوت، فليست بعيدة عنها. وفى ذلك إشارة إلى أن هذه الفتن لا مهرب ولا مفر منها لأنها قد تخللت ودخلت فى حياة الناس.**ثانياً**: عند قوله: " **كمواقع القطر** " وما أكثر المطر الذى ينزل من السماء! إنها فتن كثيرة عامة متتابعة لا تختص بطائفة دون طائفة،

---

(4) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر. المشكاة ح (57) 206/1. والعائرة: أكثر ما يستعمل فى الناقة، وهى التى تخرج من الإبل إلى أخرى ليضربها الفحل والجمل عائرة يترك الشوك إلى أخرى ثم يتسع فى المواشى. شرح الطيبى 206/1

(5) مثل قوله صلى الله عليه وسلم: " مثل المدهن فى حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا على سفينة... " الحديث وقد أخرجه البخارى من حديث النعمان بن بشير.المشكاة ح (5138) 312/9, وقوله: " مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة... " الحديث وقد أخرجه البخارى ومسلم من حديث أبى موسى. المشكاة ح (2114) 265/4, وقوله: " مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع... " الحديث وقد أخرجه البخارى ومسلم من حديث كعب بن مالك. المشكاة ح (1514) 310/3, وقوله: " العائد فى هبته كالكلب يقئ ثم يعود فى قيئه ليس لنا مثل السوء " أخرجه البخارى والنسائى والترمذى من حديث ابن عباس. المشكاة ح (3018)191/6, وقوله: " ما لى والدنيا ؟ وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها " أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجة من حديث ابن مسعود. المشكاة ح (5188) 3511/9, وقوله: " المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور " متفق عليه من حديث أسماء أخرجه البخارى ح (5028)، وأخرجه مسلم من حديث عائشة 111,110/2

(6) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد. أخرجه البخارى –كتاب فضائل المدينة – باب آطام المدينة – ح (1832) 113/4, وأخرجه مسلم –كتاب الفتن وأشراط الساعة – 8,7/18

وهى فتن تسير وتنتشر بين الناس كما أن المطر يسيل على الأرض وينتشر بين البيوت [1]، إنها فتن عامة لأن المطر حين ينزل على البيوت فى مكان واحد لا يخص طائفة دون طائفة، بل يشمل كل من فى المكان، فهذه الفتن شاملة لجميع الناس. والتصوير النبوى ينطبق على زماننا تمام الانطباق، فنحن نعيش فى فتن خلال بيوتنا وفى حياتنا كمواقع القطر، وهى فتن كثيرة فى الدين، والأموال، والأولاد والشهوات الأخرى [2] فلنتأمل فى هذا التصوير النبوى الدقيق الذى تخطى حدود المكان والزمان[3] **ومن التشبيهات النبوية الرائعة:** قوله ﷺ: " **إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة** "[4] وهذا الحديث من التشبيهات الرائعة لواقع يعيشه الناس فى كل زمان ومكان، وهو قلة الصالحين الصادقين الذين يعاونون إخوانهم على البر [5]، وهنا جاء التشبيه بالإبل المائة ليبين هذه الحقيقة بصورة من الواقع والبيئة، فالإبل منها ما هو راحلة صالحة للركوب، مذللة فى السفر و سهلة القياد، وهذه الراحلة بهذه الصفات مما يقل فى الإبل، وكذلك المخلصون الأوفياء اللينون المتعاونون مع إخوانهم على البر والتقوى، الصادقون فى مودتهم قليلون. والتصوير النبوى هنا يتخطى حدود المكان والزمان؛ لأن معناه مما نراه ونشاهده فى حياتنا مع شدة الصراع المادى فى الحياة، وشيوع الأثرة بين الناس إلا من رحم ربى!

" وقد يكون المقصود من هذا التصوير النبوى بيان أن الناس فى أحكام الدين سواء لا فضل فيهم لشريف على مشروف، ولا لرفيع منهم على وضيع كالإبل المائة لا يكون فيها راحلة أى التى ترحل لتركب، والراحلة: فاعلة بمعنى مفعولة، أى كلها حمولة تصلح للحمل، ولا تصلح للرحل

---

(1) يقول العلماء: هذا الإخبار من علامات النبوةلأنه أعلمهم بما سيكون، وقد ظهر ذلك من قتل عثمان رضى الله عنه، ووقعة الجمل، وصفين، والحرة، ومقتل الحسين، وهلم جراً. راجع صحيح مسلم بشرح النووى 8,7/18, وفتح البارى 113/4. قلت: والحديث عام يشمل زمن الصحابة وما بعده إلى يومنا هذا، فلقد ظهرت الفتن التى أخبر عنها النبى صلى الله عليه وسلم، وعمت العباد والبلاد !

(2) جاء ذكر مادة " فتن " ومشتقاتها فى ستين موضعاً من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) (التغابن: 15) وينظر فى هذه المواضع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص 512,511

(3) ولقد ذكر ناصح الدين بن الحنبلى هذا الحديث ضمن أقيسة النبى صلى الله عليه وسلم فى موضعين من كتابه أقيسة النبى ص 123,93

(4) متفق عليه من حديث ابن عمر. المشكاة ح (5360) 310/10. والراحلة عند العرب: الجمل النجيب والناقة النجيبة والهاء للمبالغة كما يقال: رجل فهامة ونسابة؛ وسميت راحلة لأنها ترحل أى يجعل عليها الرحل، فهى فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية بمعنى مرضية ونظائره. ينظر صحيح مسلم بشرح النووى101/16

(5) وقد يكون المقصود به معنى آخر سيأتى ذكره بعد الأول.

والركوب عليها. وقد يكون المقصود أن أكثر الناس أهل نقص، وأما أهل الفضل فعددهم قليل جداً، فهم بمنزلة الراحلة فى الإبل الحمولة، ومنه قوله تعالى: ﴿... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: 6)، وقد يكون المقصود أن الزاهد فى الدنيا الكامل فيه الراغب فى الآخرة قليل كقلة الراحلة فى الإبل. وقال القرطبى: الذى يناسب التمثيل أن الرجل الجواد الذى يحمل أثقال الناس، والحمالات عنهم، ويكشف كربهم عزيز الوجود كالراحلة فى الإبل الكثيرة. وقال غيره: معنى الحديث أن الناس كثير، والمرضى منهم قليل " [1] **ومن روائع التصوير : قوله ﷺ: " كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل "** [2]، وهذا الحديث دعوة إلى الزهد فى الدنيا، وعدم الاغترار بمتعها، وليكن حال المؤمن فيها حال السالك العابرلا المقيم الماكث. وقد شبهه أولاً بالغريب الذى لا سكن له يؤيه ولا حبيب يسليه، ثم ترقى وأضرب عنه [3] بقوله: " **أو عابر سبيل** " لأن الغريب قد يسكن فى بلاد الغربة، ويقيم فيها بخلاف عابر السبيل القاصد للبلد الشاسع، وبينه وبينها أودية مردية، ومفاوز مهلكة، وهو بمرصد من قطاع الطريق، فهل له أن يقيم لحظة، أو يسكن لمحة؟ لا [4]، والحديث بما فيه من تصوير يشير من جانب آخر إلى قصر عمر الإنسان فى هذه الدنيا، ومن أجل ذلك فعليه أن يقلل أمله، وليكن زاده منها كزاد الراكب الذى يأخذ فى سفره على قدر حاجته وضرورته فلا يستكثر من المتاع لأنه زائل، فعليه بالزاد الذى لا يفنى ويكون معه حيث كان ألا وهو زاد التقوى والإيمان حيث يقول الحق سبحانه: ﴿... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة: 197)، " ولما كان الغريب قليل الانبساط إلى الناس، بل هو مستوحش منهم، إذ لا يكاد يمريمن يعرفه مستأنس به، فهو ذليل فى نفسه خائف، وكذلك عابر السبيل لا ينفذ فى سفره إلا بقوته عليه وتخفيفه من الأثقال غير متثبت بما يمنعه من قطع سفره، معه زاده وراحلته يبلغانه إلى بغيته من قصده شبهه بهما، وفى ذلك إشارة إلى إيثار الزهد فى الدنيا، وأخذ البلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا

---

(1) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 101/16, وشرح الطيبى 31/10, وفتح البارى 343/11. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الحديث قد ذكره الثعالبى فى كتابه " الإعجاز والإيجاز " فى فصل جوامع تشبيهاته وتمثيلاته عليه السلام ص5

(2) أخرجه البخارى والترمذى وابن ماجة من حديث ابن عمر. المشكاة ح (1604) 341/3

(3) لأ ن " أو " فى قوله: " أو عابر سبيل " يجوز أن تكون للتخيير والإباحة، والأحسن أن تكون بمعنى " بل ". وقال الجوهرى: يريد بل أنت. وأجاب الكرمانى بأنه من عطف العام على الخاص، وفيه نوع من الترقى لأن تعلقاته أقل من تعلقات المقيم. ينظر شرح الطيبى 341/3, وفتح البارى 293/11

(1) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 341/3

يحتاج المؤمن فى الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل " [1] ،وهذه بعض أحاديث التصوير النبوى الرائعة، والمقام هنا مقام الإيجاز والإجمال لا الإطناب والتفصيل، وأكتفى بالإشارة إلى بعض التشبيهات النبوية الأخرى لمن أراد أن يتوسع فى البحث. فمن ذلك قوله ﷺ: " **اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب** "[2]، وقوله: " **بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً، ويمسى كافراً ويصبح مؤمناً، يبيع دينه بعرض من الدنيا** " [3]، وقوله: " **إن الأيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها** " [4]

وقوله: " **إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاذة، والقاصية، والناحية وإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة** " [5]، وقوله: " **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** " ثم شبك بين أصابعه [6]، وقوله: " **الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا** " [7]

---

(2) وهذا ما ذكره ابن بطال. وقال غيره: هذا الحديث أصل فى الحث على الفراغ عن الدنيا, والاحتقار لها، والقناعة فيها بالبلغة. وقال النووى: ومعنى الحديث لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق فيها بما لا يتعلق به الغريب فى غير وطنه. وقال غيره: عابر السبيل: هو المار على الطريق طالباً وطنه، فالمرء فى الدنيا كعبد أرسله سيده فى حاجة إلى غير بلده، فشأنه أن يبادر بفعل ما أرسل فيه، ثم يعود إلى وطنه بشئ من بلد الغربة، بل قلبه متعلق بوطنه الذى يرجع إليه، ويجعل إقامته فى الدنيا ليقضى حاجته وجهازه للرجوع إلى وطنه، وهذا شأن الغريب، أو يكون كالمسافر الذى لا يستقر فى مكان بعينه، بل هو دائم السير إلى بلد الإقامة. فتح البارى 239,238/11

(3) أخرجه أحمد والدارمى والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة وابن خزيمة من حديث أبى هريرة. مشكاة المصابيح ح (812) 353/2

(4) أخرجه أحمد ومسلم والترمذى من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (5383) 53/10. ومعنى بادروا بالأعمال: سابقوا وقوع الفتن بالاشتغال بالأعمال الصالحة، واهتموا بها قبل نزولها.

(5) متفق عليه من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (160) 353/1. ومعنى يأرز: أى ينضم إليها وينقبض.

(1) أخرجه أحمد وأبو داود من حديث معاذ بن جبل. المشكاة ح (184) 380/1. والشاذة: النافرة التى لم تؤنس. والقاصية: التى قصدت البعد لا على التنفر. والناحية: التى غفل عنها وبقيت فى جانب من الأرض وناحية منها.

(2) متفق عليه من حديث أبى موسى وأخرجه النسائى والترمذى. المشكاة ح (4955) 201/9

(3) أخرجه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة. المشكاة ح (201) 394/1

(4) متفق عليه من حديث أنس. أخرجه البخارى –كتاب الإيمان – باب حلاوة الإيمان – ح (16) 77/1, وأخرجه مسلم – باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان 14/2

وأنتقل إلى روائع بعض الاستعارات والكنايات النبوية لنقف على ما فيها من أسرار الجمال ومن ذلك قوله ﷺ: " **ثلاث من كن فيه وجد حلاوةالإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار** " [1] فى هذا الحديث ذكر النبى ﷺ خصالاً من كانت فيه وجد حلاوة الإيمان، وهذه الخصال لم تات فى الحديث اعتباطاً، كما أن تصوير الشعور بها بـ " **الحلاوة** " لم يأت أيضاً اعتباطاً. فالنبى صلى الله عايه عبر عن الراحة النفسية والالتذاذ العقلى بالحلاوة...، وهى مما يشتهيه الناس ويحبونه على سبيل الترغيب لهم فى الإقبال على هذه الخصال. وهنا تصوير هذه الرغبة وهذا الشعور فى نفس المؤمن بالشئ الحلو، والأشياء الحلوة فى حياة الناس أشكال وأنواع، وكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشبع شغفها من هذه الحلاوة. ولكن الحديث هنا تصوير لشعور المؤمن لا أى إنسان إن هذه اللذة لذة عقلية وراحة نفسية لا يجدها إلا المؤمنون [2]، وكأن النبى صلى اله عليه يقول: إن كان أهل الدنيا يحبون الحلاوة الحسية من المأكولات فإن المؤمنين يشعرون ويجدون حلاوة ولذة أخرى لا يحس بها إلا أهل الإيمان. وهنا عبر عن ذلك الشعور بـ " **الحلاوة** " لا باللذة، فهذا الشعور الإيمانى له فى نفس المؤمن أثر اللذات الحسية. واستعارة الحلاوة لرغبة المؤمن فى الإيمان [3] فيها تلميح إلى قصة المريض والصحيح لأن المريض

الصفراوى يجد طعم العسل مراً، والصحيح يذوق حلاوته على ما هى عليه، وكلما نقصت الصحة شيئاً نقص ذوقه بقدرذلك... كذلك المؤمن يجد فى حب الله ورسوله ،ومحبة الناس فى الله، وكراهية الكفر، يجد المؤمن فى هذه الخصال وما يترتب عليها، وما تتطلبه من صبر وتحمل وجلد، يجد فيها حلاوته فى حين لا يشعر بها الآخرون من أهل الدنيا، أو حين تكون لذتهم مقصورة على المتع الحسية، فالمؤمن بهذا يكون قد نال الحلاوتين: الحلاوة الحسية التى يشاركه فيها أهل الدنيا من متعها ولذاتها، وفاقهم فى هذه الحلاوة المعنوية والراحة النفسية التى لا يحسها إلا أهل الإيمان [4]،

---

(5) قال العلماء: معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات فى رضا الله عزوجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بطاعته وترك مخالفته، وكذلك محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 14/2

(6) يقول الطيبى: وحلاوة الإيمان استعارة. شبهت رغبة المؤمن فى إيمانه بشئ ذى حلاوة، وأثبت له لازم ذلك الشئ، وأضيف إليه على التخييلية. شرح الطيبى على المشكاة 116/1

(1) ظاهر الحديث على أن الإيمان على قسمين: بحلاوة وغير حلاوة, ومنه حديث: الإيمان إيمانان: إيمان بحلاوة لا يدخل صاحبه النار، وإيمان بغير حلاوة لا يخلد صاحبه فى النار " فالإيمان الذى لا يدخل صاحبه النار هو ما

ويبدو لى فى استعارة الحلاوة لهذه اللذة المعنوية سر بلاغى، وهو أن النبى ﷺ أراد أن يبين أن هذا الشعورالإيمانى مستمر مع المؤمن فى كل الأوقات كما أن حب الحلاوة مستقر فى طباع الناس فى كل حياتهم...، فالحلاوة أظهر اللذات المحسوسة. وهذا التصوير النبوى فيه أثر من المثل القرآنى فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: 24) " فالكلمة الطيبة هى كلمة الإخلاص، والشجرة الطيبة أصل الإيمان، وأغصانها اتباع الأمر و اجتناب النهى، وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير، وثمرها عمل الطاعات، وحلاوة الثمر جنى الثمرة، وغاية كماله تناهى نضج الثمرة، وبه تظهر حلاوتها " [1]، والمؤمن حين يجد هذه الحلاوة فى نفسه وقلبه تتلاشى أمامه العقبات وتذلل له الصعاب، ويرى الوجه الحقيقى للدنيا، ويرى إشراق الإيمان، ويرى فى كل عمل من الأعمال رضا الله فى جانب الطاعة وسخطه فى جانب المعصية، فيرى مجالس الذكر رياض الجنة كما جاء فى الحديث " **إذا مررتم برياض الجنة**

فارتعوا " قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: " **حلق الذكر** " [2] **ويرى أكل مال اليتيم أكل للنار**

حيث يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء: 10) [3]، ويرى العود فى الكفر إلقاء فى النار. كل هذا وغيره نجده فى التصوير النبوى لهذا الشعور الإيمانى بالحلاوة. أترى هناك لفظة أخرى تعبر عن هذه المعانى وأثر هذه الخصال فى النفس غير لفظة "**الحلاوة**"؟!

كان بالحلاوة، والإيمان الذى لا يخلد صاحبه فى النار هو ما كان بغير حلاوة, ينظر بهجة النفوس شرح مختصر البخارى 77/1 لابن أبى جمرة.

(2) يقول ابن القيم: " فإن الله سبحانه شبه شجرة التوحيد فى القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع فى السماء علواً التى لا تزال تؤتى ثمرها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الراسخة فى القلب التى فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة فى السماء، ولا تزال الشجرة تثمر الأعمال الصالحة فى كل وقت بحسب ثباتها فى القلب، ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقها، ومراعاته حق رعايتها " الأمثال فى القرآن ص 230,229. وهذا الحديث له شاهد من القرآن وهو قوله تعالى: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأت الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) (التوبة:24)

(1) أخرجه الترمذى من حديث أنس – ح (2271) – مشكاة المصابيح 407/4

(2) فإنهم لما أكلوا المال المؤدى إلى عذاب النار شبهوا من هذا الوجه بالآكلين من النار فكأنه نار فى الحقيقة. ينظر تلخيص البيان ص 127, والكشاف 510/1

وهذا الحديث يكمله حديث آخر، وهو قوله ﷺ: "**ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً** " [1]، وهذا الذوق الإيمانى إنما يشعر به من اختمرت عقيدة الإيمان فى قلبه، فالذوق هو وجود الطعم فى الفم [2]، وأصله فيما يقل تناوله فإذا كثر يقال له الأكل [3]، وكذلك هذا الشعور الإيمانى لا يحس بلذته، ولا يتذوق حلاوته إلا من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً.

إن هذين الحديثين من البيان النبوى **الذى يمثل الأمور العقلية والمعنوية فى صورة حسية تقلب السمع بصراً، والمعقول محسوساً، والمتخيل حقيقة،** واستعمال الحلاوة والذوق من الأمور الحسية هنا إنما هو ترغيب ودعوة إلى التحلى بهذه الخصال، وبيان أن اللذات فى الدنيا لا تنحصر فى اللذات الحسية المادية، بل هناك من اللذات المعنوية ما يفوقها فى الأثر وذلك لأنه يفضى بصاحبه إلى النعيم السرمدى، أما لذات الدنيا فإلى زوال وفناء. وصدق من قال من العارفين: " إن لفى نعمة لو يعلمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف"[4]

ومن روائع الاستعارات فى البيان النبوى: قوله ﷺ:

" **إن آل أبى فلان ليسوا لى بأولياء، إنما ولىى الله وصالح المؤمنين ، ولكن لهم رحم أبلها**

---

(3) أخرجه مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب – باب ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً – 2/2

(4) ينظر المفردات ص 187

(5) " أخبر النبى صلى الله عليه أن للإيمان طعماً، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب، وقد عبر عن إدراك حقيقة الإيمان والإحسان، وحصوله فى القلب ومباشرته له بالذوق تارة وبالطعام والشراب تارة، وبوجدان الحلاوة تارة كما فى هذا الحديث والحديث الذى سبقه " ينظر مدارج السالكين 68/3لابن القيم، وبصائر ذوى التمييز 24/3. ومما تجدر الإشارة إليه أن الذوق قد استعمل فى القرآن تارة بمعنى الإصابة بالرحمة كقوله تعالى: (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة...) (هود: 9)، وتارة بمعنى الإصابة بالعذاب كقوله تعالى: (... ليذوقوا العذاب...) (النساء: 566)، وهنا استعارة أيضاً لأن حقيقة الذوق ما أدرك بحاسة. تلخيص البيان ص 126, والمفردات ص 188,187, وشرح الطيبى 119,118/1

(6) والذوق عند العارفين منزلة من منازل السالكين أثبت وأرسخ من منزلة الوجد. ينظر بصائر ذوى التمييز24/3

ببلالها " [1] جاء التصوير فى هذا الحديث لصلة الأرحام، وما أعظم صلة الأرحام لما لها من أثر فى تأليف القلوب، ونشر الود والحب بين الناس. وقد أراد النبى ﷺ أن يصور هذه الصلة ويجسدها لما لها من مكانة فى الدين، وأثر فى حياة الناس، فعبر عن هذه الصلة باستعارة رائعة فى قوله: " **ولكن لهم رحم أبلها ببلالها** " [2]، وسر الجمال هنا فى ذكر **البلال** لصلة الرحم. فالبلال بمعنى البلل وهو النداوة، والنداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه بخلاف اليبس والقطيعة فمن شأنه التفريق، فنحن إذا نظرنا إلى الأرض فى حال يبسها وجفافها وجدبها... نرى ظهور الشقوق والتصدع من شدة الجدب وقلة الماء. وهذه الصورة التى تكون عليها الأرض فى هذه الحال تشبهها الرحم فى حال القطيعة حيث يتباعد الناس عن بعضهم، وتتقطع أواصر القربى ووشائج الرحم بينهم، مع انتشار الفتور فى العلاقات، وظهور العداوات. ولكن حين تبل الأرض بالماء حق بلالها تتصل الشقوق، وتتلاحم الأجزاء، ويجرى الماء على وجه الأرض بلمعانه فيغير صورتها من اليبس، والجفاف، والجدب إلى الرطوبة، والخضار، والنضار. والرحم فى حال الصلة تشبه الأرض فى هذه الصورة الرائعة حيث ينتشر الحب، وتشيع المودة والصلة، وتثمر هذه الصلة التعاون، والبر، والرحمة [3]، وكما يقول القاضى ناصرالدين : " يقال للوصل: بلل يقتضى الالتصاق والاتصال، والهجر يبس يفضى إلى التفتت والانفصال " [4]، وهنا سر بلاغى فى قوله " **بلالها** " ففيها مبالغة، والمعنى: أبلها بما عرف واشتهر عند الله وعند الناس ما هو فلا أترك من ذلك شيئاً [5] فليس المقصود مجرد الصلة العادية كما يوحى بذلك معنى لفظة " **البلل** "، ولكن المقصود القيام بحقها كما يجب؛ ولذلك قال : " **أبلها ببلالها**".

---

(1) أخرجه البخارى من حديث عمرو بن العاص –كتاب الأدب – باب يبل الرحم ببلالها – ح (5776) 433,432/10, وأخرجه مسلم من حديث أبى هريرة – باب قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) (الشعراء: 214)80,79/13

(2) قال ابن التين: هو بالفتح للأكثر، ولبعضهم بالكسر. وقال ابن حجر: قلت: بالكسر أوجه فإنه من البلال جمع بلل مثل : جمل وجمال، ومن قاله بالفتح بناه على الكسر مثل قطام وحذام. فتح البارى436/10

(3) يقول الطيبى: " شبه الرحم بأرض إذا بلت بالماء حق بلالها أثمرت، ويرى فى ثمرتها أثر النضارة. وإذا تركت يبست وأجدبت فلم تثمر إلا القطيعة والعداوة, هذا هو الوجه. وعلى هذا قول أهل اللغة: سنة جماد لا مطر فيها، وناقة جماد لا لبن فيها. ولا تجعل السنة و الناقة جماداً إلا على معنى أن السنة بخيلة بالمطر، والناقة بخيلة باللبن ". شرح الطيبى 175,174/9

(4) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 174/9

(5) ويستأنس لذلك بقوله تعالى: (إذا زلزلت الأرض زلزالها) (الزلزلة: 1) أى زلزالها الذى يستوجبه فى مشيئة الله سبحانه وتعالى، وهوالزلزال الشديد الذى ليس بعده. الكشاف 790/4

أى أنديها بما يجب أن تندى [1] والتصوير هنا يمكن أن يحمل على وجه آخر بأن تشبه قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة الماء. ويبدو لى فى هذا التصوير أكثر من خصيصة دقيقة، وهو أنه يعتمد على أكثر من صورة يتقبلها الخيال، وتتفق مع الهدف تمام الاتفاق. فالصورة الأولى: التى شبهت فيها صلة الرحم بالأرض المثمرة، والقطيعة بالأرض الجدباء القاحلة صورة واقعية دقيقة يسهل على الذهن أن يربط بين أجزائها وأجزاء الصورة المقصودة. وكذلك الصورة الثانية: التى صورت فيها القطيعة بالحرارة، والصلة بالماء الذى يطفئ الحرارة ببرودته ينطبق عليها ما سبق ذكره فى الصورة الأولى. **وهذا ملحظ هام على التصوير فى البيان النبوى، وهو قدرته على الإتيان بلوحة تصويرية يمكن أن تولد منها صورة أخرى، وذلك لتثبيت المعنى فى النفس**، ولبيان أهميته فى حياة المسلم. فما أروع هذه الصورة، فالشئ الحار لو وضعت عليه الماء لتحولت حرارته إلى برودة، والأرض الجدباء القاحلة لو نزل عليها الماء أو جرى عليها لانضمت أجزاؤها والتحمت فيما بينها كذلك الصلة للرحم والسؤال عن الأقارب، وبذل المعروف لهم يحول ضغائنهم إلى صلات وود، وعداواتهم إلى صداقات وحب، ويحول القطيعة إلى التحام وقرب. فليكن المؤمن كالماء فى جريانه وانسيابه وبرودته ليناً ودوداً وصولاً.

ومن روائع الاستعارة: ما روته عائشة أن رفاعة القرظى تزوج امرأة ثم طلقها، فتزوجت آخر، فأتت النبى ﷺ فذكرت أنه لا يأتيها، وأنه ليس معه إلا مثل هُدبة [2] فقال " **لا حتى تذوقى عسيلته، أو يذوق عسيلتك** " [1] هذا الحديث من لطائف الكنايات

---

(1) قال الخطابى وغيره: بللت الرحم بلاً وبللاً وبلالاً: أى نديتها بالصلة. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " بلوا أرحامكم " أى صلوها وندوها. والعرب تقول للقطيعة اليبس. قال الشاعر:

فلا توبسوا بينى وبينكم الثرى * فإن الذى بينى وبينكم مثرى

شبه قطيعة الرحم بالحرارة تطفأ بالماء، وتندى بالصلة. وقال الشريف الرضى: وهذه استعارة لأن المراد صلوا أرحامكم ولو بالسلام: أى جددوا المودة بينكم وبين أقربئكم ولو بالتسليم عليهم تشبيهاً ببل السقاء اليابس لأنه لا يتبلل إلا بملء الماء فينتدى قاحله (يابسه) ويتمدد قالصه (المنقبض) فشبهوا بل الأرحام بذلك لأن فى حسن المخالقة تجديد لمخلقها، وإحكاماً لما وهى من علائقها، ومثل ذلك: قول الكميت الأسدى:

نضحت أديم الود بينى وبينكم * آصرة الأرحام لو يتبلل

ينظر المجازات النبوية للشريف الرضى ص 81,80

(2) الهدبة: بضم الهاء وسكون الدال وفتح الباء: طرف الثوب الذى لم ينسج، مأخوذ من هدب العين وهو شعر الجفن, وأرادت أن ذكره يشبه الهدبة فى الاسترخاء وعدم الانتشار. فتح البارى 376/9

النبوية، وموضع الاستعارة فيه فى قوله: " **حتى تذوقى عسيلته أو يذوق عسيلتك** " فهنا عبر النبى ﷺ عن لذة الجماع بـ " **العسيلة**"، واختيار كلمة " **العسيلة** " فى هذا الموضع – مع ما فيها من الأدب النبوى – تضم فى طياتها كثيراً من الأسرار البلاغية. فالعسل مما يحبه الناس لما فيه من الحلاوة، واللذة، والشفاء، ولم تأت هذه الكلمة فى الحديث على حالها، بل جاءت مصغرة " **عسيلة** " لمناسبة المقام.

فهذه المرأة بعد طلاقها من رفاعة القرظى تزوجت من عبد الرحمان بن الزبير [2]، وأرادت أن ترجع لزوجها الأول (رفاعة) فبين لها النبى ﷺ أنه لابد أن يدخل بها الثانى حتى تحل للأول. وعبر عن ذلك الدخول بلفظة " **العسيلة** " بالتصغير إشارة إلى أنه يكفى وطأة واحدة، وأن القدر القليل كاف فى تحصيل الحل. إن هذه الصورة وراءها سر بلاغى آخر، وكأن النبى يريد أن يقول: " إن مخبر المرأة ومخبر الرجل كالعسلة المستودعة فى ظرفها فلا يصح الحكم عليها إلا بعد الذوق منها " [3] فالدخول بالمرأة واللقاء بينها وبين زوجها له شأن آخر فى أن يؤدم بينهما، ولو كان هذا الدخول للحظات قليلة كما دلت عليه لفظة " **العسيلة** " بالتصغير. ويبدو لى فى هذا الحديث سر آخر. فاختيار العسل فى هذه الصورة مقصود إليه لما له من أوصاف أخرى كالصفاء، والنقاء، واللزوجة [4]، والحلاوة...، فكله منافع وفوائد [5] كذلك العسيلة المذكورة فى الحديث، وهى لذة الجماع فيها منافع وفوائد من ناحية قضاء الوطر، وهدوء النفس وإعفافها، والسكن والمودة بين الرجل والمرأة، وكون المرأة لباس للرجل، والرجل لباس لها بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ ولذلك قال: " **حتى تذوقى عسيلته أو يذوق عسيلتك** " فالذوق هنا أمر مشترك بين الرجل والمرأة لا

---

(3) أخرجه البخارى من حديث عائشة – باب إذا طلقها ثلاثاً ثم تزوجها بعد العدة زوجاً غيره فلم يمسها – ح (5124) 374/9, وأخرجه مسلم – باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضى عدتها 2/10

(1) كما جاء فى الرواية الثانية للبخارى فى كتاب الشهادات – ح (2588)، وفى كتاب الطلاق – ح (5069) وفى رواية لمسلم 3/10

(2) ينظر المجازات النبوية ص 255

(3) لزج الشئ لزجاً ولزوجة: تمطط وتمدد وكان فيه ودك يعلق باليد ونحوها، والشئ بالشئ: لزق. يقال: لزج العسل بإصبعه. واللزوجة فى النطفة فيها شبه بلزوجة العسل، فهذا قدر مشترك بينهما.

(4) قال تعالى فى شأن النحل: (... يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) (النحل: 69).

ينفرد به أحدهما دون الآخر. والذوق فى العسل وغيره ما أدرك بحاسة، وهذا إنما يكون فى المطاعم والمشارب [1]

فالتعبير عن هذه اللذة بـ " **الذوق** " فيه إشارة إلى الإحساس والشعور بأثر هذه اللذة كما يشعر الإنسان ويحس بلذة العسل عند ذوقه فى فمه، وعلى طرف لسانه. فليتأمل فى دقة التصوير فى البيان النبوى، إننا نلمح فى لفظة " **العسيلة** " المصغرة قيمة بيانية معبرة عن هذه اللذة، فحرف السين فيها مع التصغير أرى فيهما إشارة إلى الهدوء والسكينة الذين يحيطان بعملية الاتصال بين الرجل والمرأة، وهذا يؤكد أنه قد تستقل لفظة برسم الصورة، فهذه اللفظة تحمل إلى أذهاننا صورة عما يجب أن تكون عليه عملية الاتصال بين الرجل والمرأة بعيداً عن العبارات الصريحة التى تثير الخجل عند الناس، ولا عجب فى هذا الأدب، فلقد خرج من مشكاة النبوة!!

ومن روائع التصوير قوله ﷺ فى الحسن والحسين: " **هما ريحانى من الدنيا** " [2]، وما أروع عبارته ﷺ فى التعبير عن حب الحسين والحسين رضى الله عنهما. فالأولاد نعمة من أجل النعم لا يشعر بقيمتها إلا من فقدها أو حرم منها [3] وأراد الحبيب ﷺ – وهو القدوة والأسوة – أن يبين مقدار حبه للحسن والحسين ابنى فاطمة البتول رضى الله عنها، فعبر عن هذا الحب بأنهما " **ريحانه من الدنيا** " [4]، واللوحة التصويرية هنا جاءت فى عبارة معبرة أدق تعبير عن مقدار الرحمة [5]، والحب فى قلبه ﷺ. **فالريحان** الذى جاء ذكره فى الحديث فيه أكثر من سر بلاغى، وتتحدد بلاغة كل سر على حسب توجيه المعنى الذى جاء فيه.

---

(5) فشبه صلى الله عليه وسلم لذة الجماع بذوق العسل فاستعار له ذوقاً. شرح الطيبى372/6

(1) أخرجه البخارى من حديث ابن عمر –كتاب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم – باب مناقب الحسن والحسين رضى الله عنهما – ح (3618) – 117/7, وفى كتاب الأدب – باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته – ح (5780) 440/10

(2) يقول تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) (ال عمران: 14)

(3) قوله ": " ريحانتاى: كذا للأكثر بالتثنية، ولأبى ذر " ريحانى " بالإفراد والتذكير شبههما بذلك لأن الولد يشم ويقبل ووقع فى رواية جرير بن حازم " إن الحسن والحسين هما ريحانتى ".

(4) فعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال: كان رسول الله يأخذنى فيقعدنى على فخذه، ويقعد الحسن بن على على فخذه الأخرى ثم يضمهما، ثم يقول: " اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما " أخرجه البخارى، وفى رواية: " اللهم إنى أحبهما فأحبهما " أخرجه أحمد والبخارى. المشكاة ح (6149) 300/11

السر الاول: إذا كان المقصود بـ " **الريحان** " الرزق [1] فعليه يكون المعنى هما من رزقى

وفى هذا بيان لنعمة الذرية التى هى من زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وأراد ﷺ أن يبين أن الأولاد من رزق الله لعباده لينبه كثيراً من الناس لأهمية هذه النعمة التى لا يقدرها كثير منهم حق قدرها، وليوضح لهم أن الرزق لا ينحصر فى العطاء المادى، بل يتجاوز ذلك ليشمل الذرية وغير ذلك من النعم، وعليه فإذا أعطى الله العبد الذرية فلقد أعطاه رزقاً كثيراً فى الدنيا؛ لأن الولد الصالح امتداد لأبيه وأمه فى الدنيا بالعمل الصالح، وهو من كسب أبيه [2]، ومن مواهب الله له.

أما السر الثانى: إذا كان المقصود بـ " **الريحان** " المشموم [3]، فالصورة هنا تختلف لأنه سيضاف إليها معان كثيرة من الرحمة والحب والقبول والضم. فالريحان من الشمامات [4] ذوات الروائح الطيبة، والرائحة الطيبة مما تميل إليه النفوس بحكم الطبيعة، وكذلك الأولاد يضمون ويشمون كما تشم الرياحين [5]، ويقبلون. وبهذه الصورة يكون النبى صلى الله عليه قد غرس الحب الحب والرحمة والقبول للأولاد فى القلوب بأحسن الألفاظ، وأحب الأشياء إلى النفوس. فإذا كان لله عند المرء ثلاثة من الأولاد فلينظر إلى هذا الرزق الذى ساقه الله إليه، وهذه الرياحين التى زرعها فى بيته حتى ملأت عليه حياته بالحب، ومن زاد أولاده عن هذا العدد زاد فضل الله عليه. إن

---

(5) قال ابن التين: المراد بـ " الريحان " هنا الرزق، وقال صحاحب الفائق: أى هما من رزق الله الذى رزقنيه. يقال: سبحان الله وريحانه: أى أسبح الله واسترزقه. شرح الطيبى 299/11, وفتح البارى 441/10. ومنه قوله تعالى: (فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم) (الواقعة: 89,88) فالريحان هنا هو الرزق الطيب كما ذكر المفسرون. ينظر الكشاف 469/4, وأنوار التنزيل 151/8, وحاشية الشهاب 151/8

(1) حيث يقول صلى الله عليه وسلم: " إن أولادكم هبة الله لكم (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) (الشورى: 49) فهم وأموالهم لكم إذا احتجتم إليهم " أخرجه الحاكم والبيهقى من حديث عائشة. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح (2564) 138,137/6. وكذلك حديث " أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه " أخرجه أبوداود من حديث عائشة. وانظره فى منار السبيل 303/2

(2) يقال: حبانى طاقة ريحان. والمعنى أنهما مما أكرمنى الله وحبانى به لأن الأولاد يشمون ويقبلون فكأنهم من جملة الرياحين التى أنبتها الله تعالى. شرح الطيبى 299/11, وفتح البارى 441/1

(3) أى ما يتشمم من الروائح الطيبة.

(4) ولقد أخرج الترمذى من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو الحسن والحسين فيشمهما ويضمهما. وفى رواية للطبرانى فى الأوسط من طريق أبى أيوب قال: دخلت على رسول الله والحسن والحسين يلعبان بين يديه، فقلت: أتحبهما يا رسول الله ؟ قال: " وكيف لا، وهما ريحانتى من الدنيا أشمهما " فتح البارى 122/7

الريحان مما ينتشر رائحته الطيبة فى المكان، ويزين البيوت بخضاره، وكذلك الأولاد ينشرون الرحمة والحب والشفقة عليهم فى قلوب آبائهم وأمهاتهم، ويملؤون حياتهم بالزينة، فهم من متاع الحياة الدنيا وشهواتها كما جاء فى القرآن الكريم [1] ويبدو لى فى قوله ﷺ: " **هما ريحانى** " مع الإضافة إلى ياء المتكلم سر بلاغى. فالإضافة هنا جاءت لتفيد الألفة والاجتماع ،والضم، وكأنه يقول : هما جزء منى لا ينفصل عنى، وهذا مما يشير إلى القرب والحب، والإضافة قد عبرت عن هذا المعنى أدق تعبير، فما أروع التصوير هنا، وما أدق هذه الصورة المفعمة بالحب، ولينظر الناس إلى ما حولهم من الرياحين التى تملأ أجواءهم، ولكنهم لا يشمونها ولا يشعرون بجمالها! إن هذه اللوحة التصويرية التى اجتمع فيها الحب والجمال إنما هى دعوة إلى الرحمة والشفقة، فالأولاد من رزق الله لعباده، ومن زينة الحياة الدنيا.

وهذا غيض من فيض مما يزخر به البيان النبوى من روائع الاستعارات، وأشير إلى بعض الأحاديث الأخرى لمن أراد التوسع فى البحث. فمن ذلك قوله ﷺ: " **المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء تركه إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان، أو فى أمر لا يجد منه بداً** " [2]، وقوله ﷺ: لما أثنى رجل على رجل عنده: " **ويلك قطعت عنق أخيك** " ثلاثاً " **من كان مادحاً لا محالة فليقل: " أحسب فلاناً والله حسيبه إن كان يرى أنه كذلك، ولا يزكى على الله أحداً** " [3]

وأنتقل إلى الحديث عن لطائف بعض الكنايات النبوية، فمن ذلك قوله ﷺ: " **إذا جلس بين شعبها الأربع فقد وجب الغسل** " [4]، وهذا الحديث من لطائف الكنايات النبوية، فالمراد بـ " **الشعب الأربع** " اليدان والرجلان، وقيل: الرجلان والفخذان، وقيل: الرجلان والشفران، واختار القاضى أن المراد شعب الفرج الأربع [5]، فالحديث من الكناية المهذبة حيث إنه رغب عن الألفاظ الألفاظ الصريحة، وأتى بالكناية الواضحة، وذلك حفاظاً على جودة الأسلوب فى الأداء، ومراعاة

---

(5) حيث يقول تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) (ال عمران:14)

(1) أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى من حديث سمرة بن جندب. المشكاة ح (1846) 75/4. والكدوح: بالضم جمع كدح وهى الخدوش وكل أثر من خدش أو عض فهو كدوح. والكدح فى غير هذا: السعى والحرص والعمل. أما الكدوح بفتح الكاف مبالغة مثل: صبور وهو من الكدح بمعنى الجرح.

(2) متفق عليه من حديث أبى بكرة. المشكاة ح (4828) 123,122/9

(3) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة – باب بيان أن الغسل يجب بالجماع – 39/4

(4) والشعب: النواحى واحدتها شعبة

لحياء أهل العفة والحياء، وكل هذا مع وضوح المقصود وبيان المراد، وهذا دأب البيان النبوى،هو أن يرغب عن الألفاظ الصريحة التى تخدش حياء الناس، ويكنى بما يناسب المقام، ويعبر عن المقصود أتم تعبير. وقل مثل ذلك فى قوله: " **جهدها** "، فمعناه حفزها ودفعها، أو بلغ مشقتها [1]، فالحديث يشير – فى أدب – إلى جهد

الرجل فى عمله فى المرأة، وإلى كدها بحركته أثناء عملية الجماع [2]، وفى التعبير عن حركة المرأة أثناء الجماع بـ " **الجهد** " أدب رفيع سامى!، وعن هذا الأدب يقول الطيبى: " الجهد بالفتح من أسماء النكاح، ولعله كناية مأخوذة من الجهد بمعنى المبالغة...، وإنما عدل إلى الكناية بذكر " **شعبها الأربع** " للاجتناب عن التصريح بذكر الشفرين، ولو أريد به اليدان والرجلان لصرح بهما؛ وإنما عبربهذا اللفظ المبهم تنزهاً عن التفوه بما يفحش ذكره صريحاً ما وجد إلى الكناية سبيلاً إلا فى صورة تدعو الضرورة إلى التصريح على ما ذكر فى حديث ماعز بن مالك لتعلق الحد بذلك، ولقد اعتمد فى الحديث على فهم المخاطبين، فعبر عنه بالجهد، والمراد منه التقاء الختانين " [3]

ومن لطائف الكنايات : قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس لما حللت أى (انقضت عدتها)، وذكرت له أن معاوية بن أبى سفيان، وأبا جهم خطباها، فقال لها رسول الله: " **أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحى أسامة ابن زيد** " [4]، فقوله: " **أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه** " كناية إما عن كثرة الأسفار، وإما عن كثرة الضرب للنساء، والمعنى الثانى أصح [5]، فلما كان أبوجهم كثير الحمل للعصا، وكان معاوية قليل المال جاز جاز إطلاق هذا اللفظ عليهما على سبيل المجاز.

---

(5) يقال: جهدته وأجهدته: بلغت مشقته

(1) قال القاضى: الأولى أن يكون جهدها بمعنى بلغ جهده فى العمل فيها. والجهد: الطاقة، وهو إشارة إلى الحركة وتمكن صورة العمل، وهو نحو من حفزها، وإلا فأى مشقة بلغ فيها ذلك. ومعنى الحديث: أن إيجاب الغسل لا يتوقف على نزول المنى، بل متى غابت الحشفة فى الفرج وجب الغسل على الرجل والمرأة، وهذا لا خلاف فيه اليوم. ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 40/4

(2) ينظر شرح الطيبى على المشكاة 92,91/2

(3) أخرجه مسلم من حديث فاطمة بنت قيس – باب المطلقة البائن لا نفقة لها – 95,94/10. والعاتق: ما بين العنق والمنكب، وفى هذا استعمال المجاز، وجواز إطلاق مثل هذه العبارة.

(4) بدليل رواية ذكرها مسلم بلفظ " أما معاوية فرجل ترب لا مال له، وأما أبو جهم فرجل ضراب النساء، ولكن أسامة ابن زيد" فقالت بيدها: هكذا أسامة أسامة، فقال لها رسول الله: " طاعة الله وطاعة رسوله خير لك " قالت: فتزوجته فاغتبطت. صحيح مسلم بشرح النووى 105,104/10

ومن روائع الكنايات النبوية: قوله ﷺ: "... **واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف** " [1] فى هذا الحديث نحن أمام كناية دقيقة فى قوله: " **تحت ظلال السيوف** " وهذه الكناية عن كثرة الضراب فى سبيل الله. وفيها أكثر من سر بلاغى. الأول: على أن يكون المقصود منها أن يتقارب المجاهدون ويجتمعوا إلى بعضهم صفاً متراصاً حين الزحف

فتصير السيوف تظل المقاتلين، وهناك تكون الجنة [2] الثانى: على أن يكون المقصود منه الالتحام مع الأعداء فى ساحة القتال، والقرب منهم حتى يصير المتقاتلان كل واحد منهما تحت سيف خصمه لحرصه على رفعه عليه، ولا يكون ذلك إلا عند التحام الصفوف، والضرب فوق الأعناق، وضرب كل بنان [3]، إن المطلوب هوالثبات والصبر [4] فى هذه الشدة عند نزول ساحة الوغى حين يقبل الموت على المؤمن وهو ثابت راسخ كالجبل الأشم فى وجه الإعصار. ونلمح هنا سر دقيق فى الربط الخيالى بين الجنة وظلال السيوف. لقد ذكر" **أن الجنة تحت ظلال السيوف** "، ولم يقل مثلاً: فوقها أو حولها، بل قال تحتها، فهو يريد أن يبين أنه حين تلتحم الصفوف، ويكون المجاهد الصادق تحت ظل سيف عدوه، وعدوه تحت ظل سيفه، حين يضرب المجاهد ويسقط على الأرض فإنه فى ذلك الحين يكون فى قمة الرفعة والعزة لأن روحه إنما ترفع إلى أعلى المقامات فى الجنة. إن جرحه الذى يسيل منه الدم يأتى يوم القيامة كهيئته لونه لون دم، وريحه ريح مسك. إن الجنة هناك فى هذا الموضع لمن صدقوا ما عاهدوا الله عليه، واشترى الله منهم أنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون!

ولتأمل كيف ربط البيان النبوى بين الجنة وظلال السيوف فى أذهاننا وفى خيالنا، وكيف طوى المسافة بين عالم الغيب وهو مستقر أرواح الشهداء، وبين عالم الشهادة وهو ميدان المعركة ومصارع الشهداء، ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد جاء هنا ذكر السيوف وحدها دون غيرها من آلات القتال الأخرى كالرماح والنبال. ويبدولى وراء ذلك سر بلاغى، فالرماح والنبال قد يكون القتال بها عن

---

(5) أخرجه البخارى من حديث عبد الله بن أبى أوفى –كتاب فضل الجهاد والسير – باب الجنة تحت بارقة السيوف – ح (2728) 40/6

(1) قال القرطبى: وهو من الكلام النفيس الجامع المشتمل على ضروب من البلاغة مع الوجازة وعذوبة اللفظ، فإنه أفاد الحض على الجهاد والإخباربالثواب عليه، والحض على مقاربة العدو، واستعمال السيوف، والاجتماع حين الزحف حتى تصير السيوف تظل المقاتلين. فتح البارى 40/6

(2) يقول الطيبى: قوله: " تحت ظلال السيوف " كناية عن الضراب فى الجهاد حتى يعلوه السيف، ويصير ظله عليه. شرح الطيبى على المشكاة 422,421/7

(3) حيث يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) (الأنفال:45)

بعد ولا تستخدم غالباً عند التحام الصفوف، وإنما الذى يستخدم فى هذا الموقف غالباً هو السيوف وحدها. وفى ذلك إشارة إلى النزول فى ساحة المعركة، ومواقع الموت، والالتحام مع الأعداء، وتسديد الضربات الموجعة ،و والإقدام على الموت المستعذب، والاستشهاد فى سبيل الله، فالجنة إنما تكون حين يعلو ظل

سيف المجاهد فوق هامة عدوه، أو حين يعلو سيف عدوه فوق هامته. إن للسيوف هاهنا بريقاً ولمعاناً [1] فى العيون، وفى ظل هذا الموقف العصيب يظهر من يخدعه بريق الدنيا فيميل إليها ويحجم عن الإقدام، ويسمو ويعلو من لا يهاب بريق السيوف فيقدم على الجنة ولسان حاله يقول: **يا رياح الجنة هبى** ! وهذا حال من باع لله نفسه، وصدق الله فصدقه، فهو يملك بيده مفاتيح الجنة كما قال رسول الله ﷺ: " **إن السيوف مفاتيح الجنة** " [2] كل هذه المعانى وغيرها تجسدها الكناية الرائعة فى قوله ﷺ: " **الجنة تحت ظلال السيوف** ".

وبعد هذه الرحلة القصيرة فى رياض التمثيل والتصوير النبوى يأتى السؤال المهم ، وهو لم اعتمد النبى ﷺ على التمثيل والتصوير بمختلف أنواعه فى كثير من الأحاديث؟ هل السبب فى ذلك القرآن الكريم وحده، واتباع النبى لمنهجه؟ أم هناك أسباب أخرى؟ والجواب عن ذلك أن القرآن الكريم كان له أكبر الأثر فى التمثيل والتصوير النبوى وذلك واضح كل الوضوح وقد أشرت إلى ذلك عند الحديث عن أسباب بلاغته ﷺ [3]، ويضاف إلى ذلك ما للتمثيل والتصوير من أثر فى توضيح المعانى، ومن ذلك ما ذكره الإمام عبد القاهر عن أسباب تأثير التمثيل. ولقد ذكر لتأثير التمثيل عدة أسباب:

أولها: نقله النفس من العقلى إلى الحسى، ومن النظرى إلى الضرورى، وذلك مما يوجب لها أنساً بالمعنى، وثقة به، واطمئناناً إليه. والسر فى ذلك أمران: أحدهما: أن العلم الثانى وهو الحسى الضرورى أقوى من العقلى والنظرى، وأشد استحكاماً، ولذلك يقولون: ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظن كاليقين. فإذا جئت بالمثل عقب المعنى أو أبرزت المعنى فى معرضه أنست إليه النفس ووثقت

---

(1) فلقد أخرج الطبرانى بسند صحيح من حديث عمار بن ياسر رضى الله عنه أنه قال يوم صفين: الجنة تحت البارقة. وهى السيوف اللامعة. فتح البارى 40/6

(2) أخرجه ابن أبى شيبة من حديث أبى موسى الاشعرى. وقال الألبانى فى السلسلة الصحيحة: إسناده جيد رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير اثنين من رجال مسلم وحده، وفيهما كلام لا يضر. ح (2672) 375,374/6

(3) وذلك فى الفصل الاول من الباب الثانى، وهو أسباب بلاغته صلى الله عليه وسلم فى الجزئية الخاصة بنور القرآن وهديه.

به، وقبلته مطمئنة، إذ رددتها إلى ما هى به أعلم، وثقتها به أحكم. ثانيهما: أن العلم الحسى والضرورى أسبق حصولاً للنفس من العقلى والنظرى؛ لأن العلمين الأولين وسيلتها إلى العلمين الأخيرين، وطريق حصولهما لها، فهى آلف لهما

وهما أقدم لها صحبة، وآكد عندها حرمة...، فإذا نقلت النفس فى شئ تمثله – أى تضرب له مثلاً – من المعقول إلى المحسوس، أو من النظرى إلى الضرورى كنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم، وذلك أدعى لقبولها، وأجلب لرضاها.

ثانيهما: من أسباب تأثير التمثيل أنه كثيراً ما يجمع بين أمرين متنافرين مختلفين. وسر تأثير ذلك: أن تصيد الشبه للشئ من غير جنسه واجتلابه له من غير مظنته، والتقاطه من المكان القصى حتى ترى به الأمرين مثلين متباينين، ومؤتلفين مختلفين، باب آخر من الظرف واللطف، ومذهب من مذاهب الإبداع والافتنان، وفيه من الطرافة والغرابة ما لا يخفى موضعه من العقل، وما يدعو محالة للاستحسان، ويثير كامن الارتياح، ويتألف نافر المسرة. وهذا السبب يتأتى فى التشبيه غير التمثيلى [1]

ثالثهما: من أسباب تأثير التمثيل: أنه يحتاج إلى إعمال الفكر، وتحريك الخاطر، وبذل الهمة من كل من منشئه وسامعه، فالأول محتاج إلى ذلك فى الغوص عليه، والاهتداء إليه، ثم فى صوغه والإبانة عنه، والثانى يحتاج إلى ذلك فى فهمه وإدراك سره، واجتلاء حسنه، وذلك ما يجعله فى النفس أحلى، وبالميزة أولى. وسر ذلك. ما هو مركوز فى الطباع من أن الشئ إذا نيل بعد طلبه والشوق إليه، والحنين له كان موقعه من النفس أعظم مما لو حصل عفواً بلا عناء ولا طلب؛ ولذلك يضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ، أو الوصل بعد الصد، أو الغنى بعد الفقر، أو الرخاء بعد الشدة، وأشباه ذلك مما يحصل بعد مكابدة الحاجة إليه، ومطالبة النفس به. وهذا السبب مرتبط بالسبب السابق، ومرتب عليه. فإن التمثيل إنما يدق ويلطف، وتكون حاجته إلى الفكر أمس إذا كان تقريراً للشبه بين الأشياء المتباعدة المتباينة، فإن الأشياء المتقاربة فى الجنس مستغنية عن التعمل والتأمل لظهور الشبه بينها وقرب مأخذه، اما الجمع بين أعناق المتنافرات فى ربقة، وعقد النسب بين الأجنبيات فهو عنوان جودة القريحة، ودليل الحذق والأستاذية، وهو الذى يحتاج إلى دقة الفكر، ولطف النظر، ونفاذ الخاطر، وهو الذى أوجب للتمثيل الفضيلة، وأحظاه عند السامعين. وهذه الأسباب التى ذكرها الأمام عبد القاهر مما يتصل بموضوع التمثيل

(1) أما الأول فإنه مختص بالتمثيل لأن المشبه عقلى فلا يمكن أن يكون الوجه حسياً، أما هذا السبب فإنه يتأتى فى التشبيه غير التمثيلى، فإنه يجوز أن يكون الأمران المختلفان محسوسين، ووجه الشبه بينهما حسياً.

فى البيان النبوى تمام الاتصال [1]، فالحاجة إلى نقل النفس من العقلى إلى الحسى، والجمع بين الأمور المتنافرة المختلفة، والحث على إعمال الفكر مما دعا النبى ﷺ إلى الاعتماد على التمثيل والتصوير فى الحديث الشريف. ويلاحظ ذلك بوضوح فى حديث محو الصلاة للذنوب والخطايا "... **فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا** " الحديث، وحديث " **النذير العريان** "، وحديث " **المستوقد للنار** "، وحديث " **صاحب القرآن** " " **إنما مثل صاحب القرآن كصاحب الإبل المعلقة**..." الحديث، وحديث " **مثل الذى يذكر ربه، والذى لا يذكر كمثل الحى والميت** "، وحديث " **مثل من يتصدق عند موته** ..." الحديث، وغير ذلك من أحاديث التمثيل. كذلك فى أحاديث التشبيه الأخرى، كما فى حديث " **إنما الناس كإبل مائة** ... " الحديث، وحديث " **كن فى الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل** ". وفى الاستعارة حديث " **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**... " الحديث، وحديث " **العسيلة** "، وغيرهما من الاحاديث.

ويلاحظ على التصوير النبوى ارتباطه بالواقع والبيئة من خلال الأمثال التى ضربها، والتشبيهات التى صاغها، وهذا مما يرسخ المعانى فى الأذهان، ويؤنس النفوس لما للمعنى من صلة بالواقع. والأمثلة واضحة على ذلك، وقد مضى ذكر بعضها منذ قليل. وهذه السمة، أى سمة ارتباط التمثيل والتصوير بالواقع سمة مستمرة فى كل أحاديث التصوير النبوى. ويلاحظ كذلك الدقة فى اختيار الألفاظ التى تتركب منها الصورة مع مراعاة الإيجاز فى تركيب الصورة حتى يسهل حفظها، ونقلها عند الحاجة، وهذا مما يسر نقل كثير من أحاديث التصوير النبوى.

وأنتقل إلى الحديث عن " **دقة الوصف** " فى الحديث النبوى فى الفصل التالى، وفن الوصف فيه لا يقل فى جماله ودقته وبهائه عن فن التمثيل والتصوير.

---

(1) راجع الإيضاح 11,10,9/3, وراجع هذه الأسباب والتعليق عليها فى كتاب دراسة تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير ص 80, وما بعدها للأستاذ / عبد الهادى العدل – ط دار الطباعة المحمدية – ط ثالثة – (1378) هـ (1958) م.

الفصل الخامس: دقة الوصف فى البيان النبوى

معنى الوصف عند اللغويين والبلاغيين: " الوصف من وصف الشئ له وعليه وصفاً وصفة: حلاه، والهاء عوض من الواو، وقيل: الوصف المصدر والصفة: الحلية، والوصف: ما ينعت به الشئ من صفات ونعوت، ومنه قوله تعالى: ﴿...وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمْ الْكَذِبَ ...﴾ (النحل: 62) أى تقول الكذب وتحققه، ويقال: هو مأخوذ من قولهم: وصف الثوب الجسم إذا أظهر حاله وبين هيئته. والوصف والصفة مترادفان عند أهل اللغة و والمراد بالوصف ليس صفة عرضية قائمة بجوهر كالشباب والشيخوخة ونحوهما، بل يتناول جوهراً قائماً بجوهر آخر يزيد قيامه به حسناً وكمالاً، ويورث انتقاصه عنه قبحاً له ونقصاناً. وفى التعريفات: الوصف عبارة عما دل على الذات باعتبار معنى، وهو المقصود من جوهر حروفه، أى يدل على الذات بصفة كأحمر فإنه بجوهر حروفه يدل على معنى مقصود وهو الحمرة، فالوصف والصفة مصدران كالوعد والعدة " [1]، ومن خلال كلام اللغويين حول الوصف يتضح أنه: توضيح الشئ وإظهاره، وبيان حاله وهيئته [2]

أما عن الوصف عند البلاغيين: فلقد عرفه قدامة بن جعفر بقوله: " هو ذكر الشئ كما فيه من الأحوال والهيئات. ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب

---

(1) ينظر اللسان مادة " وصف " 356/9, وبصائر ذوى التمييز 224,223/5, وأساس البلاغة 510/2, والمصباح المنير ص 254, والكليات ص 942, والتعريفات ص 326, ومعجم الألفاظ والأعلام القرآنية ص 576

(2) أما عند النحويين " فالصفة: الاسم الدال على بعض أحوال الذات، وذلك نحو: طويل وقصير وعاقل وقائم...، والذى تساق له الصفة هو التفرقة بين المشتركين فى الاسم، ويقال: إنها للتخصيص فى النكرات، وللتوضيح فى المعارف. والصفة والنعت واحد، وقد ذهب بعضهم إلى أن النعت يكون بالحلية نحو: طويل وقصير، والصفة تكون بالأفعال نحو ضارب وخارج. فعلى هذا يقال للبارئ سبحانه موصوف، ولا يقال له منعوت. والصفة لفظ يتبع الموصوف فى إعرابه تحلية وتخصيصاً له بذكر معنى فى الموصوف أو فى شئ من سببه، وذلك المعنى عرض للذات لازم له...، ولا تكون الصفة إلا مأخوذة من فعل أو راجعاً إلى معنى الفعل، وذلك كاسم الفاعل نحو: ضارب وآكل وشارب ومحسن، واسم المفعول نحو: مضروب ومأكول ومشروب، أو صفة مشبهة باسم الفاعل نحو: حسن وشديد وبطل... " ينظر شرح المفصل 46/3- 48باختصار لابن يعيش النحوى – ط عالم الكتب – بيروت، ولسان العرب 357/9. ومما تجدر الإشارة إليه أن الصفة تأتى لأسباب منها: مجرد المدح والثناء، ومنه صفات الله تعالى كقوله: بسم الله الرحمان الرحيم، ولزيادة البيان كذا قاله ابن مالك، ومثله بقوله تعالى: (فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى...) (الأعراف: 158)، ولتعيينه للجنسية كقوله تعالى: (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم...) (الأنعام: 38) لان المعنى بدابة والذى سيق له الكلام الجنسية لا الإفراد بدليل قوله تعالى: (إلا أمم أمثالكم) ينظر البرهان 422/2- 426

المعانى كان أحسنهم من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره، ويمثله للحس بنعته " [1]، ويقول ابن القيم:

" والوصف أصله: الكشف والإظهار من قولهم: وصف الثوب الجسم إذا لم يستره ونم عليه وأحسنه ما يكاد يمثل الموصوف عياناً، ولأجل ذلك قال بعضهم: أحسن الوصف ما قلب السمع بصراً، ومنه فى القرآن كثير مثل قوله تعالى فى وصف البقرة التى أمر بنو إسرائيل بذبحها لما سألوا أن توصف لهم بقولهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ...﴾ (البقرة: 68)، وقوله لما سألوه أن يصف لهم لونها: ﴿...قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة: 69)، وقوله لما سألوه بيان فعلها: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا ...﴾ (البقرة: 71) فجمع فى هذه الآية جميع الأحوال التى ينضبط بها وصف الحيوان، فإن الحيوان عند البيع والإجارة، وسائر وجوه التمليكات يحتاج فيه إلى معرفة سنه ولونه وعمله، ثم يفتقر فيه إلى معرفة عيوبه فنفى الله سبحانه وتعالى عن تلك البقرة كل عيب بقوله: (**لا شية فيها**)، فجمع فى هذه الآية جميع وجوه الوصف، فإنه فى الاول وصف سنها، وفى الثانى وصف لونها، وفى الثالث وصف وصف خلقها وعملها...، ومن هذا الباب فى القرآن كثير لا يحصى، **وكذلك السنة النبوية** وكذلك الشعر... " [2]، ويكاد النقاد يجمعون على أن أجود الوصف هوالذى يستطيع أن يحكى الموصوف حتى يمثله عياناً للسامع، وذلك بأن يأتى الشاعر بأكثر معانى ما يصفه وبأظهرها فيه وأولاها بأن تمثله للحس. ولذلك قال بعض النقاد: أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً [3]، وكلام النقاد وإن كان حول الوصف كغرض من أغراض الشعر إلا أنه تحديد دقيق لهذا الفن من فنون التصوير؛ ولذلك أخذ به ابن القيم، وطبقه على بعض آيات القرآن موضحاً أنه كثير فى القرآن، والسنة، وكلام العرب، وما يعنينا هنا الوصف فى الحديث النبوى. وسيتضح لنا عند التطبيق أن فن الوصف فى الحديث النبوى ينطبق عليه ما ذكره البلاغيون حول تعريفه كما سيتضح لنا أثره فى بلاغة البيان النبوى.

ومما يتصل بالموضوع تمام الاتصال: **العلاقة بين الوصف والتصوير** : " فالوصف وسيلة من وسائل التصوير المتعددة، فلقد اعتمد العرب على وسائل كثيرة فى التصوير منها ما كان واضحاً عندهم تمام الوضوح كالتشبيه، والاستعارة، والكناية، وبعضها لم يكن واضحاً فى نتاجهم الأدبى

---

(3) ينظر نقد الشعر ص 130 ط مكتبة الكليات الأزهرية – ط أولى – (1398) هـ.

(1) ينظر الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ص187,186 ط مكتبة القرآن.

(2) انظر الصناعتين ص 84, والعمدة 295,294/2, وأسس النقد الأدبى عن العرب ص 277 أ.د. أحمد بدوى

كالوصف، والقصة، والتجسيم، والتشخيص، والموازنة، والإشارة، والرسم " [1]، وهذه الوسائل نراها بوضوح وجلاء فى البيان النبوى، فالنبى ﷺ قد أوتى جوامع الكلم، وأدبه ربه فأحسن تأديبه، ولهذا لم يغفل البيان النبوى فى تصويره الدقيق هذه الوسائل [2]، " والمتتبع للآثار النبوية يجد صورها الفنية من أحسن المثل لما تنجذب إليه النفوس من القول لما فطر عليه ﷺ من معرفة عناصر التأثير فى البيان، وأوجه الجمال فى اللسان، فجاء حديث النبوى من البلاغة العالمية فى موضع تتطلع نحوه الأبصار، وتتقاصر دونه الأعناق"[3]

أما عن العلاقة بين الوصف والتشبيه: " فالوصف قريب من التشبيه إلا أن الفرق بينهما أن التشبيه مجاز، والوصف راجع إلى حقيقة الشئ وذاته " [4]

أما عن العلاقة بين الوصف والخيال: " فالكلام فى وصف الطبيعة والجمال والحب على طريق الأساليب البيانية إنما هو باب من الأحلام إذ لابد فيه من عينى أو نظرة عاشق، وهنا نبى يوحى إليه فلا موضع للخيال فى أمره إلا ما كان تمثيلاً يراد به تقوية الشعور الإنسانى بحقيقة ما فى بعض ما يعرض من باب الإرشاد والموعظة...، فعمله أن يهدى الإنسانية لا أن يزين لها، وأن يدلها على ما يجب فى العمل لا ما يحسن فى صناعة الكلام، وأن يهديها إلى ما تفعله لتسمو به لا ما تتخيله لتلهو به، والخيال هو الشى الحقيقى عند النفس فى ساعة الانفعال والتأثر به فقط، ومعنى هذا أنه لا يكون أبداً حقيقية ثابتة فلا يكون كذباً على الحقيقة ثم هو ﷺ ليس كغيره من بلغاء الناس يتصل بالطبيعة ليستملى منها، بل هو نبى مرسل متصل بمصدرها الأزلى ليملى فيها... " (5) فوجود الخيال فى الحديث النبوى

---

(1) ينظر التصوير الفنى فى الحديث النبوى ص 491

(2) مما تجدر الإشارة إليه أنه لم تعد الصورة فى النقد الحديث تعنى مجرد التشبيه والاستعارة أو المجاز بصفة عامة, بل هى فى مفهومها كما يعرفها " راى لويس " لوحة مصنوعة من الألفاظ، وقد تخلق الاستعارة أو التشبيه صورة، ولكن من الممكن أيضاً أن تضع الصورة الرائعة عبارة وصفية تحمل إلى تصورنا شيئاً أكثر من مجرد الانعكاس الحرفى للحقيقة الخارجية، وقد انتهى معظم الباحثين المحدثين إلى القول بأن الصورة تعنى كل عناصر الشكل بحيث توضع بإزاء المضمون وهى متحدة معه تماماً بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ودراسة أى نص ينبغى أن تكون فى إطار العلاقات التى تقيمها لغة النص من حيث التراكيب والصور والرموز، وليست اللغة مجرد مفردات حديثة قائمة بذاتها، ولكنها أهم من ذلك بكثير، إنها علاقات متداخلة متشابكة، والنص نسيج متكامل يتداخل فيه إيقاع الذات وإيقاع البيئة والمجتمع والثقافة. التصوير الفنى فى الحديث النبوى ص489

(3) ينظر البيان النبوى ص 229

(4) ينظر الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ص 187 (5) ينظر وحى القلم 23,22/3

أمر غير متوقع إلا عندما يكون مصدراً للتشبيه والتمثيل والتصوير [1]، فالوصف النبوى الذى يعتمد التصوير الذى يعتمد بدوره الخيال إنما يأتى فى أعلى درجات الصدق، وعلى ذروة سنام البلاغة لأنه متصل بهذه النفس الصافية التى تربعت على قمة السمو الروحى، وهذا يدفعنا للحديث عن الخيال كطريق من طرق التعبير عن المعانى الصادقة والتصورات المعقولة طالما نتحدث عن الخيال وصلته بفن الوصف فى البيان النبوى.

" إن إطلاق لفظ التخيل أو الخيال [2] فى صدد الحديث عن المعانى الصادقة والتصورات المعقولة لا يحط من قيمتها، أو يمس حرمتها بنقيصة، فإن علماء البلاغة أنفسهم قد أطلقوه على ما يأتى به البليغ فى الاستعارة المكنية من الأمورالخاصة بالمشبه به، ويثبته للمشبه فقالوا: الأظفار أو إضافتها فى قولك: " أنشبت المنية أظفارها " [3] تخييل أو استعارة تخييلية، وأطلقوه فى الفصل والوصل حين تكلموا على الجامع بين الجملتين، وقسموه إلى عقلى، ووهمى، وخيالى [4] وأطلقوه فى فن البديع على تصوير ما سيظهر فى العيان بصورة المشاهد، ولم يبالوا أن يضربوا لجميع تلك المباحث أمثلة من آيات الكتاب العزيز، وغيره من الأقوال الصادقة.

---

(1) ينظر الحديث النبوى مصطلحه وبلاغته وكتبه ص 72

(2) عالم الخيال: هو الصورة الذهنية التى ترتسم على صفحات عقولنا وتختزن فى ذاكرتنا، واستعادة هذه الصور لا تكون بهيئتها دون تغيير وإلا ما كان للأديب فضل كبير فى الإبداع لأن لكل إنسان صور مختزنة كثيرة يستطيع أن ينقلها كما أحس بها دون جهد، إنما الفضل كل الفضل فى إبراز هذه الصورة المختزنة بعد اختيار للجيد ونفى للردئ، وحذف للعناصر التافهة، وإثبات للعناصر الحية. هذه العملية الإبداعية الكبيرة هى ما يسمى بـ " الخيال الفنى " فالخيال لدى الأديب يوجد مما اختزن فى أعماق النفس مع تنسيق تراعى فيه أوجه التقارب والتشابه، ويتوقف نجاح الأديب على حسن اختيار الصورة التى تجلو معانيه وتغمرها بالوضوح والإشراق, فالصورة المنسقة هى التى تزيد المعنى جمالاً به يقترب البعيد ويجلو الغامض، فينتقل الشعور به إلى النفس حياً قوياً ممتازاً، وعلى قدر هذا الانتقال الحى النافذ من الكاتب إلى القارئ يكمن إبداعه وتوفيقه قوة وضعفاً، وتحليقاً وانحداراً. البيان النبوى ص 232,231

(3) جزء من بيت لأبى ذؤيب الهذلى وتمامه: وإذا المنية أنشبت أظفارها * ألفيت كل تميمة لا تنفع. والشاهد فيه: الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية. فهو هنا شبه المنية فى نفسه بالسبع فى اغتياله للنفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرار ولا رقة لمرحوم، فأثبت لها الأظفار التى لا يكمل الاغتيال فى السبع بدون تحقيقها للمبالغة فى التشبيه، فتشبيه المنية بالسبع استعارة بالكناية، وإثبات الأظفار لها استعارة تخييلية. ينظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص 164/2للعباسى – ط عالم الكتب – بيروت – (1367) هـ (1947) م.

(4) ينظر المفتاح ص 123,122, والإيضاح 88/2

ولقد كان من أساليب القرآن فى الدعوة أن ضرب الامثال الرائعة، وصاغ التشابيه الرائقة، والاستعارات الفائقة، والكنايات اللطيفة، ويضاف إلى ذلك ما كان ينطق به الرسول ﷺ من الأقوال الطافحة بضرب الأمثال والاستعارات والكنايات التى لم تخطر على قلب عربى قبله، فكان مطلع الإسلام مما زاد البلغاء خبرة بتصريف المعانى، وترقى بهم إلى منزلة سامية فى صناعة التخييل [1]، "

والوصف الدقيق النابع من البصيرة النافذة، وحسن الإدراك، والتدفق العاطفى أبلغ من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية، أو الوسائل المألوفة فى التصوير، إنه ينقل لك أمام عينيك المشهد حتى تكاد تحس به بحواسك، وتلمسه بيديك " [2]، وبعد أن اتضح لنا معنى الوصف عند اللغويين والبلاغيين، وعلاقته بالتصوير والخيال فى البيان النبوى، فسيتضح لنا من خلال التطبيق " أن الوصف النبوى من أبرز المقومات الحيوية المباشرة فى إقامة الصورة " [3]، ولكن مما تجدر الإشارة إليه قبل ذلك **بيان أن الوصف فى الحديث النبوى وصف متنوع** فلقد استخدمه النبى ﷺ لإرشاد الناس وتعليمهم ما يقربهم من ربهم، ولبيان حقائق الدين، كما استخدمه لتحذيرهم وتخويفهم مما يبعدهم عن جنابه ورحمته. فنجد فى البيان النبوى أحاديث فى وصف الجنة والنار، ووصف المسلم، ووصف الخوارج، ووصف الشيطان وفعله بابن آدم إلى غير ذلك من الأحاديث التى تتصل بالعقائد، والغيبيات، والعبادات، والأخلاق.

وهذه اللوحات الوصفية مع تنوعها تأتى على درجة واحدة فى البلاغة لأنها خرجت من مشكاة النبوة [4]، فالوصف فيها هو الوصف الذى يقلب السمع بصراً، والمعقول محسوساً، والمتخيل مشاهداً، ويحيط بالموصوف من جهاته المختلفة حتى يحكيه ويمثله للعيان.

فمن الوصف الدقيق : قوله ﷺ: " **إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثونى ما هى؟** " فوقع الناس فى شجر البوادى، قال عبد الله بن عمر: ووقع فى

---

(1) ينظر الخيال فى الشعر العربى ص 67,13,12 للإمام / محمد الخضر حسين. ط تونس – ط ثانية – (1392) هـ. ويراجع للاستزادة فى ذلك أسرار البلاغة ص 138- 240

(2) انظر التصوير الفنى فى الحديث النبوى ص 491

(3) ينظر القصص فى الحديث النبوى ص 178 أ.د. محمد حسن الزير. ط دار طيبة – الرياض – ط رابعة – (1418) هـ (1997) م.

(4) ومشكاة النبوة قد أخذت وقبست من نور القرآن وبلاغته، ولذلك سأحرص قدر المستطاع على أن أبين أثر القرآن فى كل حديث من الأحاديث موضوع البحث سوا أكان ذلك الأثر فى الناحية البلاغية أو فى ناحية الموضوع أو غير ذلك، وفى هذا ربط للحديث النبوى بمنبعه الأصيل !

نفسى أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هى يا رسول الله؟ قال: " **هى النخلة** " [1] فى هذا الحديث يضرب النبى ﷺ مثلاً للمسلم، وفى ضرب الأمثال زيادة فى الإفهام، وتصوير للمعانى لترسخ فى الذهن. وهنا جاء الوصف

معتمداً على التشبيه [2] حيث شبهت النخلة بالمسلم، وجاء الوصف أولاً للنخلة لقوله ﷺ: " **إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها** "، وهذا الوصف من أبرز صفات النخلة التى امتازت به من سائر الأشجار، وهو عدم سقوط ورقها، وليست هذه كل صفات النخلة. ويبدو لى فى ذلك ملحظ بلاغى، فالنبى ﷺ بذكره لهذا الوصف من أوصاف النخلة يريد أن يبين أن النخلة لا ينقطع عطاؤها وخيرها بحال من الأحوال، فورقها فيها سواء أخرج منها الثمر أم لم يخرج، وفى هذا إشارة إلى أن الخير مستمر فى المسلم فى كل حال؛ لأن نفسه مجبولة على حب الخير والعطاء، لا يفارقه حب الخير، ولا يفارق هو فعل الطاعات، فلا ينفصل أحدهما عن الآخر، كما أن النخلة لا يسقط ورقها بحال من الأحوال، ولهذا عقب النبى ﷺ بعد هذا الوصف للنخلة بتمثيلها بالمسلم، وكأنه يلفت الأنظار بداية إلى أن هذه الخصيصة فى وصف النخلة هى أبرز الصفات التى تشابه فيها المسلم، فهذا الترتيب بين الوصف أولاً والتشبيه ثانياً – فيما يبدو لى – أمر مقصود إليه فى البيان النبوى [3]

فالنبى ﷺ ذكر هذه الصفة وحدها من صفات النخلة مع أن لها صفات أخرى كثيرة [4] موجودة فى جميع أجزائها، مستمرة فى جميع أحوالها، فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعاً، ثم

---

(5) أخرجه البخارى من حديث ابن عمر – كتاب العلم – باب قول المحدث حدثنا وأخبرنا – ح (61) – 175/1, وأخرجه مسلم – باب مثل المؤمن مثل النخلة – 153/17

(1) استخدم البيان النبوى وسائل مختلفة للوصف من أهمها: اعتماده التشبيه والتصوير، وقد سبق فى مقدمة البحث بيان العلاقة بين الوصف والتصوير، ومما هو معلوم أن من أغراض التشبيه: تقرير صفة المشبه فى ذهن السامع، وهذا الغرض يكثر فى تصوير الأمور المعنوية والذهنية فى صورة حسية مشاهدة حتى تتمكن الصورة فى نفس السامع وتستقر فى ذهن المخاطب لأن النفس إلى الحس أميل، وكما قالوا: من فقد حساً فقد فقد علماً. ينظر الإيضاح 35/3, وشروح التلخيص 399,398/3, والبيان فى ضوء أساليب القرآن الكريم ص 79أ.د. عبد الفتاح لاشين – ط دار الفكر – القاهرة – ط ثانية – (1420) هـ (2000) م.

(2) ولذلك قال العلماء: إن وجه الشبه بين النخلة والمسلم من جهة عدم سقوط الورق.

(3) قال العلماء: شبه النخلة بالمسلم فى كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام، فإنه من حيث يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس، وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة، ولقد روى البزار بإسناد صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمن مثل النخلة ما أتاك منها نفعك " صحيح مسلم بشرح النووى 154/17, وفتح البارى 177/1

بعد ذلك ينتفع بجميع أجزائها حتى النوى فى علف الدواب، والليف فى الحبال، ومن خشبها وورقها وأغصانها يستعمل جذوعاً وحطباً وعصياً ومخاصر وحصراً وأوانى وغير ذلك، فاكتفى النبى صلى الله عليه وشلم بذكر أبرز الصفات، وترك الباقى ليربط المسلمون بين الصفة المذكورة وبين المسلم ثم يبحثوا بعد ذلك عن باقى وجوه الشبه بين المسلم وبين النخلة، وإذا كانت الصفات السابقة موجودة فى النخلة [1] فى حال خَضِرها وفى حال خَضْرها (قطعها وهى خضراء) فكذلك المسلم خيره

---

(1) جاء ذكر النخيل فى عشرين موضعاً من القرآن بألفاظ " النخل " فى عشرة مواضع، و " نخلاً " فى موضع واحد، و " النخلة " فى موضعين، و" النخيل " فى سبعة مواضع. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص 690. وللنخل أهمية كبيرة ولها منزلة عظيمة فى حياة العرب، ولقد نقل ابن ناقيا عن بعض العرب فى فضل النخل قوله: نعم المال باسقات النخل، الراسخات فى الوحل، المطعمات فى المحل يعنى: التى تشرب بعروقها من الأرض. ولقد وضع العرب لها ولثمارها ولأجزائها أسماءً وأوصافاً، وهم لا يفعلون ذلك إلا فيما له منزلة ومكانة عندهم، ولقد عقد ابن قتيبة فى كتابه – أدب الكاتب – باباً للنخل كما عقد الثعالبى فى كتابه فقه اللغة ثلاثة فصول: الخامس: فى قصر النخل وطولها. والسادس: فى ترتيب سائر نعوتها. والسابع: مجمل فى ترتيب حمل النخل. ولهم فى وصف النخل أشعار كثيرة يراجع بعضها فى كتاب الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادى. ولقد ألف الجاحظ كتابه الموسوم بـ " الزرع والنخل والزيتون والأعناب " فى المفاضلة بين التمر والعنب، وأطال الحجاج والتفضيل من الجانبين. ولقد عقد ابن القيم الفصل الثامن والخمسين من كتابه " مفتاح دار السعادة " للكلام على خلق النخلة وما فيها من العجائب موضحاً وجوه الشبه بينها وبين المسلم، وكان مما ذكره: 1- طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها، كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره. 2- دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاءً، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافى ربه تعالى. 3- سهولة تناول ثمرتها وتيسره، أما قصيرها فلا يحتاج المتناول إلى أن يرقاها، وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها، فتراها كأنها قد هيئت منها المراقى والدرج إلى أعلاها، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللئيم. 4- أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد، وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة، وتقلعها تارة، وتقصف أفنانها، ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة، فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح. 5- أنها كلما طال عمرها ازداد خيرها، وجاد ثمرها، وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله. 6- أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه، وهذا أمر خصت به من دون سائر الأشجار، وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب. 7- أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبداً, بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس فى سعفها وخوصها وليفها منافع، وكذلك المؤمن لا يخلو عن شئ من خصال الخير قط إن أجدب منه جانب أخصب منه جانب فلا يزال خيره مأمولاً وشره مأموناً " ينظر مفتاح دار السعادة 359,355/1, وأدب الكاتب لابن قتيبة ص 80, وفقه اللغة وسرالعربية للثعالبى ص 313,312، والجمان فى تشبيهات القرآن ص 144- 150, والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص 690, ومعجم الألفاظ والأعلام القرآنية ص 520,519

مستمر فى حال حياته وبعد مماته، ففى حياته بالطاعات، وفعل الخيرات، وغير ذلك من وجوه البر، وبعد موته بالصدقات الجارية وما كان سبباً فيه فى حال حياته، وما ورثّه من خير، وبدعوة الناس له، وبدخوله الجنة يوم القيامة، فالمؤمن كله خير ومنافع فى حال حياته وبعد مماته [1]، ومن صفات النخلة: جمال النبات، وحسن هيئة ثمرها، فهى منافع وخير وجمال، وكذلك المؤمن خير كله بكثرة طاعاته، ومكارم أخلاقه، ومواظبته على صلاته وصيامه وقراءته وذكره وصدقته، وسائر وجوه البر. " ومن صفات النخلة الثبات والارتفاع عن الأرض، فكذلك الإيمان ثابت فى قلب المؤمن، وعمله عال مرتفع فى السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما ينال من ثمرة النخلة فى أوقات السنة كلها من الرطب والبُسر (تمر النخل قبل أن يرطب)، والبلح، والزهو، والتمر،

والطلع " [2] كما أن من صفات النخلة: الاستقامة والاعتدال، والمسلم مستقيم على طريق الطاعة، معتدل فى أمور دينه ودنياه، وإن كان يوجد فى بعض النخل إعوجاج فكذلك بعض المسلمين قد يكون فيهم شئ من الاعوجاج فى السلوك، وهذا لاينفى عنهم صفة الإسلام، والمؤمن لا يعرى من لباس التقوى كما لا تعرى النخلة عن الورق، والتقوى خير زاد، وخير لباس [3]، وهذا الوصف النبوى الذى اعتمد التشبيه قد سلك طريق الإيجاز [4] بذكر أبرز الصفات التى تشابه فيها النخلة المسلم ليلفت الأنظار إلى الصفات التى لم تذكر فى الحديث، وليشحذ المسلمون أفكارهم ويتأملوا وجوه الشبه بين المسلم والنخلة فيزدادوا معرفة بصفات المسلم من خلال النظر فى صفات النخلة، وهذا الأسلوب من أساليب توضيح المعقول بالمحسوس [5]، وحث للفكر على النظر فيما بين الأشياء من وجوه الاتفاق، ووجوه الاختلاف [6]. وهذا الوصف النبوى إنما هو أثر من آثار

---

(2) قال القرطبى: وجه التشبيه بينهما من جهة أن أصل دين المسلم ثابت، وأن ما يصدر عنه من العلوم والخير قوت للأرواح مستطاب، وأنه لا يزال مستوراً بدينه، وأنه ينتفع بكل ما يصدر عنه حياً وميتاً. فتح البارى177/1

(1) ينظر الجامع لأحكام القرآن 237/5

(2) ينظر أمثال الحديث ص 223

(3) وهذه السمة " سمة الإيجاز " من أبرز سمات البيان النبوى، ويراجع ما سبق ذكره فى فصل الإيجاز حول حديث " أوتيت جوامع الكلم ".

(4) وذلك لأن المعانى العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم، فإذا ذكر ما يلائمها من المحسوسات ترك الحس والخيال المنازعة، وانطبق المعقول على المحسوس فحصل الفهم التام. ينظر شروح التلخيص 399,398/3, وحاشية الشهاب 265/5

(5) وفيه إشارة إلى أن تشبيه الشئ بالشئ لا يلزم أن يكون نظيره من جميع وجوهه، فإن المؤمن لا يماثله شئ من الجمادات ولا يعادله. أما من زعم أن موقع التشبيه بين المسلم والنخلة من جهة كون النخلة إذا قطع رأسها

المثل القرآنى فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: 24،25) فأكثر المفسرين على أن الشجرة الطيبة هى النخلة [1]، ولقد قرأ النبى ﷺ قوله تعالى: (**ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة...**)، **وقال: " هى النخلة "** [2] " ولقد وصف هذه الشجرة بأربعة أوصاف: الأول: قوله " **طيبة** " أى كريمة المنبت. الثانى: رسوخ أصلها وذلك يدل على تمكنها، وأن الرياح لا تقصفها فهى بطيئة الفناء، وما كان كذلك حصل الفرح بوجدانه. والثالث: علو فرعها وذلك يدل على تمكن الشجرة ورسوخ عروقها، وبعدها عن عفونات الأرض، وعلى صفائها من الشوائب. الرابع: ديمومة وجود ثمرتها، وحضورها فى كل الأوقات " [3]، وهذه الأوصاف تنطبق على المؤمن تمام الانطباق، فالإيمان راسخ وثابت فى قلب المؤمن لا تزعزعه البلايا والمحن، وهوإيمان مثمر بالعمل الصالح الذى يدل على صلاح المؤمن المتصل بالملأ الأعلى، وهوإيمان يعلو على شهوات الدنيا وملاذها، ويحلق فى آفاق من السمو الروحى.

وهذه الأوصاف فى الشجرة الطيبة تنطبق على أوصاف المؤمن التى سبق ذكرها تمام الانطباق " فالمقصود بالمثل المؤمن، والنخلة مشبهة به، وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك " [4]

ومن الوصف الدقيق : وصف حال أول من يدخلون الجنة والذين يلونهم ونعيمهم. قال رسول الله ﷺ: " **أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على أثرهم كأشد كوكب إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرئ منهم زوجتان: كل واحدة منهما يُرى مُخ ساقها من وراء لحمها من الحسن. يسبحون الله**

ماتت، أو أنها لا تحمل حتى تلقح، أو لأنها تموت إذا غرقت، أو لأن لطلعها رائحة منى الآدمى، أو لأنها تعشق، أو لأنها تشرب من أعلاها... فكلها أوجه ضعيفة؛ لأن جميع ذلك من المشابهات مشترك فى الآدميين لا يختص بالمسلم، وأضعف من ذلك من زعم أن ذلك لكونها خلقت من فضلة طين آدم، فإن الحديث فى ذلك لم يثبت. فتح البارى 177/1

(6) وهو قول ابن مسعود، وابن عباس، وأنس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وابن زيد.ينظر تفسير الكشاف 519/2, وتفسير ابن كثير 485/2, والبحر المحيط 431/6, وتفسير أبى السعود 189,188/3

(7) أخرجه الترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أنس. فتح البارى 178/1

(1) ينظر البحر المحيط 432/6

(2) ينظر الأمثال فى القرآن ص 233,232. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الحديث قد ذكره ناصح الدين ابن الحنبلى ضمن أقيسة النبى صلى الله عليه وسلم فى عدة مواضع من كتابه ص146,111,94

بكرة وعشياً، لا يسقمون ولا يمتخطون ولا يبصقون، آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ومجامرهم الألّوة – قال أبو اليمان: يعنى العود – ورشحهم المسك " [1] إننا هنا أمام لوحات وصفية رائعة لمشاهد من عالم الغيب لمنازل المؤمنين يوم وما أعد الله لهم من النعيم فى الجنة. ولقد جاء هذا الوصف النبوى الدقيق معتمداً على التشبيه فى بعض أجزائه، ومعتمداً على العبارة الوصفية التى لا تعتمد على الصورة البيانية المعهودة من التشبيه والاستعارة والكناية فى أجزاء أخرى.

وبدأ هذا الوصف النبوى بذكر مراحل النعيم التى يمر بها أول زمرة تدخل الجنة من بداية دخولهم إلى حين استقرارهم. فبدأ بتشبيه صورة أول زمرة تدخل الجنة بصورة القمر ليلة البدر، وتشبيه الذين يلونهم بصورة أشد كوكب إضاءة. وهنا سر بلاغى فى الفرق بين التشبيهين: فالتشبيه الأول: جاء بصورة " **القمر ليلة البدر** "، والوجه فيه الهيئة والحسن،

والضوء. والتشبيه الثانى: بـ " **أشد كوكب درى** "، والوجه فيه الإضاءة فقط [2]، وهنا نقف أمام هذا النور الذى يشع من أجسادهم وصورهم، هذا النور الذى يخطف الأبصار، ويبهر المتأملين، فصورة القمر ليلة البدر وما هو عليه فى الضوء معروفة بما فيها من جمال شكله، وحسن هيئته. إنهم حين يدخلون الجنة يكونون فى قمة الجمال والكمال والبهاء والحسن فلا يصيبهم أى مظهر من مظاهر النقص، فلقد مضت الدنيا بنقصها وبلائها، وهم اليوم فى دار الكمال لا النقصان. أما الذين يلونهم فصورتهم معروفة حين ننظر إلى الكوكب الدرى يلمع فى وسط السماء فى الليل، ولكن التشبيه هنا جاء فى الإضاءة وحدها. وهذا لا يعنى نقصان حالهم، ولكن يعنى اختلاف درجاتهم فى النعيم مع استوائهم فى أصل الكمال والبعد عن كل مظاهر النقص [3] لقد

---

(3) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة –كتاب بدء الخلق – باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة – ح (3138) – 367/6، وأخرجه مسلم –كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – 173/9

(1) وقوله: " كأشد كوكب " أفرد المضاف ليفيد الاستغراق فى هذا النوع من الكوكب. يعنى إذا تقصيت كوكباً كوكباً رأيتهم كأشده إضاءة. ينظر شرح الطيبى على المشكاة 254,253/10

(2) قال تعالى: (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً) (النساء: 96,95)، وقال تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) (الأنفال: 2-4). وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم " قالوا: يا

وصفهم فى الزمرة الأولى والذين يلونهم بالإضاءة عند دخولهم الجنة، وهذا النور والضوء إنما هو نور وضوء الأعمال الصالحة، فطالما صلوا بالليل والناس نيام [1]، وطالما تحملوا بلاء الدنيا وعناءها. إن طاعتهم لله قد أثمرت ذلك النور الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم حيث بين ذلك القرآن بإضافة النور إليهم فى أكثر من موضع، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ [2]بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ [3] قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (الحديد: 12،13)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: 8)

ولم يقف الوصف النبوى الدقيق لهذا المشهد الرائع المهيب عند الصورة الظاهرة، بل انتقل إلى الصورة الباطنة، فبين إن " **قلوبهم على قلب رجل واحد** " [4] فلا اختلاف بينهم ولا تحاسد ولا تباغض. إننا هنا أمام صورة مكتملة المعالم فى الظاهر والباطن، ففى الظاهر بالحسن والبهاء، وفى

رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال: " بلى والذى نفسى بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ". وأخرج البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمان، ومنه تفجر أنهار الجنة " وينظر هذه الأحاديث وغيرها فى كتاب حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص 109- 118- ط دار ابن رجب – ط ثانية – (1426) هـ (25005) م.

(3) وفى الحديث: " بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة " أخرجه أبو داود والترمذى من حديث بريدة بن الحصيب مرفوعاً. مشكاة المصابيح 285/2

(4) لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم، ومن وراء ظهورهم فجعل النور فى الجهتين شعاراً لهم وآية لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا، وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون سعى بسعيهم ذلك النور جنيباً لهم ومتقدماً. الكشاف 473/4

(1) لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف بهم، وهؤلاء مشاة. وانظرونا وانظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به. الكشاف 473/4

(2) قوله: " قلب رجل واحد " من التشبيه المحذوف الأداة، أى كقلب رجل واحد, وقد فسره بقوله: " لا تحاسد بينهم ولا اختلاف " أى أن قلوبهم طهرت من مذموم الأخلاق. فتح البارى 374/6

الباطن بالطهارة، والنقاء، والصفاء، وهذا يظهر بلاغة الوصف فى البيان النبوى، ويؤكد ما سبق ذكره من أنه وصف كاشف جامع لكل معالم الصورة.

وبعد الحديث عن كمالهم فى ذاتهم انتقل إلى الحديث عن النعيم الذى أعد لهم، فذكر الزوجتين من الحور العين، وبين صفاء ورقة بشرتهما فقال: " **لكل امرئ منهم زوجتان** [1] **كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن** " إن هاهنا صفاءً وبياضاً فى عظامهن ولحمهن ظاهراً وباطناً ليناسب حال هؤلاء المؤمنين فى الصفاء والنقاء، وهنا تكتمل معالم الصورة، ويقترن الشكل بشكله، والإلف بإلفه، فيزداد النور والبهاء، والحسن والضياء. فما أروع هذه الصورة النبوية حين نتخيلها أمام أعيننا، وقد امتزج النوران بين هؤلاء الداخلين إلى الجنة، والحور العين اللائى وصفهن القرآن بأنهن: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمان: 58)، وقد أراد بذلك صفاء الياقوت فى بياض المرجان، فشبههن فى صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان [2]، إن هذا النعيم المقيم والعطاء الجزيل ليلهمهم التسبيح والتكبير كما يلهمون النفس [3]، وليس المقصود بالتسبيح بكرة وعشياً الحقيقة لفناء الدنيا، وإنما المقصود هو الديمومة [4]. وبعد هذا الوصف الدقيق لصورتهم وما أعد لهم من الحور العين انتقل البيان النبوى إلى وصف حالهم فهم " **لا يسقمون، ولا يمتخطون، ولا يبصقون، آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب** ".

---

(3) يقول الطيبى: الظاهر أن التثنية للتكرير لا للتحديد كقوله تعالى: (ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) (الملك: 4) لأنه قد جاء أن للواحد من أهل الجنة العدد الكثير من الحور العين. ويقول ابن القيم: ولا ريب ان للمؤمن فى الجنة أكثر من اثنتين لما فى الصحيحين من حديث أبى عمران الجونى عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن للعبد المؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤ مجوفة طولها ستون ميلاً للعبد المؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً " ينظر شرح الطيبى على المشكاة 254/10, وحادى الأرواح ص 311,310

(1) ويدل عليه ما قاله عبد الله: إن المرأة من نساء الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقيها من ورائهن ذلك بأن الله تعالى يقول: (كأنهن الياقوت والمرجان) (الرحمان: 58) ألا وإن الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكاً ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر. الكشاف 451/4, وحادى الأرواح ص 299

(2) وهذا ما فسره به جابر رضى الله عنه فى حديثه عند مسلم. ووجه الشبه أن تنفس الإنسان لا كلفة فيه عليه ولابد له منه، فجعل تنفسهم تسبيحاً، وسببه أن قلوبهم تنورت بمعرفة الرب سبحانه، وامتلأت بحبه، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره. فتح البارى 375/6

(3) كما تقول العرب أنا عند فلان صباحاً ومساءً لا يقصد الوقتين المعلومين بل الديمومة، وقيل يسبحون بكرة وعشياً أى قدرهما. شرح الطيبى 254/10, وفتح البارى 375/6

ما أروع هذا الوصف الدقيق الجامع، فلقد تناول حالهم فى الداخل وما يحتاجون إليه فى الخارج من الأوانى والأمشاط. وهنا سر دقيق. فهم لا يسقمون ولا يمتخطون ولا يبصقون وهذا ما يناسب ما هم عليه من الضياء والنقاء والصفاء والحسن والبهاء، كما أن آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، وفيهما من الصفاء واللمعان والبريق ما هو معلوم [1]، فهنا ضياء ونور وصفاء فى كل شئ، فى ظاهرهم وباطنهم، فى كل ما يحيط بهم [2]، ويبدو لى هنا لوحة وصفية يشع النور من كل أجزائها فى تناسق وتلاحم. هاهم المؤمنون والنور يشع منهم، وهاهى الحور العين فى صفائها ونقائها، وهاهى الآنية والأمشاط فى لمعانها وبريقها، هل بقى شئ؟ نعم بقيت المجامر [3]، وهى " **الألوّة** " [4]، ولكن جعلت مجامرهم نفس العود بأن يشتعل بغير نار، بل بقوله: " كن ". لقد أحيط هذا الضياء بهذه

الرائحة الطيبة مع رشحهم المسك [5]، فلقد جاءت هذه الرائحة الطيبة من رشحهم ومن حولهم لتكتمل معالم الصورة، وبهذا يكون البيان النبوى قد وصف لنا حال هؤلاء الداخلين إلى الجنة وصفاً كاشفاً جامعاً. وهو وصف لمشاهد من عالم الغيب عرضها علينا فى إيجاز وفى تناسق، وفى تلاحم عجيب جمع فيه بين أجزاء الصورة الرائعة التى شاع النور وانتشر فى جميع أجزائها.

---

(4) أى عند الناس فى الدنيا، فكيف يكون لمعانهما فى الجنة التى ليس معنا منها إلا الأسماء !!

(5) فبناء الجنة كما جاء فى الحديث " لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها (الطين الذى يجعل بين ساقى البناء) المسك الأظفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران " أخرجه أحمد والدارمى والترمذى من حديث أبى هريرة. وهو حديث ضعيف. وفى الحديث " ما فى الجنة شجرة إلا وساقها ذهب " أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة. وهو حديث ضعيف أيضاً. مشكاة المصابيح 264,263/10

(6) يقال: ثوب مجمر ومجمر: أى مبخر بالطيب، ولعله مأخوذ من جمر النار لأن الغالب فى البخور أن يجعل الجمر فى المجمر، ويوضع الطيب عليه ما كان عود ونحوه ثم يتبخر به. ويقال للذى يلى ذلك: مجمر ومجمر، ومنه نعيم المجمر الذى كان يلى إجمار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال الجبّان: يقال للذى يلى ذلك جامر. ينظر المجموع المغيث فى غريبى القرآن والحديث مادة " جمر " 346/1 للإمام محمد بن عيسى المدينى الأصفهانى – ط دار المدنى – جدة – ط أولى – (1406) هـ (1986) م.

(7) بفتح الهمزة وضم اللام: أى العود الهندى الذى يتبخر به. صحيح مسلم بشرح النووى 172/9

(1) قد يقال: وأى حاجة لهم إلى المشط وهم مرد وشعورهم لا تنسخ ؟ وأى حاجة لهم إلى البخور وريحهم أطيب من المسك ؟ أجاب القرطبى بأن نعيم أهل الجنة من أكل وشرب وكسوة وطيب ليس عن ألم الجوع أو ظمأ أو نتن، وإنما هى لذات متتالية ونعم متوالية، والحكمة من ذلك أنهم ينعمون بنوع ما كانوا ينعمون به فى الدنيا. وقال النووى: مذهب أهل السنة أن تنعم أهل الجنة على هيئة تنعم أهل الدنيا إلا ما بينهما من التفاضل فى اللذة، ودل الكتاب والسنة على أن نعيمهم لا انقطاع له. فتح البارى 374,373/6

وهذه الصورة الرائعة هناك روابط وقواسم مشتركة بينها وهى الضياء، والبهاء، والحسن، واللمعان، والصفاء!

لقد جاء نورهم من أعمالهم الصالحة، وقد جاء حسنهم وبهاؤهم من طهارتهم الحسية والمعنوية فى الدنيا، فلينظر كل منا ومن خلال هذا الحديث الرائع إلى ما قدم من نور لنفسه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (الحديد: 12) فى تصورى مهما أوتى المرء من بلاغة وبراعة لا يستطيع أن يصف حال أهل الجنة بأبلغ مما وصفه به البيان النبوى لأن النبى ﷺ يصف وصف من رأى وسمع، مع ما أوتى من جوامع الكلم، والاتصال بالملأ الأعلى فى كل وقت وحين.

ومن روائع الوصف النبوى : وصف الخوارج، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: بعث على رضى الله عنه إلى النبى ﷺ بذهيبة فقسمها بين أربعة: الأقرع بن حابس الحنظلى ثم المجاشعى، وعيينة بن بدر الفزارى، وزيد الطائى، ثم أحد بنى نبهان،علقمة بن علاثة العامرى، ثم أحد بنى كلاب. فغضبت قريش والأنصار، قالوا: يعطى صناديد أهل نجد ويدعنا. قال: " **إنما أتألفهم** ". فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، كث اللحية، محلوق، فقال: اتق الله يا محمد، فقال: " **من يطع الله إذا عصيت؟ أيأمننى الله على أهل الأرض فلا تأمنونى؟** " فسأله رجل قتله – أحسبه خال بن الوليد – فمنعه فلما ولى قال: " **إن من ضئضئ هذا – أو فى عقب هذا – قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من** الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون

أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد "[1]، وفى رواية: " **إنه يخرج من ضئضئ**[2] **هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** " **وأظنه قال: " لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود** "[1]

---

(1) أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد –كتاب الأنبياء – باب قوله عز وجل: (وإلى عاد أخاهم هوداً) – ح (3232) – 434,433/6, وأخرجه مسلم - باب إعطاء المؤلفة ومن يخاف على إيمانه – 161/7- 171

(2) الضئضئ: بضادين معجمتين مكسورتين بينهما تحتانية ساكنة، وفى آخره تحتانية مهموزة هو أصل الشئ، والمراد النسل والعقب. يقال: ضئضئ صدق وضؤضؤ صدق، يريد أنه يخرج من نسله وعقبه، ومن رأيه ومذهبه. قالوا: ولأصل الشئ أسماء كثيرة منها: الضئضئ، والنجار بكسر النون، والنحاس، والسنج بكسر السين وإسكان النون،

وقال رسول الله ﷺ: " **يأتى فى آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة** " [2] فى هذا الحديث الشريف نحن أمام وصف دقيق يتخطى حدود المكان والزمان ليكشف لنا عن أوصاف بعض من ينتسبون إلى المسلمين ولكنهم عبء عليهم، وحرب لهم، وأمان وسلم لعدوهم... ،هذه الفئة التى نراها ونعايشها اليوم كما كانت بالأمس وفى الماضى، وكما ستكون فى المستقبل وضع لنا البيان النبوى أوصافاً لها تكشف عن حقيقتها وتوضح فكرها، ومدى فهمها للدين، وعوار هذا الفهم. والوصف النبوى هنا ينطبق عليه الخصيصة التى أشرت إليها من قبل، وهى أنه وصف يتجاوز حدود الزمان والمكان ليربط الماضى بالحاضر والمستقبل، وذلك لأنه خرج ممن لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: 4). ولقد ذكر النبى ﷺ أوصافهم فى أكثر من حديث، وسأجمع هذه الأوصاف كما جاءت فى الصحيحين، وأتناولها بالتحليل البلاغى والأدبى.

إنهم قوم يقرءون القرآن، وفى رواية يتلون كتاب الله ليناً رطباً لا يجاوز حناجرهم. لا يجاوز إيمانهم حناجرهم. تحقرون صلاتكم مع صلاتهم [3] وليس قراءتكم إلى قراءتهم بشئ

ولا صيامكم إلى صيامهم بشئ. يقولون من قول خير البرية. حدثاء أو أحداث أو حدّاث الأسنان. سفهاء الأحلام. يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان.

هذه عبادتهم كما جاء فى وصفهم: " **يقرءون القرآن ليناً رطباً لا يجاوز حناجرهم** ". ما أدق هذا الوصف. فهم لا نصيب لهم من القراءة للقرآن إلا ترديد الألسنة لأن القرآن لم ينفذ إلى

والعنصر، والأرومة. صحيح مسلم بشرح النووى 162/7, وشرح الطيبى 121/11, وفتح البارى 668/7, وعون المعبود 730/8

(3) أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد – كتاب المغازى – ح (4183) – 730/8

(4) أخرجه البخارى من حديث سويد بن غفلة – كتاب فضائل القرآن – باب إثم من راءى بقراءته القرآن أو تأكل به أو فجر به – ح (4869) – 730/8, وفى كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتلهم – باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم – ح (6686) – 295/12

(5) جاء فى رواية لمسلم من حديث على " يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشئ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشئ، ولا صيامكم إلى صيامهم بشئ... " الحديث – باب التحريض على قتل الخوارج 171/7

قلوبهم، إنه عند الحناجر [1] لا يتجاوزها، فلم تشرب قلوبهم حبه وفهمه كما يجب أن يكون، إنه لين [2] رطب بالنسبة لهم، سهل عليهم فى الحفظ والتلاوة، أما فى الفهم والعمل فهم لا رصيد لهم [3]، فهم يرددونه ويلوون ألسنتهم به تحريفاً لمعانيه، وميلاً لأهوائهم، فصورتهم وهم يقرءون القرآن صورة خادعة لمن لم يعرف حقيقة فكرهم، فمن رآهم وهم يقرءون القرآن بسهولة ولين ظنهم من العالمين الفاقهين حيث لان القرآن لهم فى التلاوة.

إن صورتهم الخادعة فى العبادة لا تقف عند قراءة القرآن، بل من أوصافهم: أنكم " **تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وقراءتكم مع قراءتهم، وصيامكم مع صيامهم** "، فهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويكثرون من التلاوة للقرآن، بل ويقولون من خير قول البرية! ولكن ليس لهم روح العبادة، وإنما لهم مظاهرها وظاهرها، فهم لا يعرفون من الدين إلا القشور، وكما جاء فى وصفهم " **لا يجاوز إيمانهم حناجرهم** ". فكما أن القرآن لم يستقر فى قلوبهم فهماً وعملاً كذلك الإيمان إيمان باللسان لا بالجنان، إيمان بالأقوال لا بالأفعال، وما أبعد هذا الصنف من الناس عن حقيقة الدين. فالإيمان لم ينفذ إلى قلوبهم، إنما وقف عند حلاقيمهم، وما وقف عند الحلاقيم لا يصل إلى القلب!

ولذلك فهم " **يقولون من خير قول البرية** "[4] كما وصفهم البيان النبوى فكلامهم فى الظاهر

---

(1) الحناجر: بالحاء المهملة والنون ثم الجيم جمع حنجرة بوزن قسورة، وهى الحلقوم والبلعوم، وكله يطلق على مجرى النفس، وهوطرف المرئ مما يلى الفم، وقال صاحب النهاية: الحنجرة: رأس الغلصمة حيث تراه ناتئاً من خارج الحلق والجمع حناجر. شرح الطيبى 123/7, وفتح البارى 301/12

(2) فى أكثر النسخ " ليناً " بالنون أى سهلاً، وفى كثير من النسخ "لياً " بحذف النون. وأشار القاضى إلى أنه أكثر رواية شيوخهم، ومعناه: سهلاً لكثرة حفظهم. قال: وقيل: " لياً " أى يلوون ألسنتهم به أى يحرفون معانيه وتأويله. قال: ويكون من اللى فى الشهادة، وهو الميل قاله ابن قتيبة. صحيح مسلم بشرح النووى164,163/7

(3) وقال الطيبى: لا تتجاوز قراءتهم عن ألسنتهم إلى قلوبهم فلا يؤثر فيها، أو لا يتصاعد من مخرج الحرف وحيز الصوت إلى محل القبول والإنابة. شرح الطيبى 120/11

(4) هو من المقلوب، والمراد: " من قول خير البرية " أى من قول الله وهو القرآن فهو خير قول البرية، ويحتمل أن يكون على ظاهره والمراد: القول الحسن فى الظاهر وباطنه خلاف ذلك كقولهم: لا حكم إلا الله فى جواب على رضى الله عنه. ويحتمل أن يكون المراد بـ " خير البرية " النبى صلى الله عليه وسلم. ويرى الطيبى أن الوجه الأول أولى لأن " يقولون " بمعنى يحدثون ويأخذون أى يأخذون من خير ما يتكلم به البرية. وينصره ما روى فى شرح السنة أن ابن عمر = = رضى الله عنه كان يرى الخوارج شرار الخلق ويقول: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها على المؤمنين. وما ورد فى حديث أبى سعيد " يدعون إلى كتاب الله، وليسوا منا فى شئ "شرح الطيبى122/7

حسن معسول، ولكن فى الباطن فهمهم للدين مدخول، إن عبادتهم كلها ظواهر لا رصيد لها من إيمان أو إخلاص، وقراءتهم كلها حركات للألسنة والحناجر لا وزن لها، ولا تستند إلى فهم سديد. ولكن هل يقف وصفهم عند هذا الحد؟ لا، فهم " **أحداث الأسنان** " [1] صغار السن لم يسبروا أغوار العلم، ولم يعيشوا فى رحابه وقتاً كافياً فهماً وعملاً، ولم يكتسبوا الخبرة الكافية لصغر سنهم، وضيق عطنهم [2]، وأفن عقولهم.

وعن هذه العقول فحدث ولا حرج، ولن تجد لوصف عقولهم أبلغ من قوله ﷺ: " **سفهاء الأحلام** "[3]، فعقولهم ضعيفة رديئة صغيرة لا قدرة لها على الفهم والتحليل والاستنباط، ولا عناية لها بمعالى الأمور، وإنما عنايتهم بسفاسف الأمور، فهم يهتمون بالقشور ويتركون الجوهر، يهتمون بالظاهر ويغفلون الباطن، ولا صبر لهم على فهم الدين والفقه لمقاصده، ولا ثبات عندهم أمام الشبهات، ولا رسوخ لأقدامهم فى الحق، فهم متزعزعون عند الفتن، متخبطون فى النوازل، يضعون الأدلة فى غير مواضعها، انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكافرين فجعلوها على المؤمنين. ولذلك فهم " **يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** " [4]، وما أروع هذا الوصف الدقيق لحالهم مع الدين، فهم كما يكفرون الناس على أهون الأسباب، ويأثمونهم على أصغر الأمور، فهم كذلك يخرجون من الدين بنفس السرعة التى دخلوه بها، فلا ثبات لهم على الحق، ولا نصيب لهم من الصبر، وكما يقول الشريف الرضى: " شبه عليه الصلاة والسلام دخولهم فى الدين وخروجهم منه بسرعة من غير أن يتعلقوا منه بعقدته، أو يعيقوا (يلتصقوا) بطينته بالسهم

---

(1) الأحداث: جمع حدث بفتحتين. والحدث: الصغير السن. هكذا فى أكثر الروايات، ووقع للسرخسى والمستملى حُداث بضم أوله وتشديد الدال، ومعناه شباب جمع حديث السن أوجمع حدث، وهو كناية عن الشباب وأول العمر. قال ابن التين: حداث: جمع حديث مثل كرام جمع كريم، وكبار جمع كبير. والحديث: الجديد من كل شئ، ويطلق على الصغير بهذا الاعتبار. وفى علامات النبوة حدثاء بوزن سفهاء، وهو جمع حديث كما تقدم تقريره. والأسنان: جمع سن والمراد به العمر، والمراد أنهم شباب. شرح الطيبى 122/7, وفتح البارى301/12

(2) وهذا لا يعنى أن العلم بالسن، وإنما المقصود: الفهم الصحيح للدين على أيدى العلماء العاملين المخلصين، والتجرد لله عزوجل، فقد يؤتى المرء الفهم وهو صبى، ومعلوم ما كان من شأن ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، وعائشة أم المؤمنين، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهم أجمعين. وما أكثر العلماء العاملين الفاهمين الذين باشروا الفتيا والتدريس وهم فى سن صغيرة كالشافعى وغيره لأنهم تلقوا العلم وأخذوه من منابعه الصافية مع الإخلاص والتجرد لله، والفهم السديد للدين، ومن نتحدث عنهم فى الحديث على النقيض من هؤلاء.

(3) الأحلام: جمع حلم بكسر أوله، والمراد به العقل. والمعنى: أن عقولهم رديئة صغيرة. والسفه فى الأصل: الخفة والطيش، وسفه فلان رأيه إذا كان مضطرباً لا استقامة له. شرح الطيبى22/7

(4) الرمية بفتح الراء وكسر الميم وتشديد الياء: الصيد الذى ترميه وتقصده. عون المعبود79/13

الذى أصاب الرمية وهى الطريدة المرمية ثم خرج مسرعاً من جسمها، ولم يعلق بشئ من فرثها ودمها. وذلك من صفات السهم الصائب لأنه لا يكون شديد السرعة إلا بعد أن يكون قوى النزعة "[1]

ويبدو لى فى هذا التصوير النبوى الدقيق والذى رافق الوصف هنا أكثر من سر بلاغى:

الأول: الصلابة والشدة عند هؤلاء فى التعامل مع الناس، وفى أمور الدين، وخاصة فى سفاسف الأمور. ويبدو ذلك واضحاً من خلال قوله عليه الصلاة والسلام: " **كما يمرق السهم من الرمية** "، وذلك من صفات السهم الصائب الصلب لأنه لا يكون شديد السرعة إلا بعد أن يكون قوى النزعة. فالصلابة فى السهم، والقوة والسرعة فى اندفاعه تدفعه إلى الرجوع والخروج من الطريدة بعد إصابتها. وهذا وصف دقيق لحالهم، وتصوير فريد لهم فهم لا رفق عندهم فى التعامل مع الناس، يغلب عليهم جفاف الروح، وتقطيب الجبين، وتعقيد الأمور، وتضخيم الصغير، وتضغير الكبير. وهذا واقع يعرفه من عامل هؤلاء [2] وعرف حقيقة طباعهم، كما أن صلابة السهم موجودة فى آرائهم، هم لا يرجعون عن آرائهم الباطلة وفهمهم المدخول للدين، ولا يزعنون للحق [3]، فصلابة الرأى من سماتهم مع فساد ما هم عليه من الفهم، وهذه حقيقة تاريخية معروفة عن الخوارج، وحقيقة واقعية معروفة عن أشباههم اليوم! فهؤلاء يؤثرون أن يكونوا رؤوساً فى الباطل على أن يكونوا ذيولاً فى الحق!

الثانى : السرعة والاندفاع عند هؤلاء، وذلك أيضاً من خلال قوله ﷺ: " **يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** " [4]، والسرعة والاندفاع عند هؤلاء فى الحكم على الناس بالفسق والكفر، والاندفاع فى التعامل مع الناس، وعدم الصبر على تحصيل العلم، والسرعة فى اتهام الناس

---

(1) ينظر المجازات النبوية ص 37. ويقول الطيبى: " يريد أن دخولهم فى الدين ثم خروجهم منه ولم يستمكنوا منه بشئ كالسهم الذى يصيب الصيد فيدخل فيه ويخرج منه، ومن شدة سرعة خروجه لقوة الرامى لا يعلق من جسد الصيد بشئ ". شرح الطيبى 123/7

(2) وهذه الصفات المذكورة فى الحديث تنطبق تمام الانطباق على بعض من ينتسبون إلى الدين من أمثال هؤلاء الذين يسمونهم: الظاهرية الجدد أو أصحاب الفكر الواحد أو خوارج العصر، ويعرف حقيقتهم من يعمل فى ميدان الدعوة على علم وهدى وبصيرة.

(3) ومعلوم ما عاناه سيدنا على رضى الله عنه من الخوارج، فلم يرجع إلى الحق إلا بعضهم، ورفض أكثرهم الرجوع، وبعد ذلك سفكوا الدماء الزكية الطاهرة من دماء أبناء الصحابة وغيرهم. وينظر فى آرائهم الملل والنحل 25/2 للشهرستانى. ط مكتبة صبيح وأولاده.

(4) يقول الطيبى: " ضرب مثلهم فى دخولهم فى الدين وخروجهم منه بالسهم الذى لا يكاد يلاقيه شئ من الدم لسرعة نفوذه تنبيهاً على أنهم لا يتمسكون من الدين بشئ، ولا يلوون عليه ". شرح الطيبى129/7

زوراً وبهتاناً؛ لأنهم لا يؤيدونهم فيما يذهبون إليه [1]، إنهم يخرجون من الدين بنفس السرعة التى دخلوها فيه، وتشاهد كثيراً من ذيول هؤلاء فى عصرنا لا يلبث أحدهم فى طريق الالتزام قليلاً حتى يحيد عن الحق، ويرجع إلى سابق عهده فى الفسق؛ لأنه لم يتعلق من الدين إلا بالقشور التى لا تبنى علماً، ولا تؤسس فهماً، وسرعتهم فى ذلك بقدر ما يدخل السهم فى الصيد ويخرج منه بسرعة!

وليس هناك وصف دقيق يصور حالهم مع الإيجاز أبلغ من هذا الوصف النبوى. فهذا الحديث بالإضافة إلى أنه معجزة من معجزات النبى ﷺ يشتمل على أسرار بلاغية كاشفة عن حقيقة هؤلاء فى كل مكان وزمان. إن أفن عقولهم، وسوء فهمهم للدين، وصلابتهم فى التمسك بالباطل، واندفاعهم فى رفض الحق، كل ذلك يدفعهم إلى أن " **يقتلوا أهل الإسلام، ويدعوا أهل الأوثان** " كما وصفهم البيان النبوى [2]

وهذا وصف دقيق لهؤلاء المارقين فى كل زمان ومكان، فهم يفعلون ذلك بالمسلمين استناداً إلى تأويل فاسد لآيات القرآن، وفهم مدخول لحقيقة الدين. وهذه حقيقتهم فى عصرنا كما كانت حقيقتهم فى الماضى، وكما ستكون فى المستقبل [3]، إن الوصف النبوى هنا يتميز بخصيصة ظاهرة، **وهى أنه وصف جامع كاشف مركز على أبرز صفات هؤلاء الخوارج** [4]

---

(1) وكم رأينا من أمثال هؤلاء الذين يسارعون إلى تكفير الناس لمجرد أنهم يخالفونهم فى الرأى، ويندفعون فى التمسك بآرائهم الفاسدة وفهمهم المدخول، ويبادرون إلى اتهام الناس فى نياتهم. نسأل الله لهم الهداية.

(2) وقد حدث ذلك فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه حين خرجوا عليه، وكان ممن قتلوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذوه فأضجعوه وذبحوه على ضفة النهر، وأقبلوا على امرأته وهى حبلى متم فبقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة من طئ، وقتلوا أم سنان الصيداوية، وبعث إليهم على رضى الله عنه الحارث بن مرة العبدى يسألهم فيما بلغه عنهم فقتلوه أيضاً، ورفضوا تسليم القتلة فقاتلهم على فى معركة النهروان المشهورة فى سنة ثمان وثلاثين من الهجرة حتى قضى على أكثرهم. ينظر فى أخبارهم تاريخ الطبرى 113/3- 125 ط دار الكتب العلمية، والملل والنحل 25/2, وما بعدها.

(3) وكم شاهدنا وسمعنا عن هؤلاء الذين يقتلون الأبرياء بحجة الإصلاح والعودة إلى المجتمع الإسلامى، وقد عبر النبى عن ذلك بقوله: " إن من ضئضئ هذا " أى من نسله وعقبه، ومن رأيه ومذهبه، ومن على شاكلته ممن عرفهم التاريخ، وعرفهم عصرنا الذى نعيش فيه.

(4) جاءت أحاديث أخرى فى وصفهم منها: ما أخرجه أبو داود فى سننه من حديث أبى سعيد الخدرى وأنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد السهم على فوقه (موضع الوتر من السهم)، هم شر الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله، وليسوا منا فى شئ، من قاتلهم كان أولى بالله منهم " قالوا: يا رسول الله ما سيماهم ؟ قال: " التحليق ". ومعنى

وهو وصف متخطى لحدود الزمان والمكان.

فلقد قال رسول الله ﷺ: " **لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد** "، وفى رواية " **لأقتلنهم قتل ثمود** "[1]، وفى رواية " **فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة** "[2]. وفى ذلك معجزة ظاهرة للنبى ﷺ، فهم مع نهيه عن قتل أصلهم (وهو الرجل الذى قال لرسول الله: اتق الله يا محمد) أراد إدراك خروجهم واعتراضهم المسلمين بالسيف، ولم يكن ظهر ذلك فى زمانه، وأول ما ظهر فى زمان على رضى الله عنه كما هو مشهور [3]. فهؤلاء بسفكهم للدماء، وفهمهم المدخول للدين، وعدم نفاذهم إلى حقيقة الإسلام يمثلون خطراً عظيماً على المسلمين؛ لأنهم ينتسبون إلى الإسلام بينما يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان [4] فهم رأس الفتنة، ومنبع البلوى، ومصيبة المسلمين فيهم أكبر من مصيبتهم من أعداء الإسلام. فما أروع وأدق هذا الوصف النبوى الموجز المعبر أدق تعبير عن حقيقة هؤلاء الخارجين فى كل زمان ومكان!

ومن روائع الوصف النبوى: قوله ﷺ: " **ويقولون: الكرم، إنما الكرم قلب المؤمن** "[5]، وفى رواية لمسلم: "... **ولا يقولن أحدكم للعنب الكرم، فإن الكرم الرجل المسلم** "، وفى رواية

التحليق فيه وجهان: أحدهما: استئصال الشعر من الرأس ترويجاً لخبثه وإفساده على الناس وهو كوصفهم بالصلاة والصيام. الثانى: أن يراد به تحليق القوم وإجلاسهم حلقاً حلقاً. سنن أبى داود —كتاب السنة — باب فى قتال الخوارج — ح (4765) وأخرجه ابن ماجة.

(1) وهما روايتان للبخارى ومسلم كما سبق.

(2) وهى رواية للبخارى.

(3) قال الخطابى: " ولقد أجمع علماء المسلمين على أن الخوارج على ضلالتهم فرقة من فرق المسلمين، وأجازوا مناكحتهم، وأكل ذبائحهم، وقبول شهادتهم، وسئل على رضى الله عنه عنهم فقيل: أكفار هم ؟ فقال: من الكفر فروا. فقيل: أمنافقون هم ؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله بكرة وأصيلاً. قيل: من هم ؟ قال: قوم أصابتهم فتنة فعموا وصموا ". ينظر شرح الطيبى على المشكاة 123/7

(4) يقتلون أهل الإسلام لتكفيرهم إياهم بسبب الكبائر، ويدعون: أى يتركون أهل عبادة الأصنام من الكفار. ينظر عون المعبود 79,78/13. وهذا الحديث قد ذكره ناصح الدين بن الحنبلى ضمن أقيسة النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابه ص 120

(5) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة – كتاب الأدب — باب قول النبى: " إنما الكرم قلب المؤمن " — ح (5963) – 582/10

له أيضاً " **لا يقولن أحدكم الكرم، فإنما الكرم قلب المؤمن** " [1] ونحن هنا أمام وصف من نوع آخر. وشاهدنا فى هذا الحديث قوله ﷺ: " **إنما الكرم قلب المؤمن** "، وقوله: " **فإن الكرم الرجل المسلم** " والوصف النبوى هنا جاء لتصحيح لفظ طالما وضع لغير معناه الحقيقى، وفى غيرموضعه فى حياة العرب فى ذلك الوقت، وروعى فى تصحيحه الجانب الذهنى والفكرى عند الناس.

لقد كانت العرب تطلق لفظة " **الكرم** " [2] على شجر العنب، وعلى العنب، وعلى الخمر المتخذة من العنب [3]، فكره الشرع هذا الاسم لأنه يربط بين العنب والخمر المتخذة منه فى أذهانهم، ولأن فيه خطأ فى الفهم حيث وصفت الخمر بغير صفتها، وسميت بغير اسمها، وهذا مما يؤدى إلى التباس الأمر على بعض الناس، ويهيج فى نفوسهم الاتجاه إلى مقاربتها ولذلك جاءهم بالاسم الحقيقى الذى لايلتبس بغيره وهو العنب، والحبلة [4]

وبلاغة الوصف هنا فى أن جعل " **الكرم قلب المؤمن** "، أو " **الرجل المسلم** "، فلم حول النبى ﷺ الوصف هنا إلى الرجل المسلم أو قلبه المؤمن؟ ويبدو لى هنا أكثر من سر: الأول: لفت

---

(6) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة. وفى رواية أخرى من حديث علقمة بن وائل عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " لا تقولوا الكرم، ولكن قولوا: الحبلة " يعنى العنب، وفى رواية أخرى عنه قال: " لا تقولوا الكرم، ولكن قولوا: العنب والحبلة " والروايات كلها فى باب كراهة تسمية العنب كرماً– 5,47/15

(1) قال أهل اللغة: يقال: رجل كرْم بإسكان الراء وامرأة كرم، ورجلان كرم ورجال كرم، وامرأتان كرم ونسوة كرم، كله بفتح الراء وإسكانها بمعنى كريم، وكريمان، وكرام، وكريمات، وصف بالمصدر كضيف وعدل. صحيح مسلم بشرح النووى 5/15

(2) قال الأزهرى: وسمى العنب كرماً لأنه ذلل لقاطفه، وليس فيه سلاء يعقر جانيه، ويحمل الأصل منه مثل ما تحمل النخلة فأكثر، وكل شئ كثر فقد كرم، ولكن كره الشرع إطلاق هذه اللفظة على العنب وشجره لأنهم إذا سمعوا اللفظة ربما تذكروا بها الخمر، وهيجت نفوسهم إليها فوقعوا فيها، أو قاربوا ذلك. وقال الخطابى ما ملخصه: إن المراد بالنهى تأكيد تحريم الخمر بمحو اسمها, ولأن فى تبقية هذا الاسم تقريراً لما كانوا يتوهمون من تكرم شاربها، فنهى عن تسميتها كرماً. وحكى ابن بطال عن ابن الأنبارى أنهم سموا العنب كرماً لأن الخمر المتخذة منه تحث على السخاء، وتأمر بمكارم الأخلاق حتى قال شاعر: والخمر مشتقة المعنى من الكرم * فلذلك نهى عن تسمية العنب بالكرم حتى لا يسموا أصل الخمر باسم مأخوذ من الكرم، وجعل المؤمن الذى يتقى شربها، ويرى الكرم فى تركها أحق بهذا الاسم. صحيح مسلم بشرح النووى 5,4/15, وفتح البارى 583/10

(3) كما فى رواية مسلم السابقة، والحبلة بفتح الحاء والباء، وإسكان الباء، والفتح أشهر: شجرة العنب، وقيل: أصل الشجرة، وقيل: القضيب، وقيل: الأصل من أصوله. فتح البارى 584,583/10

انتباه المسلم، وتحويل فكره عن كل ما يذكر بالمعصية أو يقاربها [1]، وتحويل الفكر إلى كل ما يذكر بالطاعة ويحض عليها، ويبدو ذلك واضحاً من إرادته ﷺ أن يصرف أذهانهم وأفكارهم عن كل ما يتصل بالخمر من قريب أو بعيد [2]، وتحويل أفكارهم إلى كل ما يقرب من الطاعة بربطه هذا الاسم بصفة من صفات المسلم أو قلبه المؤمن، وهى من الصفات التى يحبها الله.

الثانى: ربط المسلم بالقرآن الكريم، فوصف المسلم بـ " **الكرم** " قد جاء فى القرآن حيث يقول تعالى: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...﴾ (الحجرات: 13) [3]، وفى هذا تحويل المسلم إلى الوجهة السليمة مع إضافة معان جديدة تتصل بالمسلم، وما يجب أن يكون عليه من تقوى الله عز وجل. وهذا التصويب النبوى فيه معجزة ظاهرة. فكما كانت العرب قديماً تسمى الخمر بغير اسمها، فلقد نبتت نابتة اليوم تسلك نفس السبيل [4]، ومن أسرار جمال هذا الحديث:

---

(4) قال الطيبى: وتلخيص المعنى تخطئة رأى من سمى العنب بالكرم نظراً إلى أنه يتخذ منه الخمر، وشربها يولد الكرم وتسفيههم فيها لأنها أم الخبائث والرجس الذى هو من عمل الشيطان. شرح الطيبى على المشكاة 83/9

(5) فالإسلام كما حرم الانتفاع بالخمر بكل الوسائل المباشرة وغير المباشرة نهى عن كل ما يدعو إلى تذكرها من الألفاظ ليسد منافذ الحرام. فلقد نهى الشرع عن تخليل الخمر أو التداوى بها، أو بيعها، أو إهدائها بعد تحريم شربها. فعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الخمر يتخذ خلاً ؟ فقال: " لا" أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وصححه. وعن وائل بن حجر أن طارق بن سويد الجعفى سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الخمر فنهاه عنها، فقال: إنما أصنعها للدواء. قال: " إنه ليس بدواء، ولكنه داء " أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وصححه. نيل الأوطار 87,69,49/9

(1) فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يقرر ويشدد ما فى هذه الآية بطريقة أنيقة ومسلك لطيف، فبصر أن هذا النوع من غير الأناسى المسمى بالاسم المشتق من الكرم أنتم أحقاء بأن لا تأهلوه بهذه التسمية، ولا تسلموها له غيرة للمسلم التقى، ورفعة لمنزلته أن يشارك فيما سماه الله تعالى. وليس الغرض حقيقة النهى عن تسمية العنب كرماً، ولكن الغرض بيان أن المستحق للاسم المشتق من الكرم المسلم، ونظيره فى الأسلوب قوله تعالى: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة...) (البقرة: 138) شرح الطيبى 83/9

(2) ولقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذه الفئة من الناس فى أكثر من حديث فقال: " ليشربن أناس من أمتى الخمر، ويسمونها بغير اسمها " أخرجه أحمد وأبو داود من حديث مالك الأشعرى. وقال أيضاً: " لتستحلن طائفة من أمتى الخمر، باسم يسمونها إياه " أخرجه أحمد وابن ماجة من حديث عبادة بن الصامت. وقال ابن ماجة: " تشرب " مكان " تستحل "، وقال صلى الله عليه وسلم: " لا تذهب الليالى والأيام حتى تشرب طائفة من أمتى الخمر، ويسمونها بغير اسمها " أخرجه ابن ماجة من حديث أبى أمامة. وهذه الاحاديث منها ما سنده جيد، ومنها ما سنده صحيح. وهى أحاديث يقوى بعضها بعضاً كما قال الشوكانى. ويراجع تخريج هذه الأحاديث فى نيل الأوطار 63,61/9. ولقد ذكر ابن القيم أنهم يسمونها فى زمنه " أم الأفراح "، وفى عصرنا يسمونها " مشروبات روحية "، ونحو ذلك. فليتأمل المسلم !!

وصف المسلم ووصف قلبه المؤمن بـ " **الكرم** " فالنبي ﷺ لما بين لهم أن الخمر أم الخبائث والرجس الذى هو من عمل الشيطان، صوب رأى من رأى استحقاق هذا بقلب المؤمن الطاهر عن أوضار الرجس والآثام، وأنه معدن مكارم الأخلاق ومنبعها، ومركز التقوى، وأحرى أن يسمى كرماً. قال تعالى: ﴿... فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ...﴾ (الحج: 32)، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ (الحجرات: 13) كأنه ﷺ نبه المسلمين على التحلى بالتقوى والتزيى به، وأنه رأس مكارم الأخلاق لا ما ذهب إليه الجاهلية [1] فسمى قلب المؤمن كرماً لما فيه من نور الإيمان وهدى الإسلام، وسماه كرماً لما فيه الهدى والنور والتقوى، والصفات المستحقة لهذا الاسم وكذلك الرجل المسلم [2]، وللإمام أبي محمد بن أبي جمرة تحليل دقيق حول الوصف فى هذا الحديث، وملخصه " لما كان اشتقاق الكرم من الكرم، والأرض الكريمة هى أحسن الأرض فلا يليق أن يعبر بهذه الصفة إلا عن قلب المؤمن الذى هو خير الأشياء؛ لأن المؤمن خير من الحيوان، وخير ما فيه قلبه، لأنه إذا صلح صلح الجسد كله، وهو أرض لنبات شجرة الإيمان. ويؤخذ منه أن كل خير — باللفظ أو المعنى أو بهما أو مشتقاً منه أو

مسمى به — إنما يضاف بالحقيقة الشرعية لأن الإيمان وأهله وإن أضيف إلى ما عدا ذلك فهو بطريق المجاز، وفى تشبيه الكرم بقلب المؤمن معنى لطيف لأن أوصاف الشيطان تجرى مع الكرمة كما يجرى الشيطان فى بنى آدم مجرى الدم، فإذا غفل المؤمن عن شيطانه أوقعه فى المخالفة و كما أن من غفل عن عصير كرمة تخمر فتنجس، ويقوى التشبيه أيضاً أن الخمر يعود خلاً من ساعته بنفسه أو بالتخليل فيعود طاهراً. وكذا المؤمن يعود من ساعته بالتوبة النصوح طاهراً من خبث الذنوب المتقدمة التى كان متنجساً باتصافه بها إما بباعث من غيره من موعظة ونحوها، وهو كالتخليل، أوبباعث من نفسه وهو كالتخلل. فينبغى للعاقل أن يتعرض لمعالجة قلبه لئلا يهلك وهو على الصفة المذمومة [3] وكما جاء تصحيح الاسم والوصف من النبى ﷺ فى هذا الحديث، وذلك بتحويل الوصف بـ " **الكرم** " إلى الرجل المسلم أو قلبه المؤمن **جاء وصف آخر فى مقام**

---

(3) وهو من باب المشاكلة نحو قوله تعالى: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) (البقرة:138)

(4) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 5,4/15, وشرح الطيبى على المشكاة 83/9, وفتح البارى 583/10

(1) ينظر فتح البارى 583/10. هذا والوصف بـ " الكرم " قد جاء فى أحاديث أخرى تبين ما لهذه الصفة من مكانة ومنزلة لأجلها استحق قلب المؤمن أن يوصف بها، ففى الحديث " قيل: من أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال: " مجالس الذكر فى المسجد " أخرجه أحمد، وحديث " سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم " أخرجه أحمد، وحديث " إن الله كريم يحب الكرم " أخرجه الترمذى، وحديث " كرم الرجل دينه " أخرجه أحمد، وغير ذلك من الأحاديث. ويراجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى فى مادة " كرم "1/6- 3 ط بريل – ليدن – (1967) م.

النهى عن وصف النفس بـ " الخبث " فقال ﷺ: " **لا يقولن أحدكم خَبُثت نفسى، ولكن ليقل: لقِست نفسى** " [1] فلفظا " **الخبث، واللقس** " وإن كان المعنى المراد يتأدى بكل منهما إلا أن لفظ " **الخبث** " قبيح، ويجمع أموراً زائدة، فالخبث يطلق على الباطل فى الاعتقاد، والكذب فى المقال، والقبيح فى الفعال، وعلى الحرام، والصفات المذمومة القولية والفعلية [2] فكره لفظ " **الخبث** " [3] لبشاعة الاسم، وعلمهم الأدب فى الألفاظ، واستعمال حسنها، وهجران خبيثها، أما " **اللقس** " فمعناه غثت وضاقت و ويختص بامتلاء المعدة [4]، وهكذا يصحح النبى ﷺ تصورات المسلمين

وأفكارهم، وما ينبغى أن يوصف به المؤمن حتى ولو كان فى جانب الذم، فلا ينبغى أن يصف نفسه أو يصفه غيره بما تناهى قبحه لأن المؤمن على كل حال لا يخلو من خير، فيجب أن يظهر جانب الخير فيه وينمى، ويجب أن يخفى جانب الشر فيه ويمحى، فما أدق الوصف فى البيان النبوى، وما أروعه، وما أرفع أهدافه وأسمى غايته، فالصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم. وبعد هذه الرحلة القصيرة فى رحاب الوصف فى البيان النبوى أنتقل إلى بيان بعض خصائص الوصف من خلال ما سبق ذكره من أحاديث.

من خصائص الوصف فى البيان النبوى: [5]

أولاً: الاقتباس من القرآن، وتفصيل ما أجمله. وهذه خصيصة بارزة فى البيان النبوى، ومن ذلك ما جاء فى حديث " وصف النخلة " وتمثيلها بالمسلم، فلقد جاء الوصف النبوى تفصيل لمعنى الإيمان والإخلاص فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

---

(2) متفق عليه. أخرجه البخارى من حديث أبى أمامة بن سهل عن أبيه —كتاب الأدب — باب لا يقل: خبثت نفسى — ح (5960) — 579/10, وأخرجه مسلم من حديث عائشة — باب كراهة قول الإنسان خبثت نفسى — 8/15

(3) ينظر عون المعبود 221/13

(4) جاء فى المجموع المغيث فى مادة " خبث " الخبثة: الخبيث، ويقال للأخلاق الخبيثة: خبثة، وفلان ولد خبثة: أى ولد زنية، والمخبثان: الخبيث. يقال للرجل والمرأة جميعاً، وكأنه يدل على مبالغة، ويقال للرجل: يا خباث مبنياً على الكسر، وللمرأة يا خبث، وقيل على العكس منه، وفى الحديث " كما ينفى الكير الخبث " وهى ما تبديه النار وتميزه من ردئ الفضة والحديد، وتنقيه إذا أذيبا. المجموع المغيث فى غريبى القرآن والحديث 545,544/1

(5)ينظر صحيح مسلم بشرح النووى 8/15، وفتح البارى 580/10

(1) ولقد يسر الله لى كتابة بحث حول الوصف فى البيان النبوى من خلال الصحيحين، ولكنه لم ير النور بعد، وأسأل الله أن ييسر نشره قريباً.

أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (إبراهيم: 24). **ثانياً**: الوصف النبوى وصف يقلب السمع بصراً، والمعقول محسوساً، ويصور الأمور المعنوية فى صورة حسية، كما جاء فى الحديث السابق وفى غيره من الأحاديث التى سأشير إليها فى نهاية هذا الفصل. **ثالثاً**: الوصف النبوى وصف جامع وكاشف وموجز، وهذه الخصيصة من أبرز الخصائص فى البيان النبوى بشكل عام، ومن أبرز خصائص الوصف فيه بشكل خاص. وهذه الخصيصة نراها بوضوح وجلاء فى حديث " وصف النخلة " السابق. فلقد اتضح لنا كيف جمع صفات المسلم، وكشف عن حقيقته من خلال وصف من أوصاف النخلة، وما أكثر الصفات المشتركة بينهما كما سبق، وقد سبق عند تعريف الوصف عند البلاغيين أن أحسن الوصف ما جاء بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته، وهذا أيضاً منهج القرأن فى الوصف كما مضى فى وصف البقرة التى أمر بنو إسرائيل بذبحها... والبيان النبوى إنما هو قبس من البيان القرآنى، ومن أمثلة هذه الخصيصة حديث " وصف الخوارج " الذين يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فلقد أتى البيان النبوى على أوصافهم فى إيجاز كاشف جامع. **رابعاً** : الوصف النبوى وصف مفتوح مع الزمان. فالبيان النبوى لكل العصور، ولكل الناس فى كل مكان وزمان، وهذه الخصيصة ظاهرة فى الأحاديث التى تتعرض لبيان الفتن التى تكون بين يدى الساعة كما فى حديث " وصف الخوارج " السابق. **خامساً**: انتقاء الوصف النبوى من أنماط الأساليب البيانية ما يناسب طبيعة المعنى فى كل موضع، فمثلاً فى حديث " وصف الخوارج " جاء بالتشبيه فى قوله: " **يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** " كما جاء ذكر السهم فى هذا المقام مع التشبيه لكون السهم أنسب فى التعبير عن صلابة هؤلاء وشدتهم، واندفاعهم. فالعبارة الوصفية قد تكون فى موضع أبلغ من التشبيه وأوفى بالمعنى وأنسب بالمقام، وقد تكون الاستعارة فى موضع أبلغ من الوصف والتشبيه كذلك، وهكذا ينتقى البيان النبوى من أنماط الأساليب البيانية ما يناسب طبيعة المعنى فى كل موضع، ويعبرعن المقصود أتم تعبير. **سادساً**: تلاحم الوصف النبوى مع الغرض المقصود. وهذه خصيصة بارزة فى الوصف النبوى بشكل عام، ومنها هنا حديث " وصف نعيم أهل الجنة وحالهم "، فلقد جاء الوصف النبوى ليبين أنهم فى قمة النعيم، فالنور فى ظاهرهم وباطنهم وفيما حولهم...، والصفاء واللمعان والضياء والنقاء شعارهم، ولقد جاء الوصف النبوى بلوحاته الرائعة ليرسم لنا صورة حية لحال هؤلاء تتناسب مع الغرض. **سابعا** ً: الكشف عن الأمور الغيبية وتصويرها للعيان كما فى حديث " وصف نعيم أهل الجنة " [1]. **ثامناً**: الوصف النبوى يربط بين

(1) كذلك فى أحاديث وصف الحوض، ووصف أحوال الناس يوم القيامة، ووصف الجنة والنار، وسأشير إلى بعض هذه الأحاديث فى نهاية هذا الفصل.

عالم الغيب وعالم الشهادة كما فى حديث وصف نعيم أهل الجنة. **تاسعاً**: من خصائص الوصف النبوى واقعيته وانسجامه مع البيئة كما فى حديث " وصف النخلة "، فإن المعانى التى يشتمل عليها الوصف، وصوره من البيئة التى يعيش فيها الناس وهذا مما يقرب الوصف ويوضحه، ويمثله للعيان، ويربط بين المعنى المقصود والواقع الذى يعيش فيه الناس. **عاشراً** : التناسق والدقة والإحكام، وليست هذه الكلمات على سبيل المدح العام، بل تنطبق على أحاديث الوصف تمام الانطباق ومن ذلك حديث " وصف الخوارج " السابق، فلقد رأينا كيف وصفهم البيان النبوى وصفاً دقيقاً ينطبق عليهم تمام الانطباق. **حادى عشر** : الوصف النبوى مصحح للفهم، مصوب للخطأ فى اللفظ كما فى حديث " النهى عن تسمية العنب كرماً "، وحديث " النهى عن وصف النفس بالخبث " وبعد هذا العرض الموجز لأبرز خصائص الوصف فى البيان النبوى من خلال ما سبق ذكره من أمثلة **أنتقل إلى الإشارة إلى بعض أحاديث الوصف الأخرى تاركاً للقارئ أن يتأمل ما فيها من أسرار الوصف.**

ومن ذلك: وصف وسوسة الشيطان فى الصلاة، واختلاسه منها، وعقده على قافية الرأس للتثبيط عنها، وبوله فى الأذن، وجريه من ابن آدم مجرى الدم.

قال رسول الله ﷺ: " **إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر، حتى إذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول: اذكر كذا اذكر كذا – لما لم يكن يذكر – حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى** "[1]، وقوله لما سئل عن الالتفات فى الصلاة: " **هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد** " [2]، وقوله: " **يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده، فأصبح نشيطاً طيب النفس و وإلا أصبح خبيث**

(1) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة –كتاب أبواب التأذين – باب فضل التأذين – ح (594) 101/2, وأخرجه مسلم – باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه – 92,91/4

(2) أخرجه البخارى من حديث عائشة –كتاب الأذان – باب الالتفات فى الصلاة – ح (733) 273/2

النفس كسلان "[1]، وقوله لما ذكر عنده رجل نام عن الصلاة حتى أصبح: " **بال الشيطان فى أذنه** "[2]، وقوله: " **إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم** "[3]

ومن ذلك وصف الحوض، والجنة، والنار.

قال رسول الله ﷺ: "**حوضى مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، فمن شرب من فلا يظمأ بعده أبداً** "[4]، وقوله فى وصف شجرة فى الجنة: " **إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها** "[5]، وقوله فى وصف خيمة فى الجنة: " **الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلاً، فى كل زاوية منها أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون** "[6]، وقوله فى وصف نار جهنم وحرها: " **ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم** " قيل يا رسول الله: إن كانت لكافية. قال: " **فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها**"[7].

وهذه بعض أحاديث الوصف من الصحيح، وهناك أحاديث أخرى تركت ذكرها خشية التطويل، وهى أحاديث ينطبق عليها ما ذكرته من خصائص الوصف، ومن أراد التوسع فى هذا الموضوع فعليه بمراجعة الصحيحين، وكتب السنن فى أحاديث وصف الفتن، وأحاديث وصف

---

(3) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة –كتاب التهجد – باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل – ح (1115) 30/3, وأخرجه مسلم – باب الحث على صلاة الوقت وإن قلت – 65/6

(4) أخرجه البخارى من حديث ابن مسعود –كتاب التهجد – باب إذا نام ولم يصل بال الشيطان فى أذنه – ح (1117) 35,34/3, وأخرجه مسلم – باب الحث على صلاة الوقت وإن قلت بلفظ " ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه أو قال فى أذنه " 63/6

(5) أخرجه البخارى من حديث صفية –كتاب أبواب الاعتكاف – باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ؟ وباب هل يدرأ المعتكف عن نفسه ؟ - ح (1987) – 331/4, وأخرجه مسلم من حديث أنس – باب دفع ظن السوء – وباب بيان أنه يستحب لمن رؤى خالياً بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول: هذه فلانة ليدفع ظن السوء به – 155/14- 157

(1) أخرجه مسلم من حديث عمرو بن العاص – باب حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفته – 55/15

(2) أخرجه مسلم من حديث سهل بن سعد –كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها – 167/17

(3) أخرجه مسلم من حديث أبى موسى بن قيس عن أبيه –كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها – 176/17

(4) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة –كتاب بدء الخلق – باب صفة النار وأنها مخلوقة – ح (3156) – 381,380/6

الجنة والنار، وأحاديث وصف أحوال الناس يوم القيامة. وأنتقل إلى الحديث عن القصة فى البيان النبوى.

الفصل السادس: القصة فى البيان النبوى

حين نتحدث عن القصة فى البيان النبوى فإننا نتحدث عن وسيلة من وسائل الدعوة اعتمد عليها النبى ﷺ فى التعليم والتوجيه والإرشاد. ولكن مما تجدر الإشارة إليه " أن القصة فى الحديث النبوى تمثل عصرها، وتعكس الفترة التى وجدت فيها، وتدور فى إطارها من حيث الشكل الفنى "[1] كما أن الواقع الذى تجرى فيه يحمل فى أثنائه أوجه التقاء مع القصة اليوم فى عناصرها الأصلية وصورتها العامة من مثل سوقها فى أسلوب قصصى يتتبع الحوادث، ويوردها فى إطار من التشويق والإثارة فى عرض ترتب فيه الحوادث فى مواضعها، وتحرك الشخصيات فى مجالها، ويجد القارئ أو المستمع لها أنه أمام مشاهد تعبرعن زاوية من زوايا الحياة، أو جانب من جوانب الفكر.

" **والقصص النبوى منطلقه وأساسه الصدق والواقعية** اللذان يستمدان معنييهما وقيمهما من تلك القوة التى تتضمنها مجموعة الصفات الخلقية والدينية المجتمعة فى شخصية النبى ﷺ "[2]، والقصص النبوى وإن كان يلتقى مع الرواية الحديثة فى جانب مهم جداً وهو التعبير عن القيم إلا أن **القصص النبوى يتميز بالتجرد للهدف الدينى** إنطلاقاً من دعوة النبى ﷺ، فالقصص الذى ساقه النبى ﷺ قصص تربوى ودعوى الهدف منه أخذ العظة والعبرة، والتوجيه والإصلاح، والتعليم، " فالقصص النبوى قصص فكرة بمعنى أن القصة فيه مهدفة من أجل خدمة " قيم معينة " و وتعميقها فى نفوس المجتمع الذى نشأت فيه القصة الإسلامية، وهى القيم الإسلامية، وغنى عن البيان ما تحمله القيم الإسلامية من الأصالة والعمق تجاه الحياة الإنسانية والوجود بعامة والتعبير عن القيم فى الرواية جانب مهم جداً يجعلها ذات قيمة خاصة فى نظر النقاد "[3]، ولذلك فالقصة النبوية بجميع أنواعها قصة ملتزمة بالغرض الدينى، والقصص الطويلة والقصيرة فى ذلك سواء، فالرسول وهو يسرد القصص سواء ما تلقى مادته من الوحى فى

قصص الماضى والمستقبل، أو ما أنشأه من عنده من القصص التمثيلية التى كان يستخدمها كوسيلة من الوسائل الكثيرة التى يتبعها فى تحقيق الغرض الدينى، وهو الهدف الأصيل الذى بعث

---

(1) ينظر القصص فى الحديث النبوى ص 90

(2) ينظر من الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث النبوى الشريف ص258

(3) ولذلك نجد " فوستر " فى معرض حديثه عن الرواية يؤكد على أهمية هذا الجانب فيها حيث يقول: " فما تفعله الحكاية أنها تحكى حياة فى زمن، أما ما تفعله الرواية بأكملها فهو أنها أيضاً تشمل الحياة بالقيم، هذا إذا كانت رواية جيدة ". وهذه الناحية وغيرها من العناصر العامة التى تلتقى فيها القصة النبوية مع قصة اليوم. وينظر القصص فى الحديث النبوى ص 89- 91

من أجله النبى ﷺ، ومن هنا نجد القصة النبوية خاضعة خضوعاً تاماً للغرض الدينى شأنها فى ذلك شأن القصة فى القرآن الكريم [1]

وسأشير فى عجالة هنا إلى نماذج مختارة من القصص النبوى مبيناً فى إيجاز ما يتمتع به من روعة فى الأسلوب، ودقة فى الأداء، مع حسن العرض، وجذب الانتباه [2]. **ولنبدأ بالقصص النبوى المفصل لما أجمله القرأن فى أمور الدنيا والآخرة.** فمن ذلك ما ذكره النبى ﷺ فى بيان موقف من مواقف بنى إسرائيل من سجلهم الحافل بالعصيان والمخالفة لأمر الله مع التبديل والتحريف، وذلك فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 58)، وهذه الآية جزء مما قصه الله علينا من سجل عصيانهم وعنادهم ومخالفتهم لأمره سبحانه عند دخول بيت المقدس، ولقد أجمل القرآن تفصيل الموقف، فجاء البيان النبوى لتفصيل ما أجمله القرآن، فقال ﷺ: " **قيل لبنى إسرائيل:** ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ ...﴾ **فدخلوا يزحفون على أستاهم فبدلوا، وقالوا: حبة فى شعرة** " [3]، والقصة النبوية هنا مع إيجازها قد فصلت ما أجمله القرآن من هذا الموقف، فالقرآن أشار إلى التبديل فى القول دون الفعل وهو زحفهم على أستاهم كما أشار إلى القول دون أن يبين ما قالوه، وهذا شأن القرآن فى الإيجاز، فجاء البيان النبوى ليبين لنا حقيقة ما قالوه وما فعلوه فى إيجاز دقيق. والقصة هنا من كلمات معدودة، ولكنها قد توافر فيها العناصرالأساسية للقصة من الشخصيات، والحدث، والحوار

والزمان والمكان. وتميزت هنا بقوة التركيز والتأثير، حيث إنها ركزت على المشكلة الأساسية، وهى تبديل بنى إسرائيل لما أمروا به عند دخولهم بيت المقدس. والمشكلة جزء من بناء ونسيج

---

(1) ينظر التصوير الفنى فى القرآن فى باب القصة فى القرآن – ط دار الشروق – الطبعة الثانية عشرة – (1412) هـ (1992) م.

(2) أما عن تفصيل البحث فى القصة النبوية فهو موجود فى دراسة تفصيلية قيمة للقصص فى البيان النبوى بعنوان " القصص فى الحديث النبوى – دراسة فنية موضوعية " للأستاذ الدكتور / محمد حسن الزير – ط الرابعة – (1418) هـ (1997) م. فليراجعها من أراد التوسع فى دراسة هذا الفن الراقى من فنون البيان النبوى. أما هنا فالبحث يشيرفى عجالة إلى أبرز خصائص البيان النبوى ككل. والقصة خصيصة من هذه الخصائص.

(3) متفق عليه – أخرجه البخارى – كتاب التفسير – باب قوله تعالى: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً...) – ح (4298)- 14/8, وأخرجه مسلم – كتاب التفسير – 152/18. ومن ذلك أيضاً: قصة موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل فى تفسير قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) (الأحزاب: 69) والحديث أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء – ح (3292) – 502/6, وفى كتاب التفسير – ح (4614) – 405/8

القصة. ويلمح الدقة فى اختيار الألفاظ فى قوله: " **دخلوا يزحفون على أستاهم فبدلوا، وقالوا: حبة فى شعرة** "، ونلمح هنا دقة الوصف النبوى فى بيان ما فعله بنو إسرائيل حيث دخلوا يزحفون على أستاهم، وهى هيئة مزرية. والوصف مقوم من مقومات الصورة، وهو أيضاً عنصر من عناصر النسيج فى القصة، وله دوره هنا فى توضيح الحدث، وبيان الصورة، وهى الاستهزاء والسخرية بالأمر!

وإلى قصة أخرى من القصص القرآنى الذى فصله البيان النبوى، ولكن مع طول فى الحديث يختلف عن الحديث الماضى، وهى قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وسأنقلها بطولها ليتضح لنا منهج الأسلوب القصصى فى الحديث النبوى، وكيف يوجز فى بعض القصص، ويفصل فى بعضها الآخر تبعاً لما يتطلبه الموقف من توضيح، ونظراً لأهمية التفصيل فى بعض المشاهد لما ينبنى عليها من معان يهدف النبى ﷺ إلى ترسيخها فى النفوس وتوضيحها، وذلك لما تتركه من أثر فى حياتهم وسلوكهم، حيث يأخذ المسلمون منها العبرة والعظة. فلقد قال ﷺ: " **إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل، فسئل: أى الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب فكيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مكتل**[1]**، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتاً فجعله فى مكتل ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر، فاتخذ سبيله فى البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمر الله به. فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً. قال: فكان للحوت**

(1) المكتل: زنبيل يعمل من الخوص. جمعه: مكاتل.

سرباً [1]، ولموسى وفتاه عجباً. فقال موسى: ذلك ما كنا نبغى، فارتدا على آثارهما قصصا، قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى ثوباً، فسلم عليه موسى فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام. قال: أنا موسى. قال: موسى بن إسرائيل؟ قال: نعم. أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً. قال: إنك لن تستطيع معى صبراً. يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه، وأنت على علم من الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً. فقال له الخضر: فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكراً. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوا بغير نول. فلما ركبا فى السفينة لم يفج إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم. فقال له موسى: قد حملونا بغير نول و عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً. قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً؟ قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً. قال: وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسياناً، قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة، فقال الخضر: ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من ماء البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله. فقال موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً؟ قال: وهذه أشد من الأولى. قال: إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى، قد بلغت من لدنى عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض – قال: مائل – فقال الخضر بيده فأقامه. فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا، لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال: هذا فراق بينى وبينك – إلى قوله – ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً. فقال رسول الله ﷺ: " وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما " فقال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ "(وكان أمامهم

(1) والسرب بالتحريك: المسلك فى خفية، وحفير تحت الأرض لا منفذ له، وجحر الوحشى، والقناة الجوفاء يدخل منها الماء الحائط. وقد أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق، وحصل منه فى مثل السرب معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام. الكشاف 684/2

ملك يأخذ كل سفينة – صالحة – غصباً)، وكان يقرأ: (وأما الغلام فكان – كافراً وكان – أبواه مؤمنين) [1] والقصة هنا كما يلاحظ حافلة بالحوار والحركة، وتتابع الأحداث وتشابكها، ومشتملة على التصوير فى بعض المواقف، وفيها وقفات فى أثناء الأحداث الهدف منها أخذ العظة والعبرة، والتعليم والتوجيه، وهذه الوقفات التربوية حرص النبى ﷺ على أن تجئ فى مواضعها الدقيقة مرتبطة بكل حدث من الأحداث، وذلك ليربط بين الحدث والهدف التعليمى. وأشير إلى بعض هذه الوقفات. فمن ذلك: قوله ﷺ: " **ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمر الله به** "، وفى ذلك إشارة إلى أن المحافظة على أمر الله والالتزام به راحة من النصب والمشقة. ومن ذلك قوله: " **يا موسى إنى على علم من الله علمنيه لا تعلمه، وأنت على علم من الله علمكه الله لا أعلمه** "، وفى ذك إشارة إلى أن الله سبحانه يخص من عباده من شاء بالعلم، وقد يفتح لبعض عباده أبواباً من العلم لا يعلمها كثير من الناس، وأن الله له فى خلقه شؤون، وأن قسمة هذا العلم الإلهى إنما تكون بعلم الله المحيط. ومن ذلك قوله: " **وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر** " ونلمح هنا التصوير الدقيق المعتمد على مشهد من الواقع. والتصوير له مدخل كبير فى التأثير فى القصة، والهدف منه هنا الإشارة إلى سعة علم الله سبحانه المحيط بكل شئ علماً. وهذه بعض الوقفات النبوية فى القصة. ويلمح هنا دقة عرض الأحداث فى القصة والربط بينها وبين الغرض الدينى التعليمى، وتصوير الشخصيات وبيان حال كل من موسى والخضر خاصة موسى حيث فوجئ بما يحدث على يد الخضر عليه السلام، ونلمح هنا ظهور عنصر الحوار فى القصة، وهو حوار هادف بناء الهدف منه التعلم، ونلمح عنصرا المكان والزمان فى هذه القصة بداية من مكان اللقاء عند مجمع البحرين، ثم بعد ذلك ركوب السفينة، والإتيان على القرية إلخ، وهذه الأمور كلها من الحدث، والحوار، والشخصيات، والزمان والمكان تعد العناصر الأساسية للقصة.ونلمح هنا أن القصة تختلف فى طولها عن القصة الأولى وذلك نظراً لطول

الأحداث هنا، وكثرة المواقف. وهى تشترك مع القصة السابقة فى أنها من القصص النبوى الذى جاء تفصيلاً لما أجمله القرآن فى بعض القصص. وهو تفصيل تمس الحاجة إليه نظراً لما فى هذا القصص من الحكمة، وآيات القدرة، وما فيه من مواقف تعليمية وتربوية ينتفع بها المسلم فى

(1) أخرجه البخارى من حديث أبى بن كعب – كتاب التفسير – باب (وإذ قال لموسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً) – ح (4540) – 270,269/8

دينه ودنياه. وتفصيل ذلك يطول، والكلام هنا حول الناحية الفنية والأسلوبية فى القصص النبوى[1]

ومن القصص النبوى الذى يتناول مشاهد من يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وتدنو الشمس من الرؤوس: قوله ﷺ: " **يقول الله يوم القيامة يا آدم، يقول لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً** [2] **إلى النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف – أراه قال – تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم. فقال النبى ﷺ: " من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد. ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود، إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة " فكبرنا.ثم قال : " ثلث أهل الجنة " فكبرنا. ثم قال شطر أهل الجنة " فكبرنا "** [3] ويلاحظ هنا أن النبى ﷺ ربط بين هذه القصة لمشهد حوارى من مشاهد يوم القيامة بين الله سبحانه، وبين آدم عليه السلام وبين الواقع، ونلمح كيف انفعل الصحابة مع الأحداث وقد أثر فيهم كلام النبى ﷺ، وذلك حين تغيرت وجوههم. والتأثير هنا جاء من طريقة العرض التى تميز بها النبى ﷺ فى أداء الحديث. وفى قوله: " **فينادى بصوت** " إلخ نلمح هنا شدة الموقف وتأزمه، وبعد ذلك ما ذكره من وضع الحامل حملها، وشيب الوليد، ورؤية الناس سكارى وما هم بسكارى. كل ذلك جمعه فى ومضة عين فى ظل بيان هذا المشهد الحوارى بين الله عز وجل وبين آدم عليه السلام. ولقد نقلهم بعد ذلك إلى الواقع فبشرهم بأنهم أقل الناس عدداً بين الأمم، وإنه ليرجو أن يكونوا شطر أهل الجنة. فجمع فى القصة بين الخوف والرجاء، والترغيب والترهيب، مع الربط بين عالم الشهادة وعالم الغيب.

---

(1) ولقد جاء هذا الحديث فى رواية أخرى عند البخارى من حديث أبى بن كعب فى كتاب التفسير مع اختلاف فى بعض أجزائه – باب قوله تعالى (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سرباً) ح (4541) – 272,271/8

(2) البعث: بمعنى المبعوث الموجه إليها، ومعناه ميز أهل النار من غيرهم. صحيح مسلم بشرح النووى97/3

(3) أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد –كتاب التفسير – باب (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى...) – ح (4556) – 305/8, وأخرجه مسلم – باب بيان كون هذه الأمة نصف الجنة – 98,97/3, وفى رواية لمسلم " إن مثلكم فى الأمم كمثل الشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود أو كالر قمة فى ذراع الحمار "98/3

ومن القصص القصيرة لمشهد آخر من مشاهد يوم القيامة فى حوار قصير بين الحق جل وعلا، وبين إبراهيم عليه السلام: قوله ﷺ: " **يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا رب، إنك وعدتنى، لا تخزنى يوم يبعثون. فيقول الله تبارك وتعالى: إنى حرمت الجنة على الكافرين** " [1] وهذه القصة القصيرة لحوار يدور بين الحق جل وعلا وبين إبراهيم عليه السلام فى شأن أبيه الذى مات على الكفر.

وهنا يبرز عنصر الحوار بشكل واضح، والحوار فى أى قصة عنصر مهم [2]، وهو منتشر فى معظم القصص النبوى [3].

ومن ذلك قوله ﷺ: " **حاج موسى آدم فقال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم. قال: قال آدم: يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومنى على أمر كتبه الله على قبل أن يخلقنى، أو قدره على قبل أن يخلقنى؟ " قال رسول الله ﷺ: " فحج آدم موسى** " [4]، وهذا الحوار القصصى بين آدم وموسى عليهما السلام يحتمل وقوعه فى كل من الدارين [5]

ونلمح هنا أن الحوار القصصى حوار موجز، وذلك كما سبق يأتى فى بعض المواضع تبعاً للأحداث والمواقف المعروضة.

---

(1) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة –كتاب تفسير القرآن – باب (ولا تخزنى يوم يبعثون) – ح (4584) – 368/8

(2) وذلك أن الحوار مظهر بارز للعملية القصصية، وجانب حيوى من بناء القصة الفنى، والحوار أسلوب مهم من أساليب بناء الشخصية فى القصة بحيث نستطيع أن نشاهد هذه الشخصية وهى تتحدث فى حوار مع الآخرين معبرة عن نفسها وعن أفكارها. وأهمية الحوار تأتى من أن القصة فى الأساس عملية سردية تتبع فيها الأحداث بطريقة سردية رتيبة ولكى لا تبدو هذه الرتابة بصورة مملة فإن القصة تلجأ إلى الحوار لإعطاء هذا السرد نوعاً من الحيوية والإثارة حتى تستطيع القصة أن تشد المستمع إليها، وتحمله على المتابعة المستمرة. ينظر القصص فى الحديث النبوى ص 313,312

(3) ولقد ذكر الدكتور / حسن الزير أن عدد الأحاديث المشتملة على الحوار اثنتان وسبعون قصة. السابق ص313

(4) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة –كتاب تفسير القرآن – باب قوله تعالى: (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) – ح (4553) – 297/8

(5) ذكر ابن حجر احتمال وقوع ذلك فى الدارين، وأما ما ذكره البخارى من أن ذلك عند الله فقد لمح بذلك بما وقع فى بعض طرق الحديث، وهو ما أخرجه أحمد من طريق يزيد بن هرمز عن أبى هريرة بلفظ " احتج آدم وموسى عند ربهما " الحديث. فتح البارى 514/11

وهناك قصص تتصل بمشاهد من يوم القيامة قد طالت فيها الأحداث كما رأينا فى قصة موسى والخضر التى تتصل بالقصص القرآنى.

فمن القصص الطويل الذى يتصل ببعض مشاهد القيامة: حديث الشفاعة يوم القيامة، وسأكتفى بالإشارة إلى موضعه من الصحيحين لمن أراد التوسع؛ وذلك لضيق المقام هنا عن التفصيل [1]

وهناك قصص ساقه النبى ﷺ حديثاً عن الأمم السابقة، وما كان فيها من أعاجيب، وهذا القصص كسابقه الهدف منه العظة والعبرة، والتوجيه والتعليم. ومن ذلك قوله ﷺ: " **كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً، ثم خرج يسأل، فأتى راهباً، فسأله، فقال: أله توبة؟ قال: لا فقتله، وجعل يسأل، فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربى، وإلى هذه أن تباعدى، فقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له** " [2] وهذه القصة الهدف منها بيان سعة رحمة الله تعالى وقبوله لتوبة التائبين، وقد حفلت القصة بالحوار والحركة. ومن ذلك أيضاً قصة أصحاب الأخدود، والساحر، والراهب، والغلام. وهى قصة حافلة بالأحداث والحوار، والشخصيات وفيها كثير من المواقف التعليمية والتربوية [3] **ومن القصص النبوى ما يتحدث عن الجنة والنار وحال بعض أهلهما** [4] **ومن القصص النبوى ما كان تمثيلاً** [5] والأمثلة على ذلك فى كتاب القصص فى الحديث النبوى والمقام هنا مقام الإشارة لا الحصر.

---

(1) وحديث الشفاعة أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة –كتاب تفسير القرآن – باب (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) – ح (4527) – 256,255/8, وأخرجه مسلم – باب الشفاعة – 65/3

(2) متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى. أخرجه البخارى – باب ما ذكر عن بنى إسرائيل، وأخرجه مسلم – كتاب التوبة – باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله. وروا ية الحديث عند مسلم تختلف عن الرواية المذكورة فى بعض أجزائها. والحديث فى مشكاة المصابيح، وقد أخرجه أحمد وابن ماجة أيضاً– ح (2327) 104/5

(3) وقد أخرج مسلم هذه القصة بطولها فى صحيحه من حديث صهيب – باب قصة أصحاب الأخدود، والساحر والراهب، والغلام.

(4) ومن ذلك حديث " إنى لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخرأهل الجنة دخولاً... " الحديث. وقد أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة.

(5) والقصة التمثيلية نوع من القصص النبوى يضربه النبى صلى الله عليه وسلم مثالاً للفكرة المطروحة أو القضية المقررة بصرف النظر عن كون هذا المثال قد وقع فعلاً من الناحية التاريخية أولم يقع. ومن ذك: قصة " فاقد الراحلة " فى

قصة تمثيلية ضربها الرسول صلى الله عليه وسلم لتوضيح الفكرة التى عرضها فى مقدمة القصة، وذك حين قرر فى مطلع القصة أن الله تبارك وتعالى شديد الفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه، وفرح الله أشد من أى فرح. وهذه القصة هى الوحيدة من القصص التمثيلية الثمان التى وجد فى إحدى رواياتها أن لها أصلاً من الواقع، وهى رواية الدارمى، وجاء فيها " سافر رجل من أرض تنوفة، فقال تحت شجرة، ومعه راحلته عليها شرابه وطعامه... إلخ. أما بقية الوايات وهى رواية مسلم والترمذى والمسند فتعرض القصة بصورة لا توحى بأنها قصة ذات أصل واقعى كما أنه من الملاحظ أيضاً أنها تحمل ما ينفى أنها وقعت تاريخياً. أما القصص السبع الأخرى فتشترك كلها فى سمة واحدة، وذلك أنها تحمل فى صدرها ما يدل صراحة أنها من قبيل التمثيل، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى مطلع كل قصة من هذه القصص وهو يطرح الفكرة الذهنية: " مثل كذا كمثل كذا "، وهذا يعنى أنه ينشئ هذه القصة ابتداءً ليعرض من خلالها الفكرة فى صورة مجسمة. ولمزيد من التفصيل انظر القصص فى الحديث النبوى ص 345,344

الباب الخامس: الأصالة والمعانى فى الحديث النبوى

الفصل الأول: الأصالة والمعانى فى الحديث

بعد أن وقفنا على أبرز الخصائص البلاغية للبيان النبوى فى الباب الرابع، نتحدث هنا عن الأصالة فيه. والأصالة وإن كانت من خصائص الأسلوب فى الحديث إلا أنى آثرت إلحاقها بالمعانى فى الحديث نظراً للارتباط بينهما – فيما يبدو لى – فالأصالة: الابتكار. والمعانى فى الحديث تتميز بالابتكار والتجديد، وسيتضح لنا ذلك من خلال التطبيق.

ولكن قبل ذلك لابد من بيان معنى الأصالة.

معنى الأصالة: الأصالة: مصدر أصل، والأصل: أسفل الشئ كأصل الجبل. والأصالة فى النسب: العراقة. وفى الأسلوب: الابتكار والتميز. وفى الرأى: جودته وإحكامه. والأصالة بفتح الهمزة وكسرها: الثبات وجودة الرأى. والأصالة: العقل [1]، فمعانى الأصالة تدور حول الابتكار، والجودة، والإحكام، والثبات.

أما عن الأصالة كخصيصة من خصائص الأسلوب: فلقد ذكر الأستاذ الزيات " أن الأصالة: أن يكون أسلوب الرجل خاصاً به، لا ينهج فيه نهج غيره، وأن تكون فى عباراته طرافة وجدة مع حلاوة ملموسة تحمل من يأتى بعده على اقتباسها واستعمالها. ويراد بالأصالة فى الأسلوب بناؤه على ركنين أساسيين: من خصوصية اللفظ، وطرافة العبارة. وتلك هى الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ. وملاك الأصالة أن لا تكتب كما يكتب الناس، وأن تكون أصيلاً فى نظرتك وكلمتك وفكرتك وصورتك ولهجتك، فلا تستعمل لفظاً عاماً، ولا تعبيراً محفوظاً، ولا استعارة مشاعة. أما خصوصية اللفظ فهى دلالته التامة على المعنى المراد، ووقوعه الموفق فى الموقع المناسب. وآية مطابقته لمعناه ومبناه أنك لا تستطيع أن تبدله، ولا أن تنقله. والخصوصية فى اللفظ أصل الدقة فى التعبير، والوضوح فى المعنى، والصدق فى الدلالة؛ لأن الكلمة إذا تمكنت فى موضعها الأصيل دلت على المعنى كله، فإذا حشرت فيه حشراً، أو قسرت عليه قسراً دلت على بعض المعنى أو أبانت عن غيره. وفى اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع؛ لأن الكلمة ميتة ما دامت فى المعجم، فإذا وصلها الكاتب أو الأديب أو الشاعر بأخواتها فى التركيب ووضعها فى موضعها الطبيعى من

(1) ينظر اللسان مادة " أصل "، وأساس البلاغة، والمصباح المنير، والمحيط لأديب اللخمى، والغنى لأبى العزم.

الجملة دبت فيها الحياة، وسرت فيها الحرارة، وظهر عليها اللون [1]. أما الركن الآخر: طرافة العبارة فأسه الابتكار فى حكاية الخبر، وتصوير الفكر، وتقويم الموضوع، وهيهات أن تجد الجملة المبتكرة التى تثير الإعجاب، وتحدث الأثر، وتحرك الفتنة إلا إذا وجدت الكلمة الخاصة التى تحدد الفروق، وتجدد العلاقة، وتبعث الحركة.

أما عن الأصالة فى البيان النبوى فما أروعها وأبدعها ، فلقد ابتكر النبى ﷺ كثيراً من الأساليب التى لم يسبق إليها، ولم تسمع من عربى قبله. ومن هذه الأصالة ما جاء فى باب الإيجاز وجوامع الكلم، ومنها ما جاء فى باب التصوير وضرب الامثال، ومنها ما سار بين الناس مسار الحكمة. والبيان النبوى حافل بكل هذه الأنواع، وقد مضت الإشارة إلى ذلك فى فصل الإيجاز من الباب السابق، وفى فصل التصوير رأينا دقة التصوير النبوى وتفرده فى بابه، وكذلك فى فصل الوصف رأينا ما تميز به من الأصالة والابتكار.

ومن شواهد الأصالة: قوله ﷺ: " لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين " [2] فهذا الحديث يسير اليوم بين الناس مسرى المثل، ويستشهدون به فى المواقف التى تناسبه. ومقصد النبى من هذا الحديث: أن المؤمن الممدوح الكيس الحازم لا يستغفل فيخدع مرة بعد أخرى، ولا يفطن لذلك. وقيل إن المراد من الحديث النهى: أى لا يخدعن المؤمن ولا يؤتين من ناحية الغفلة فيقع فى مكروه، وهذا يصلح أن يكون فى أمر الدنيا وأمر الآخرة. وإذا ذهب إلى النهى فى الحديث خيل أنه صلوات الله عليه لما رأى من نفسه الزكية الميل إلى الحلم والعفو عنه [3] جرد منها مؤمناً كاملاً ذا شهامة، ونهاه عن ذلك تأنيباً، يعنى ليس من شيمة المؤمن الحازم الذى يغضب لله ويذب عن دين الله أن ينخدع من مثل هذا الغادر المتمرد مرة بعد أخرى، فانته عن حديث الحلم وامض لشأنك فى الانتقام منه والانتصار من عدو الله، فإن مقام التجربة والغضب يأبى التحلم والعفو. وفهم منه أن هناك مقاماً التحلم والتساهل فيه محمود بل مندوب إليه، وذلك مع المؤمنين من استعمال العفو والحلم وخفض الجناح قال الله تعالى: (... **وإذا ما غضبوا هم يغفرون**) (الشورى: 37) فيجتمع لهم لين الجانب مع الأولياء، والغلظة مع الأعداء، قال تعالى: ﴿...

---

(1) الحديث النبوى مصطلحه وبلاغته وكتبه ص 98,97نقلاً عن دفاع عن البلاغة ص 81- 89

(2) متفق عليه من حديث أبى هريرة. وانظره فى مشكاة المصابيح ح (5053) 225/9

(3) أى عن أبى عزة الشاعر لأن سبب ورود الحديث أن النبى أسره يوم بدر ثم من عليه وعاهده أبو عزة على ألا يعود إلى هجائه والتحريض عليه، وعاد بعد ذلك فأسر يوم أحد فسأل الرسول أن يمن عليه فقال النبى " لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين " ويلدغ: يروى بضم الغين على الخبر، وبكسرها على النهى. صحيح مسلم بشرح النووى 124/18

أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...﴾ (الفتح: 29)، وقال: ﴿... أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ...﴾ (المائدة: 54) [1] ويلاحظ هنا الثراء فى المعنى، مع التجديد والابتكار فى الأسلوب حيث عبر هنا عن الخداع بـ " **اللدغ** " وهو عض الحية، ويطلق على الرجل الطعان فى أعراض الناس. فليتأمل فى روعة التصوير النبوى!

ومن ذلك قوله ﷺ: " **هذا حين حمى الوطيس** " [2] " ويقصد النبى بذلك اشتدت الحرب وعظم الخطب، وهو مجاز، لأن الوطيس فى كلامهم حفيرة تحتفر فيوقد فيها النار للاشتواء، ولا وطيس على الحقيقة، وإنما المراد شدة المصاع والتفاف الأبطال، واختلاط الرجال، ومن هنا قالت العرب: أوقدت نار الحرب بين آل فلان وآل فلان، وقال الله سبحانه مخرجاً للكلام على مطارح لسانهم ومعارف أوضاعهم: ﴿... كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ...﴾ (المائدة: 64). وتشبيه الحرب بالنار يكون من وجهين: أحدهما: لحر مواقع السيوف، وكرب ملابس الدروع، وحمى المعترك لشدة العراك وكثرة الحركات والوجه الآخر: أن يكون إنما شبهت بالنار لأنها تأكل رجالها، وتفنى أبطالها كما تأكل النار شعلها، وتحرق حطبها " [3]

وهذا غيض من فيض مما يزخر به البيان النبوى من الأصالة والابتكار، ومما انفرد به النبى ﷺ من الفصاحة والبلاغة، ولم يسمع عن أحد قبله من العرب، ولم يتفق لأحد منهم فى حسن بلاغتها وقوة دلالتها، وغرابة القريحة اللغوية فى تأليفها وتنضيدها، وهذه الاحاديث وغيرها قد صار مثلاً وأصبح ميراثاً خالداً فى البيان العربى [4]

المعانى فى الحديث النبوى: النبى ﷺ مبلغ عن ربه، مبين لأمره ونهيه، ولابد من أن يكون لديه من قوة الحجة، ووضوح البيان ما يتناسب مع هذه الرسالة العظيمة والغاية النبيلة الشريفة، ولقد سبق بيان ذلك عند الحديث عن جوامع الكلم فى بيانه ﷺ، فلا حاجة لإعادة الكلام فيه هنا. ولكن ما يعنينا هنا هو الحديث عن المعانى فى بيانه ﷺ، وتوضيح ذلك من الأهمية بمكان لأن النبى ﷺ برسالته قد ختمت رسالات السماء إلى الأرض، فلابد من أن يكون بيانه واضحاً للعام والخاص، وأن تكون معانيه مما يناسب تطور الأزمنة، وتغير الأمكنة، وأن يراعى فى معانيه

---

(1) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى – باب فى أحاديث متفرقة – 124/18, وشرح الطيبى على مشكاة المصابيح 260,259/9

(2) أخرجه مسلم –كتاب الجهاد – باب غزوة حنين – 116/12 . وانظر شرح صحيح مسلم للنووى 116/12

(3) ينظر المجازات النبوية ص 45

(4) ولمزيد من التفصيل ينظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية فى موضوع " تأثير النبى صلى الله عليه وسلم فى اللغة " ص 262- 269

الاختلافات الفكرية بين بنى البشر، كما يراعى فيه اختلاف المجتمعات، والأعراف والعادات. والمعانى الحديثية بما فيها من خصائص وسمات تدل على سمو هذا البيان، وسمو النفس التى خرجت منها، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم : 3،4).

ومن أبرز خصائص المعانى فى بيانه ﷺ :

أولاً: السهولة والوضوح: فالحديث النبوى بيان من رب الناس على لسان خير الناس لخير الناس، وصلاحهم فى الدنيا وسعادتهم فى الآخرة. وليست معانى الحديث لفئة دون فئة، أو مجتمع دون مجتمع، أو لجيل دون جيل، أو لأصحاب الفهوم العالية دون من سواهم، بل هى لهداية الناس كافة، لكل أبيض وأحمر، وعربى وعجمى، حيث يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: 44) [1]

وهذه الخصيصة من خصائص المعانى فى الحديث النبوى لا تحتاج إلى تمثيل لأنها مطردة وواضحة، وظاهرة، ويكفى فيها أى مثال من الحديث. ولنأخذ مثلاً قوله ﷺ: " **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أوليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه** " [2]

إن معانى هذا الحديث من الوضوح والظهور بمكان، فهى تحض على النطق بما يرضى الله من الأقوال، وتبين أن قول الخير من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، وأن الصمت عن الشر مما يرضى الله، كما تبين أن إكرام الجار من الإيمان بالله واليوم الآخر، وكذلك إكرام الضيف. وهذا الحديث يشير من جانب آخر إلى أن الإيمان أقوال وأعمال وهذه الأعمال بضع وستون أوبضع وسبعون شعبة كما جاء فى الحديث الصحيح.

وخذ مثلاً آخر، قوله ﷺ: " **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً** " [3]

ففى الحديث بيان أن من حث على فعل الخير بالقول أو الفعل فإن الله يكتب له من الأجر مثل أجور من استجاب لدعوته، وفيه مضاعفة الأجر لمن تعلم العلم وعلمه لعموم فضله، وكثرة

---

(1) يقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: (لتبين للناس ما نزل إليهم...) أى من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق، وسيد ولد آدم، فتبين لهم ما أجمل، وتفصل لهم ما أشكل. تفسير ابن كثير 524/2, وتفسير القرطبى 72/9

(2) متفق عليه من حديث ابن مسعود. اللؤلؤ والمرجان ح (43) 13/1

(1) متفق عليه من حديث أبى هريرة. اللؤلؤ والمرجان ح (97) 31/1

نفعه. وخذ مثلاً فى الترهيب والتحذير قوله ﷺ: " **أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما** " [1]

ففى الحديث التحذير من رمى المسلم بالكفر، وأن كلمة الكفر ترجع إلى قائلها إن لم تكن فى أخيه.

وفى مقام بيان علامات الساعة. يقول ﷺ: " **لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها** " ثم قرأ الآية [2].

ولكن معانى بعض الأحاديث مع وضوحها قد تحتاج إلى توضيح وبيان من أولى العلم الذين فهموا عن الله ورسوله، ومن ذلك: قوله ﷺ: " **سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر** " [3] فمعنى الحديث أن سب المسلم بغير حق حرام بإجماع الأمة، وفاعله فاسق كما أخبر النبى ﷺ. ولكن **الكفر** هنا يحتاج إلى توضيح. فقتاله بغير حق لا يكفر به عند أهل الملة إلا إذا استحله.

ومن هنا قال العلماء فى تأويل الكفر فى الحديث أكثر من قول. أحدها: أنه فى المستحل. والثانى: أن المراد كفر الإحسان والنعمة وأخوة الإسلام لا كفر الجحود. والثالث: أنه يؤدى إلى الكفر بشؤمه. والرابع: أنه كفعل الكفار [4] وقد يأتى التوضيح من النبى ﷺ كما فى الحديث " **أتدرون من المفلس؟** " [5] وحديث " **أتدرون ما الغيبة؟** " [6] وحديث " **أتدرون ما الكوثر ؟** " [7]، وهذه الأحاديث سهولتها جاءت من توضيح النبى ﷺ لمعانيها. أما توضيح العلماء لبعض الأحاديث التى تشكل على أفهام بعض الناس فإنما هو بما جاء عن النبى ﷺ من أحاديث أخرى تتصل بالموضوع، أو بالقرائن التى يعرفها أولوا العلم، أو بالجمع بين الأحاديث، أو غير ذلك مما يعرفه أولوا العلم والدراية بحديث رسول الله ﷺ، وهم الذين يعرفون المطلق والمقيد، والعام والخاص، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك مما يحتاج إليه فى معرفة وفهم الحديث النبوى.

---

(2) متفق عليه من حديث ابن عمر. اللؤلؤ والمرجان ح (39) 13/1

(3) متفق عليه من حديث أبى هريرة. اللؤلؤ والمرجان ح (97) 31/1

(4) متفق عليه من حديث ابن مسعود. اللؤلؤ والمرجان ح (43) 13/1

(5) انظر صحيح مسلم بشرح النووى 54/2

(6) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة – باب تحريم الظلم – 135/16

(1) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة – باب تحريم الغيبة – 142/16

(2) أخرجه مسلم من حديث أنس – باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة – 112/4

ثانياً: التنوع والشمول: فالنبى ﷺ بدعوته جاء لهداية البشرية وإرشادها فى معاشها ومعادها. ومن هنا نجد معانى الحديث النبوى تتناول شؤون الدين والدنيا، فلا تقتصر معانيه على ما يتصل بالدين وحده أو الدنيا وحدها، بل تتنوع فيه المعانى وتختلف، فنجد من الحديث ما يتحدث عن الصلاة، أو الزكاة، أو الحج، أو غير ذلك من العبادات. ونجد من الأحاديث الأخرى ما يتحدث عن الأخلاق كالحياء، والصدق، والصبر، والحلم، وغير ذلك. ومن الأحاديث الأخرى ما يتحدث عن المعاملات كالبيع، والسلم، والضمان، وغير ذلك. ومن الأحاديث ما يتصل بالآخرة كالجنة والنار، وغير ذلك، والمقام يضيق عن الحصر. ويضاف إلى ذلك غزارة المعانى فى الأحاديث، فحديث واحد يتضمن من الأفكار والمعانى الكثير والكثير؛ لأن المصطفى ﷺ أوتى جوامع الكلم، وخذ مثلاً حديث " **إنما الأعمال بالنيات** " الذى قال عنه الشافعى: " هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل فى سبعين باباً من أبواب الفقه " [1]، وغير ذلك من أحاديث جوامع الكلم وغيرها.

ثالثاً: المرونة والسعة: وهذه الخصيصة مما تميزت به المعانى فى الحديث النبوى، السعة والمرونة والقابلية لتعدد الأفهام، وهذه السعة والمرونة ممايسر ويوسع على الأمة فى العمل وفى ذلك إثراء للمعنى. وهذه ميزة من الميزات التى اختص بها الإسلام بشكل عام، والحديث النبوى بشكل خاص. ومن ذلك: قوله ﷺ: " **لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة** " [2] فأدرك بعضهم

---

(3) وهذا الحديث متفق عليه من حديث عمر، وانظر شرحه فى جامع العلوم والحكم ص7- 26

(1) أخرجه البخارى من حديث ابن عمر –كتاب الجمعة – أبواب صلاة الخوف – ح (923) – 506/2 - وفى كتاب المغازى – باب مرجع النبى من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة – ح (3969) – 471/7, وأخرجه مسلم – باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين – 97/12. ولكن فى لفظ مسلم ذكر صلاة الظهر بدلاً من صلاة العصر. وقد جمع النووى بين الروايتين على أن هذا الأمر كان بعد دخول وقت الظهر وقد صلى الظهر بالمدينة بعضهم دون بعض فقيل للذين لم يصلوا الظهر: لا تصلوا الظهر إلا فى بنى قريظة، وللذين صلوا بالمدينة: لا تصلوا العصر إلا فى بنى قريظة. ويحتمل أنه قيل للجميع: لا تصلوا العصر ولا الظهر إلا فى بن قريظة، ويحتمل أنه قيل للذين ذهبوا أولاً لا تصلوا الظهر إلا فى بنى قريظة وللذين ذهبوا بعدهم لا تصلوا العصر إلا فى بنى قريظة.وأما اختلاف الصحابة رضى الله عنهم فى المبادرة بالصلاة عند ضيق وقتها فسببه أن أدلة الشرع تعارضت عندهم بأن الصلاة مأمور بها فى الوقت مع أن المفهوم من قول النبى: " لا يصلين أحد الظهر أو العصر إلا فى بنى قريظة " المبادرة بالذهاب إليهم، وأن لا يشتغل عنه بشئ لا أن تأخير الصلاة مقصود فى نفسه من حيث إنه تأخير، فأخذ بعض الصحابة بهذا المفهوم نظراً إلى المعنى لا إلى اللفظ، فصلوا حين خافوا فوات الوقت، وأخذ آخرون بظاهر اللفظ وحقيقته فأخروها، ولم يعنف النبى واحداً من الفريقين لأنهم مجتهدون، ففيه دلالة لمن يقول بالمفهوم، والقياس، ومراعاة المعنى، ولمن يقول بالظاهر أيضاً، وفيه أنه لا يعنف المجتهد فيما فعله باجتهاده إذا بذل وسعه فى الاجتهاد، وقد يستدل به على أن كل مجتهد مصيب، وللقائل الآخر أن يقول: لم يصرح بإصابة الطائفتين، بل ترك تعنيفهم، ولا خلاف فى ترك تعنيف المجتهد إن أخطأ إذا بذل وسعه فى الاجتهاد. صحيح

العصر فى الطريق وقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلى لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف أحداً منهم. فمن الصحابة من نظر إلى ظاهر اللفظ وحقيقته فأخر الصلاة إلى وقت العشاء، ومنهم من نظر إلى المعنى لا إلى اللفظ فصلوا حين خافوا فوات الوقت. وهنا نلمح أن معنى الحديث يحتمل الأمرين، وهذا الاحتمال مما أدى إلى مرونة الحديث وسعة معناه ليشمل كلا الفريقين. وهذا مما يعد من محاسن الإسلام. ومن هنا أخذ العلماء من هذا الحديث أحكاماً تتعلق بالاجتهاد ذكرها الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم، والحافظ ابن حجر فى شرح صحيح البخارى.

ومن ذلك قوله ﷺ لحكيم بن حزام: " **أسلمت على ما سلف من خير**"[1] فهذا الحديث فيه أكثر من معنى. إما أن يكون ظاهره أن الخير الذى أسلفت كتب لك، والتقدير: أسلمت على قبول ما سلف لك من خير. وإما أن يكون معناه ما تقدم من الخير الذى عملته هو لك كما تقول: أسلمت على أن أحوز لنفسى ألف درهم. وأما من قال: إن الكافر لا يثاب فحمل معنى الحديث على وجوه أخرى منها: أن يكون المعنى أنك بفعلك ذلك اكتسبت طباعاً جميلة فانتفعت بتلك الطباع فى الإسلام، وتكون تلك العادة قد مهدت لك معونة على فعل الخير، أو انك اكتسبت بذلك ثناءً جميلاً، فهو باق لك فى الإسلام، أو أنك ببركة فعل الخير هديت إلى الإسلام لأن المبادئ عنوان الغايات، أو أنك بتلك الفعال رزقت الرزق الواسع [2]

ومن ذلك أيضاً ما رواه أبو هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبى ﷺ فسألوه إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: " **وقد وجدتموه** " قالوا: نعم. قال: " **ذاك صريح الإيمان** " [3] فقوله ﷺ: " **ذاك صريح الإيمان** "، و " **محض الإيمان** " [4] معناه: استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً، وانتفت عنه الريبة والشكوك. والرواية الثانية وإن لم يكن فيها ذكر الاستعظام فهو مراد، وهى مختصرة من الرواية الأولى. وقد يكون المعنى أن الشيطان

مسلم بشرح النووى 98/12. ولقد ذكر ابن القيم فى الهدى أن كلا الفريقين مأجور إلا أن من صلى حاز الفضيلتين: امتثال الامر فى الإسراع، وامتثال الأمر فى المحافظة على الوقت. فتح البارى 474/7

(2) سبق تخريجه عند بحث الجناس فى الحديث النبوى. ص 115

(1) انظر صحيح مسلم بشرح النووى 141,140/2, وفتح البارى 354/3

(2) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة – باب بيان الوسوسة فى الإيمان وما يقوله من وجدها – 153/2.

(3) وهذا اللفظ رواية لمسلم من حديث علقمة بن عبد الله قال: سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة قال " تلك محض الإيمان " 153/2

إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه فينكد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه. وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء، ولا يقتصر على الوسوسة، بل يتلاعب به كيف أراد، فعلى هذا معنى الحديث: سبب الوسوسة محض الإيمان، أو الوسوسة علامة محض الإيمان [1]

ومن ذلك قوله ﷺ: " **المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء** " [2] فلقد اختلف العلماء فى معنى الحديث، وفى المقصود بـ " **المعى الواحد للمؤمن والأمعاء السبعة للكافر**" ومما ذكروه: أولاً: أن الحديث خرج مخرج الغالب، وليست حقيقة العدد مرادة، وتخصيص السبعة للمبالغة فى التكثير كما فى قوله تعالى : ﴿... وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ...﴾ (لقمان: 27)، والمعنى أن من شأن المؤمن التقلل من الأكل لاشتغاله بأسباب العبادة، ولعلمه بمقصود الشرع من الأكل، والكافرعلى خلاف ذلك. ثانياً: أن المراد بالمؤمن فى هذا الحديث التام الإيمان؛ لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه اشتغل فكره فيما يصير إليه من الموت وما بعده، فيمنعه الخوف، وكثرة الفكر، والإشفاق على نفسه من استيفاء شهواته. ثالثاً: أن المؤمن يسمى الله عند طعامه وشرابه فلا يشركه الشيطان، فيكفيه القليل، والكافر على العكس من ذلك. رابعاً: أن المؤمن يقل حرصه على الطعام، فيبارك له فيه وفى مأكله فيشبع منه، والكافر على العكس من ذلك. خامساً: قال النووى: المختار أن المراد أن بعض المؤمنين يأكل فى معى واحد، وأن أكثر الكفار يأكلون فى سبعة أمعاء ولا يلزم أن يكون كل واحد من السبعة مثل معى المؤمن. سادساً: قال النووى يحتمل أن يراد بالسبعة فى الكافر صفات هى: الحرص، والشره، وطول الأمل، والطمع ،وسؤ الطبع ،والحسد ،وحب السمن ،وبالواحد فى المؤمن سد خلته إلخ ما ذكروه [3]

رابعاً: السمو والرفعة والشرف: فمعانى الحديث إما أن تدعو إلى فعل أمر من الأمور التى يرضاها الله ورسوله، وإما أن تدعو إلى ترك أمر من الأمور التى يبغضها الله ورسوله. فمعانيه سامية

---

(4) انظر صحيح مسلم بشرح النووى 154/2

(5) متفق عليه من حديث ابن عمر. أخرجه البخارى –كتاب الأطعمة – باب المؤمن يأكل فى معى واحد – ح (5195) – 447,446/9, وأخرجه مسلم – باب المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة امعاء – 14/14- 26. وفى رواية لمسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضافه ضيف وهو كافر، فأمر له رسول الله بشاة فحلبت، فشرب حلابها... حتى شرب حلاب سبع شياه، ثم إنه أصبح فأسلم، فأمر له رسول الله بشاة فشرب حلابها، ثم أمر له بأخرى فلم يستتمها، فقال رسول الله: " المؤمن يشرب فى معى واحد، والكافر يشرب فى سبعة أمعاء " 14- 26

(1) انظر صحيح مسلم بشرح النووى 14/14- 26, وشرح الطيبى على المشكاة 150/8, وفتح البارى 494/9- 451, والمجازات النبوية ص 248

رفيعة القدر، شريفة الذكر؛ لأنها تدعو إلى طريق الهدى والصلاح والإصلاح، وتحض على فعل الطاعات، وتنهى عن المعاصى والمنكرات. والاستدلال لهذا المعنى من السعة بمكان، ويكفى فيه مراجعة حديث فى أمر من الأمور التى حض عليها الإسلام كصلة الرحم، والإحسان إلى الجار، والصدق فى الحديث إلخ. ومراجعة حديث فى نهى من النواهى التى أمر الشرع باجتنابها كالكذب، والغيبة، والحسد، والرياء إلخ.

خامساً: القوة والفخامة، والعظمة والأصالة: فمعانيه قوية مجلجلة، أصيلة لأنها هادفة فى كل ما تدعو إليه أو تنهى عنه، فكلها خير وهدى للناس. فهى تؤصل أصول الفضائل والأخلاق، وتدعو إلى ترك الرذائل وسوء الأخلاق، ولا نجد معنى فى الحديث بغير هدف أو فائدة أوغاية نبيلة، بل على العكس إما أن تدعو إلى ترسيخ فضيلة أو محو رذيلة، وكلها صواب لأنها تدعو إلى سلوك الطريق القويم والصراط المستقيم، وكلها قوة لأنها تدعو إلى الهدى والصلاح فى الدنيا لسعادة الآخرة، وهو أمر مهم وجد خطير لما فى الصلاح من قوة للمؤمن على وجه الخصوص، وقوة للمجتمع على وجه العموم. وهذا ما أكسب معانى الحديث قوتها من ناحية وأصالتها من ناحية أخرى؛ لأنها خرجت من مشكاة النبوة على لسان من لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى. فعصمة مصدرها، وسمو هدفها، وقوة تركيزها أكسبها الأصالة والقوة. والأمر هنا أوضح من الشمس لذى عينين فلا يحتاج إلى الاستشهاد له، فليأخذ المسلم أى حديث من الاحاديث، ويتأمل فيه ليرى هذه الخصيصة فى المعنى [1]

الفصل الثانى: الاحتجاج بالحديث النبوىفى مجال الدراسات النحوية والصرفية[2]

(1) ولقد ذكر الأستاذ الدكتور / محمد لطفى الصباغ أن فى معانى الحديث صفات قل أن تجتمع فى كلام سواه. ومن هذه الصفات: الغنى فى الأفكار، والعمق، والجدة، والانسجام، والتسلسل، والغوص فى أعماق النفس الإنسانية، وملامسة أبعاد النفس. الحديث النبوى مصطلحه وبلاغته، وكتبه ص54- 58

(1) وذلك موضع الخلاف بين العلماء. أما اللغة فلم يتردد العلماء فى اعتماد الحديث النبوى أصلاً أصيلاً من أصول المادة اللغوية. وقد أصبحت كتب غريب الحديث من المصادر التى رجع إليها مؤلفوا المعجمات فى تصانيفهم حتى أصبحت هذه المعجمات زاخرة بالأحاديث النبوية، بل إن ابن منظور صرح فى مقدمة لسان العرب بأنه جعل كتاب " النهاية فى غريب الحديث " من مصادره. الحديث النبوى ص 114. وكذلك الاحتجاج بالحديث فى البلاغة أو التفسير أو الأدب، لاخلاف فى الاحتجاج به. فالخلاف فى الاحتجاج بالحديث فى النحو والصرف فقط؛ لأن هذين العلمين يعتمدان فى وضع القواعد والأصول على ضبط أحرف الكلمات مفردة ومركبة، وأن أى

الحديث النبوى كلام النبى ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى، وقد أوتى صاحبه جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً، وكان المفترض ألا يثير بعض العلماء قضية الاحتجاج بالحديث فى الدراسات النحوية والصرفية.

وقد أفاض العلماء قديماً وحديثاً فى الرد على هؤلاء المانعين للاحتجاج بالحديث فى النحو والصرف، وفى عجالة أشير إلى المانعين والمجوزين، وحجج المانعين، والرد عليهم ودحض رأيهم بالحجج القوية الدامغة.

أولاً: المانعون للاحتجاج بالحديث فى الدراسات النحوية والصرفية: أول من نص على عدم الاستشهاد بالحديث النبوى فى النحو هو أبو الحسن على بن محمد الإشبيلى المعروف بابن الضائع [1]، وأثير الدين محمد بن يوسف المعروف بأبى حيان [2]

ثانياً: المجوزون للاحتجاج بالحديث فى الدراسات النحوية والصرفية: وهم الجمهور، ومذهبهم هو الأصل السديد الصحيح، وهو الذى أخذ به علماء اللغة حيث امتلأت معجماتهم التى تركوها بالحديث، وكذلك فإن كتب أئمة النحو المتقدمين مترعة بالأحاديث يستشهدون بها كابن فارس ت (395) هـ، وابن جنى ت (392) هـ، وابن برى ت (582) هـ. قال ابن الطيب: " لا نعلم أحداً من علماء العربية خالف فى هذه المسألة إلا ما أبداه الشيخ أبو حيان فى شرح التسهيل، وابو الحسن بن الضائع فى شرح الجمل، وتابعهما فى ذلك جلال الدين السيوطى ت (911) هـ " [3]، ويأتى على رأس المجوزين من النحاة المتأخرين

تغيير فى أبنية الكلمات أو فى أواخرها يؤدى إلى تغيرها أو تغير حكمها الإعرابى ومعناها الذى جاءت له فى العبارة. أما العلوم الأخرى فليس الهدف منها كالهدف من النحو والصرف.

(2) هوعلى بن محمد بن على بن يوسف الكتامى الإشبيلى أبو الحسن المعروف بابن الضائع، توفى سنة (860) هـ. ومن تصانيفه: شرح الجمل، وشرح كتاب سيبويه. بغية الوعاة 204/2

(3) هو محمد بن يوسف بن على بن حيان الأندلسى الغرناطى، ولد فى الأندلس ثم رحل إلى مصر، وتوفى سنة (745) هـ. ومن تصانيفه: البحر المحيط فى التفسير، والنهر مختصره، والتذييل والتكميل فى شرح التسهيل. بغية الوعاة 280/1- 285

(4) انظر الحديث النبوى ص 111,110

ابن مالك [1]، وابن هشام [2] من المتأخرين، وفى كتب النحاة من أندلسيين وغيرهم نجدها مملؤة بالاستشهاد بالحديث الشريف، وقد استدل بالحديث الشريف الصقلى، والشريف الغرناطى فى شرحيهما لكتاب سيبويه، وابن الحجاج فى شرح المغرب، وابن الخباز فى شرح ألفية ابن معطى، وأبو الشلوبين فى كثير من مسائله، وكذلك استشهد بالحديث السيرافى، والصفار فى شرحيهما لكتاب سيبويه، وقال ابن الطيب: بل رأيت ذلك فى كلام أبى حيان نفسه [3]، وكذلك استشهد بالحديث ابن الطراوة [4]، والسهيلى [5]، وابن خروف [6]، والدمامينى [7].

وممن توسط بين الفريقين فقبل الاحتجاج ببعض الأحاديث، ورفض الاحتجاج ببعضها الآخر: الإمام الشاطبى [8] تلميذ أبى حيان حيث قسم الأحاديث إلى قسمين: الأول: قسم يعتنى يعتنى ناقله بمعناه دون لفظه، فهذا لم يقع به استشهاد أهل اللسان. الثانى: قسم عرف اعتناء ناقله بلفظه لمقصود خاص كالأحاديث التى قصد بها بيان فصاحته ﷺ ككتابه لهمدان، وكتابه لوائل بن حجر، والأمثال النبوية، فهذا يصح الاستشهاد به فى العربية، ثم نعى على ابن مالك عدم هذا التفصيل فقال: وابن مالك لم يفصل هذا التفصيل الضرورى الذى لابد منه، وبنى الكلام على الحديث مطلقاً [9]

---

(1) هو محمد بن عبد الله بن مالك العلامة جمال الدين أبو عبد الله، توفى سنة (672) هـ. ومن تصانيفه: الخلاصة وهى الألفية الشهيرة. بغية الوعاة 130/1- 137

(2) هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصارى، توفى سنة (761) هـ. ومن تصانيفه: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، وشذور الذهب وشرحه. بغية الوعاة 68/2- 70

(3) انظر البيان النبوى ص 44 نقلاً عن مقال للشيخ / محمد الخضر حسين فى مجلة المجمع اللغوى.

(4) هو سليمان بن محمد بن عبد الله السّبائى المالقى أبو الحسين ابن الطراوة، توفى سنة (528) هـ. ومن تصانيفه: الترشيح فى النحو وهو مختصر، ومقالة فى الاسم والمسمى. بغية الوعاة 602/1

(5) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن حبيش بن سعدون السهيلى الأندلسى، توفى سنة (581) هـ. ومن تصانيفه: الروض الأنف فى شرح السيرة. بغية الوعاة 81/2

(6) هو على بن محمد بن على بن محمد نظام الدين أبو الحسن ابن خروف الأندلسى النحوى، توفى سنة (609) هـ. ومن تصانيفه: شرح سيبويه، وشرح الجمل. بغية الوعاة 203/2

(7) هو محمد بن أبى بكر بن سليمان الإسكندرى بدر الدين المعروف بابن الدمامينى، توفى سنة (837) هـ. بغية الوعاة 67,66/1

(8) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الغرناطى الشهير بالشاطبى، أصولى حافظ. توفى سنة (790)هـ ومن مصنفاته: الموافقات فى أصول الفقه، والاعتصام. ينظر الأعلام 75/1

(9) انظر الاحتجاج بالحديث الشريف فى مجال الدراسات النحوية ص 2 نقلاً عن خزانة الأدب للبغدادى 27/1, وما بعدها.

حجج المانعين: احتج المانعون للاحتجاج بالحديث بحجج ضعيفة لا تثبت أمام النقد العلمى، وهذه الحجج:

أولاً: أن علماء الحديث أجازوا الرواية بالمعنى، ومعنى ذلك أن بعض الاحاديث التى رويت بالمعنى لم تكن ألفاظها من ألفاظ النبى ﷺ، وإنما هى

من ألفاظ الرواة، فالألفاظ ليست ألفاظ النبى ﷺ.

ثانياً: أن معظم رواة الحديث كانوا من الأعاجم الذين تعلموا العربية عن طريق الدراسة والمحاكاة، وذلك مما أدى إلى وقوع اللحن كثيراً فيما ورد من الحديث، ودخل فى كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب، فهم كانوا يتعلمون لسان العرب، واللغة لم تكن لهم سليقة، فوقع اللحن فى كلامهم وهم لا يعلمون.

ثالثاً: أن الأئمة الأوائل الواضعين لعلم النحو، المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبى عمرو، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائى، والفراء، وعلى بن مبارك الأحمر، وهشام الضريرمن أئمة الكوفيين لم يحتجوا بالحديث، وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين، وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد، وأهل الأندلس. هذه حجج المانعين للاحتجاج بالحديث النبوى فى الدراسات النحوية والصرفية، وسأكر عليها بالإبطال وفق الترتيب السابق ذاكراً حجج الجمهور الدامغة.

الرد على حجج المانعين :

أولاً: فيما ذكروه من أن العلماء أجازوا الرواية بالمعنى إلخ. فيرد عليهم بأن تجويز رواية الحديث بالمعنى هو رأى طائفة من علماء الحديث، وليس أمراً مجمعاًَ عليه، بل هناك من يمنع الرواية بالمعنى كابن سيرين، والقاسم بن محمد، وثعلب، وأبى بكر الرازى من الحنفية [1]. والمجوزون أنفسهم يقولون: إن الأصل رواية الحديث باللفظ، فأمر الرواية بالمعنى أمر احتمالى، وعلى فرض وقوعه فالمغير لفظ بلفظ فى معناه هو عربى مطبوع يحتج بكلامه العادى [2]. فمن أجاز الرواية بالمعنى فقد أراد التجويز العقلى الذى لا ينافى وقوع نقيضه؛ ولذلك نراهم يتحرون الضبط ويتشددون فى ذلك، فلقد كانوا حريصين الحرص كله على أن يسجلوا أو يرووا الحديث بلفظه.

---

(1) انظر تدريب الراوى 92/2

(2) ولقد كان العرب مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك. فكان أحدهم يحفظ أشعار بعض الشعراء فى سمعة واحدة، ولقد جاء أن ابن عباس رضى الله عنه حفظ قصيدة عمر بن ربيعة * أمن آل نعم أنت غاد فمبكر * فى سمعة واحدة على ما ذكروا. انظر جامع بيان العلم وفضله ص117,116

ومن هنا فلقد شرطوا أن يكون الراوى على علم بما يغير المعنى أو ينقصه، وأن يكون محيطاً بمواقع الألفاظ بل شرط بعضهم أن يكون محيطاً بدقائق علم اللغة، وشرط الجمهور أن يكون عالماً مقدار التفاوت بينها حيث يفرق بين المحتمل، وغير المحتمل، والظاهر والأظهر، والعام والأعم، وهذا ما ذهب إليه جمهور الفقهاء والمحدثين [1]. فالرواية بالمعنى فى رأيهم ليست سوى رخصة فى حال الضرورة، ومن أجازها إنما أجاز فيما لم يدون فى الكتب، أما ما دون فى الكتب فلا يجوز التصرف فيه بوجه. وتدوين الحديث وقع فى الصدر الأول قبل أن تفسد اللغة [2] وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به، فالرواية بالمعنى غالباً تكون فى الكلمة والكلمتين والثلاث، وقل أن تقع فى جميع ألفاظ الحديث، وربما ذكر الراوى عقب الحديث إذا اضطر إلى الرواية بالمعنى ولم يتأكد من اللفظ لفظاً يفيد التصون والاحتياط؛ وذلك لعلمهم بما فى الرواية بالمعنى من الخطورة [3]، ولقد دلت الأخبار الصحيحة على أن الصحابة كانوا يتحرون الدقة فى نقل حديث النبى ﷺ، ويحرصون على إيراد كلامه وفق الترتيب الذى سمعوه منه، وقد كان عدد من الصحابة يكتبون الحديث فى عهد النبى ﷺ، وبدء التدوين كان فى نهاية القرن الأول نفسه، وهذا يرجح أن الذى فى مدونات الطبقة الأولى لفظ النبى نفسه، فإن كان هناك إبدال لفظ بمرادفه فالذى أبدله عربى فصيح يحتج بكلامه كما قلنا آنفاً. ومهما يكن من أمر الحديث فإنه أحسن حالاً من الأشعار والأبيات التى يلجأ إليها النحويون، ويملؤون بها كتبهم، وبعضها منحول، والآخر مشكوك فيه أو مجهول لا يعرف

---

(1) فإن لم يكن عالماً بالألفاظ ومقاصدها، خبيراً بما يحيل معانيها، لم تجز له الرواية بالمعنى بلا خلاف، بل يتعين اللفظ الذى سمعه، فإن كان عالماً بذلك فلقد قالت طائفة من أصحاب الحديث والفقه والأصول: لا تجوز إلا بلفظه، وجوز بعضهم فى غير حديث النبى صلى الله عليه وسلم، ولم يجوز فيه. وقال جمهور السلف والخلف من الطوائف: يجوز بالمعنى فى جميعه إذا قطع بأداء المعنى. تدريب الراوى 92,91/2, وقواعد التحديث ص 221- 225

(2) ولقد وقع تدوين الحديث بأمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ت (101) هـ، ومن المروى فى الصحيح أنه كتب إلى أهل الآفاق أن انظروا ما كان من حديث رسول الله وسنته فاجمعوه أو فاكتبوه، وأول من دون الحديث محمد بن مسلم الزهرى ت (124) هـ، والمعروف أنه كان يروى عن الصحابة مثل: عبد الله بن عمر، وانس بن مالك، وسهل بن سعد الساعدى. هدى السارى ص 9,8, وقواعد التحديث ص 71,70

(3) ويرى بعض العصريين أن السبب الذى جعل العلماء يجوزون رواية الحديث بالمعنى يرجع إلى محاولة هؤلاء الرواة الدقة والضبط والإتقان فى رواية الحديث، ولكنهم بشر، ولهم طاقة، والذاكرة عرضة للنسيان، فلأجل بعدهم عن الكذب فى حديث رسول الله بإتيان ألفاظ من ألفاظهم ونسبتها إلى النبى صلى الله عليه وسلم جوزوا الرواية بالمعنى، حتى لا يقعوا فى هذا المأزق الوعر الذى يجر عليهم غضب الله ثم غضب رسوله. الاحتجاج بالحديث الشريف فى الدراسات النحوية والصرفية ص 3

قائله [1] ولنا أن نسأل أبا حيان بعد ذلك، ما رأيه فى الأحاديث التى وردت من طرق متعددة، واتحدت ألفاظها، إذ أن اتحاد اللفظ مع تعدد الطرق دليل على أن

الراوى لم يتصرف فى لفظ؟ ثم ما رأيه فى الأساليب البيانية المشتهرة من جوامع كلمه ﷺ، وقد سارت على كل لسان، أيكون الرواة أيضاً قد تصرفوا فى بعض ألفاظها حين جرت على الأفواه كالمثل الشرود [2]

ثانياً: قولهم: إن معظم أئمة الحديث كانوا من الأعاجم الذين تعلموا العربية عن طريق الدراسة، وذلك مما أدى إلى وقوع اللحن كثيراً فيما ورد من الحديث إلخ. عجيب أمر هؤلاء المانعين للاحتجاج بالحديث لهذا السبب، وقد غاب عن أذهانهم أن إمام النحو سيبويه الذى يعد أستاذ الأساتذة، وصاحب القياس والتعليلات فى اللغة، ومنتج الكتاب الذى يعد من أكبر الأصول فى اللغة العربية وقواعدها، غاب عنهم أن سيبويه لم يكن عربياً، وأنه كان أعجمياً، واللغة ملك لمن يتعلمها، فكل من تعلم اللغة وتكلم بها، وعرفها قواعدها فهو عربى، وإن كان نسبه أعجمياً. ثم إن كثيراً مما يرى أنه لحن قد ظهر له وجه من الصحة، وقد ألف فى هذا الباب ابن مالك " التوضيح فى حل مشكلات الجامع الصحيح " وذكر للأحاديث التى يشكل إعرابها وجوهاً يستبين بها أنها من قبيل العربى الصحيح، وكثيراً ما نرى ألفاظاً من الحديث ينكرها بعض اللغويين

---

(4) انظر للدقة فى نقل الحديث بلفظه فى الحديث النبوى ص 112,111, والبيان النبوى ص 37,36. هذا ويرى الدكتور / رجب البيومى أن الذين ذهبوا إلى جواز الرواية بالمعنى قد لبس عليهم الأمر حين وجدوا اختلافاً يسيراً فى روايتين لحديث واحد فتوهموا أن الأصل الذى قاله الرسول واحد، وأن اختلاف الألفاظ من الرواة، وهو وهم فى أكثره لأننا نعلم أن = = الرسول كان يكرر أحاديثه لصحابته فى جلساته المتعاقبة ليسمع من لم يكن سمع، وقد يبدل بعض الألفاظ فى مجلس سابق ببعضها الآخر فى مجلس تال، ثم يروى من سمع المجلسين كما سمع، فتختلف الروايتان فى الألفاظ ويظن بعض الناس أن الحديث قد روى بمعناه، ولكن تكرار القول من الرسول يفسر هذا التغيير فى النص – فى أكثر أحواله – البيان النبوى ص 38

(1) انظر البيان النبوى ص 44. ومما يدل على فساد رأى المانعين أن هناك أحاديث نقطع بورود لفظها بالذات، ووصوله إلينا، ومن هذه الأنواع التى لاينبغى الاختلاف عليها: 1- أحاديث الذكر والدعاء التى يتعبد بها كالقنوت والتحيات. 2- الأحاديث التى تروى بقصد الاستدلال على فصاحته كقوله: " حمى الوطيس ". 3- الأحاديث التى كان يخاطب فيها كل قوم من العرب بلغتهم كحديث " الصيام فى السفر ".4- الأحاديث التى يرويها قوم لا يجيزون الرواية بالمعنى كابن سيرين، ومحمد بن القاسم. 5- الأحاديث التى وردت من طرق متعددة، واتحدت ألفاظها، فإن اتحاد الألفاظ مع تعدد الطرق دليل على أن الرواة لم يتصرفوا فى ألفاظها. 6- الأحاديث التى دونها من نشأ فى بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة كمالك و والشافعى. 7- الأحاديث التى جاءت فى كتب النبى ومعاهداته. أما الأحاديث الشاذة المغموزة، أو الموضوعة فهى التى لا يصح أن يحتج بها. الحديث النبوى ص 114,113

فيأتى لغوى آخر، فيذكر لها وجهاً مقبولاً، أو يسوق عليها شاهداً صحيحاً. ثم إن وجود ألفاظ غير موافقة للقواعد المتفق عليها لا يقتضى ترك الاحتجاج بالحديث جملة، وإنما يحمل أمرها على قلة ضبط أحد الرواة فى هذه الألفاظ خاصة، وإذا وقع فى رواية بعض الأحاديث غلط أو تصحيف فإن الأشعار يقع فيها من الغلط والتصحيف ،وهى حجة من غير خلاف. وهذا اللحن الذى زعموا وقوعه فى بعض الأحاديث بسبب عجمة الرواة قليل، ولا تقوم به حجة لأحد، ولا يصح أن يمنع من أجله

الاحتجاج بالحديث الصحيح، وهل يمنع عاقل الاحتجاج بالقرآن إذا لحن به بعض الناس؟ ولقد حذر العلماء من اللحن فى الحديث أشد التحذير، وعد بعضهم الحديث الملحون كذباً على النبى ﷺ يدخل مرتكبه فى هذا الوعيد الشديد الوارد فى الحديث الصحيح " **من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار** ". قال الأصمعى: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل فى جملة قوله ﷺ: " **من كذب علىّ متعمداً** ... " الحديث لأنه لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه، وقال ابن حجر: يؤخذ من الحديث أن من قرأ حديثه وهو يعلم أنه يلحن فيه يدخل فى الوعيد الشديد لأنه بلحنه كاذب عليه [1] ثم إن رواة الشعر أيضاً فيهم من الأعاجم والشعوبية أمم، على أن المسلمين فى القرون الأولى كانوا أحرص على إتقان الحديث من حفظ الشعر، والتثبت فى روايته، وقد قيض الله سبحانه لأحاديث رسوله من الجهابذة النقاد من نفى عنها ما كان فيها من شبهة الوضع والانتحال، وهذا حرم الشعر مثله.

ثالثاً: قولهم: إن الأئمة الأوائل الواضعين لعلم النحو لم يحتجوا بالحديث، وتبعهم على ذلك المتأخرون من نحاة الأقاليم إلخ. ويجاب على ذلك بأن علماء العربية فى العهد الأول لم يتعاطوا رواية الحديث حتى يقفوا على ما يسعف فى الاستشهاد، ثم إن دواوين الحديث لم تكن مشتهرة فى ذلك العهد، ولم يتناولها علماء العربية كما كانوا يتناولون القرآن الكريم، وإنما اشتهرت دواوينه، ووصلت إلى أيدى أهل العلم من بعد، فإن سلمنا عدم احتجاجهم به فلعدم انتشاره بينهم لا لأنهم يمنعون الاحتجاج به. ولولا ذلك لاقتصروا على الاستشهاد بها دون الأشعار، وقد تلافى المتأخرون هذا فكانوا يحتجون دائماً بالحديث. فعلماء الحديث غير علماء العربية، كما أن النحاة الأولين لم يفصحوا صراحة عن رأيهم فى الاحتجاج بالحديث حتى يقطع بأنهم كانوا يرون عدم الاحتجاج بالحديث النبوى.

(1) الحديث النبوى ص 112

أما ما ذكره المانعون من أن المتقدمين من النحاة ومن تبعهم من المتأخرين على منع الاحتجاج بالحديث. فيجاب عليه بأن كتب النحاة من أندلسيين وغيرهم مملؤة بالاستشهاد بالحديث، وقد استدل بالحديث الصقلى، والشريف الغرناطى فى شرحيهما لكتاب سيبويه، وابن الحجاج فى شرح المغرب، وابن الخباز فى شرح ألفية ابن معطى، وأبو الشلوبين فى كثير من مسائله، وكذلك استشهد بالحديث السيرافى، والصفار فى شرحيهما لكتاب سيبويه وهو مذهب ابن مالك، وابن هشام. كما أن كتب المتقدمين مترعة بالأحاديث يستشهدون بها كابن فارس، وابن جنى، وابن برى كما سبق، وكذلك استشهد بالحديث ابن الطراوة، والسهيلى، وابن خروف، والدمامينى. **ويأتى بعد ذلك حجة أخرى يجب أن نتنبه إليها، وهى تتصل بطابع الحديث النبوى.** فمعلوم أن كل أسلوب أدبى يحمل طابع صاحبه، وهوصورة صادقة من نفسه، فحاسة الذوق الأدبى تهدينا إلى خصوصية الأسلوب النبوى وتميزه من سائر أساليب الناس، وذلك فى العناصر الأدبية من الفكرة، والصورة، والتعبير [1]، فأحاديث نبينا ﷺ لها سمت خاص، وميسم معين، وطابع مشتهر، ولقد ترك رسول الله ﷺ آثاراً مشتهرة فى الخطبة، والرسالة، والأقصوصة، والمثل، والحديث المتبادل، والابتهال السماوى، وقد طبعت كلها بطابعه، واتسمت بميسمه، فأنت تحس روحاً واحدة تنظم هذه الآثار على اختلاف مناحيها [2]

كل هذه العوامل مجتمعة ترجح الاستشهاد بالحديث، وتضعف حجج المانعين. ومن هنا فلقد **تبنى مجمع اللغة العربية بالقاهرة قراراً بالاحتجاج بالحديث الشريف، ورأى المجمع الاحتجاج ببعض الأحاديث فى أحوال خاصة مبينة فيما يأتى:**

---

(1) فإذا كان التعبير تغير تغيراً طفيفاً فى بعض دون بعض أيكون لنا إزاء ذلك أن نرفض الاحتجاج بالحديث، ونظن بصياغته الظنون احتياطاً لهذه القلة القليلة مما تطرق إليه التبديل، ولماذا لا نرفض الاستشهاد إذن بالشعر العربى القديم، إذ أن من اليقين كل اليقين أن الوضع قد تطرق إلى بعض أبياته، وقد ظهر الانتحال واضحاً فى بعض ما روى حماد وخلف، وأفاض فى ذلك أئمة الأدب بما لا مجال لإنكاره. لو اتخذنا مقياس بعض المحدثين فى إهمال الاستشهاد فى الشعر القديم لمجرد إضافة يسيرة أو كثيرة تبرع بها بعض الرواة على ما تنوقل من القصائد والأبيات. ولكننا مع ذلك نستشهد بالشعر العربى عالمين أن حاسة الذوق الأدبى لدى الناقدين تستطيع بمهارة أن تفرق بين الأصيل والدخيل. البيان النبوى ص 41.

(2) من مصادر و مراجع الموضوع جامع بيان العلم وفضله ص 117,116, وهدى السارى ص 9,8, وتدريب الراوى 92/2, وقواعد التحديث ص 71,70, 221- 225, والبيان النبوى ص 33- 44، والحديث النبوى ص 109- 114, والاحتجاج بالحديث الشريف فى الدراسات النحوية والصرفية ص 1- 4، ومعجم قرارات مجمع اللغة العربية.

أولاً: لا يحتج فى العربية بحديث لا يوجد فى الكتب المدونة فى الصدر الأول كالكتب الصحاح الست فما قبلها.

ثانياً: يحتج بالحديث المدون فى هذه الكتب الآنفة الذكر على الوجه الآتى :

أ- الأحاديث المتواترة والمشهورة. ب- الأحاديث التى تستعمل ألفاظها فى العبادات. ج- الأحاديث التى تعد من جوامع الكلم. د- كتب النبىﷺ.

هـ - الأحاديث المروية لبيان أنه كان ﷺ يخاطب كل قوم بلغتهم. و- الأحاديث التى دونها من نشأ بين العرب الفصحاء. ز- الأحاديث التى عرف من حال رواتها أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل: القاسم بن محمد، ورجاء بن حيوة، وابن سيرين. ح- الأحاديث المروية من طرق متعددة، وألفاظها واحدة.

الخاتـــمة ونتائج البحث

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على صاحب خاتم الرسالات.

وبعد

(1)

فلقد اتضح لنا فى الباب الأول معنى الحديث النبوى فى اللغة والاصطلاح، واتضح لنا مدى عناية النبى ﷺ بالبيان وإصلاحه وتهذيبه، ووقفنا على ما للحديث من أثر فى اللغة، والبلاغة، والأدب.

(2)

وفى الباب الثانى اتضح لنا أسباب بلاغة النبى ﷺ، وما كان للبيئة والنشأة من أثر فى بلاغته، كذلك الفطرة النقية، ونور القرآن وهديه، ووقفنا على أثر القرآن فى الحديث من ناحية الأسلوب، وما أثر عن النبى ﷺ فى تفسير القرآن مع قلته، وخصائص هذا التفسير النبوى، وما فيه من أسرار البيان، والتنوع فى الموضوع، والفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث.

(3)

وفى الباب الثالث اتضح لنا طرق أداء النبى للحديث، واستخدامه للإشارة المفهمة، والتكرار، والتصوير التعليمى المعتمد على صور ومشاهد من الواقع، كذلك التصوير المعتمد على الربط الذهنى بين المعنى المقصود، وصورة من الواقع، كما اتضح لنا معنى الحوار وأثره فى الدعوة، وأبرز طرق الحوار التى استخدمها النبى ﷺ فى الدعوة.

(4)

وفى الباب الرابع، وهو أكبر أبواب البحث وأهمها، وما قبله بمثابة المقدمات، وما بعده بمثابة المتممات. اتضح لنا دقة الإيجاز فى البيان النبوى، وذلك من خلال التطبيق على بعض الأحاديث الموجزة، كما اتضح لنا معنى الجزالة والرقة، والفرق بينهما، مع التطبيق على بعض الأحاديث الجزلة والرقيقة، ووقفنا على بعد البيان النبوى عن التكلف، وذلك من خلال التطبيق على بعض الاحاديث فى السجع، والتوازن، والطباق، والمقابلة ،والجناس وتبين لنا لم لم يأتِ القرآن والحديث مسجوعين؟، والسبب فى قلة الجناس فى البيان النبوى كما تبين لنا أن موسيقى الألفاظ قد تكون بهذه الفنون البديعية وقد تكون بغيرها، وقد تكون من ذات الألفاظ والتراكيب، ووقفنا على معنى التمثيل وتطوره، وأثر الامثال فى توضيح المعانى، وعناية البيان النبوى بضرب الأمثال والتصوير،

وجاء بعد ذلك التطبيق على بعض أحاديث التمثيل، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، ووقفنا على أسباب تأثير التمثيل بشكل عام، ولم اعتمد النبى فى بيانه على التمثيل فى كثير من المواقف والمواضع؟، وتبين لنا بعد ذلك معنى الوصف، والعلاقة بينه وبين التصوير، وتنوعه فى البيان النبوى، وبعد ذلك جاء التطبيق على نماذج مختارة من أحاديث الوصف، وتبين لنا مدى دقة الوصف فى البيان النبوى، وفى فصل القصة اتضح لنا اعتماد النبى ﷺ على القصة كأسلوب من أساليب الدعوة، والتوجيه، والإرشاد، وأن القصص النبوى أساسه الصدق والواقعية، مع تجرده للغرض الدينى، واكتمال العناصر الأساسية للقصة فيه، وتبين لنا ماتتمتع به القصة النبوية من الدقة، والإحكام، والتناسق، مع تنوعها فى موضوعات مختلفة فمنها ما جاء تفصيل لما أجمل فى القرآن، ومنها ما يتصل بالانبياء السابقين، ومنها ما يتصل بالغيبيات كالجنة والنار، ومنها ما هو من الأمثال التى ضربها النبى ﷺ، وكل هذا مع مناسبة القصص النبوى للمقام فى كل موضع، والأمثلة قد تقدمت.

(5)

وفى الباب الخامس وقفنا على معنى الأصالة، ونماذج لها من البيان النبوى، وتبين لنا خصوصية الأسلوب النبوى، وتفرده فى الفصاحة والبلاغة، وفى معانى الحديث اتضح لنا ما تتمتع به من القوة، والفخامة، والسعة والمرونة، والسهولة والوضوح، والعظمة والرفعة، والتوازن والدقة. وفى موضوع الاحتجاج بالحديث النبوى فى مجال الدراسات النحوية والصرفية وقفنا على حجج المانعين، والرد عليهم، وتبين لنا أن رأى المجوزين هو الأصح وهم الجمهور، ووقفنا على القرار الذى تبناه مجمع اللغة العربية بهذا الصدد، والضوابط التى وضعها. **وبعد فإن أحسنت فى بيان ما قصدت فمن الله، وإن كانت الاخرى فمن نفسى. وأسأل الله أن يجنبنا الزلل، وأن يتقبل منا صالح العمل. إنه نعم المولى، ونعم النصير. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.**

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

* الإتقان فى علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطى ت (911) هـ - ط دار الفكر – بيروت – (1399) هـ (1979) م.

* الاحتجاج بالحديث الشريف فى مجال الدراسات النحوية للأستاذ الدكتور / عبد العال سالم مكرم.

*أحكام القرآن للإمام أبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى المالكى ت (543) هـ - ط دار الكتب العلمية – بيروت – (1416) هـ (1996) م.

* إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى ت (505) هـ - ط دار الشعب.

* أدب الأحاديث القدسية للأستاذ الدكتور / أحمد الشرباصى – ط دار الاعتصام.

* أدب الكاتب للإمام أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ت (276) هـ - تحقيق الشيخ / محمد محى الدين عبد الحميد – ط ثانية.

* الأدب النبوى للأستاذ / عبد العزيز الخولى – ط مكتبة الثقافة الدينية – ط أولى – (1423) هـ (2003) م.

* إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبى السعود محمد العمادى ت (951) هـ - ط دار الفكر – بدون تاريخ.

* أساس البلاغة لأبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ت (538) هـ - ط مطبعة دار الكتب – ط ثانية – (1972) م.

* أسباب النزول للإمام أبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى – ط دار المعرفة– بيروت.

* أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ت (471) هـ - تحقيق الشيخ / محمد رشيد رضا - ط دار الكتب العلمية – ط أولى – (1409) هـ (1988) م.

* أسس النقد الأدبى للأستاذ الدكتور / أحمد بدوى – ط نهضة مصر – (1996) م.

* إعجاز القرآن للإمام أبى بكر الباقلانى ت (403) هـ - تحقيق الأستاذ / السيد صقر – ط دار المعارف – ط خامسة – ط دار الفكر – بهامش الإتقان.

* إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للأستاذ / مصطفى صادق الرافعى – ط مكتبة الإيمان – ط أولى – (1417) هـ (1997) م.

* الإعجاز والإيجاز لأبى منصور بن عبد الملك الثعالبى ت (429) هـ – ط مكتبة مشكاة الإسلامية.

* إعلام الموقعين عن رب العالمين للإمام أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى المعروف بابن القيم ت (751) هـ – تحقيق الأستاذ / عصام الصبابطى – ط دار الحديث – ط أولى – (1414) هـ (1993) م.

* الأعلام لخير الدين الزركلى – ط دار العلم للملايين – ط عاشرة – (1992) م.

* أقيسة النبى المصطفى ﷺ للإمام ناصح الدين عبد الرحمان الأنصارى المعروف بابن الحنبلى ت (634) هـ – تحقيق الأستاذ / أحمد جابر، والأستاذ / على الخطيب – ط المكتبة العصرية – بيروت – (1415) هـ (1994) م.

* أمثال الحديث المروية عن رسول الله ﷺ للإمام الحسن بن عبد الرحمن ابن خلاد الرامهرمزى ت (360) هـ – ط أم الكتاب للأبحاث والدراسات الإلكترونية.

* أمثال الحديث مع تقد مة فى علوم الحديث للأستاذ الدكتور / عبد المجيد محمود – ط مكتبة التراث – ط أولى.

* الأمثال فى القرآن لابن القيم – تحقيق الأستاذ / سعيد محمد نمر – ط دار المعرفة – بيروت.

* أنوار التنزيل للإمام ناصر الدين البيضاوى ت (961) هـ – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – بدون تاريخ.

* الإيضاح لتلخيص المفتاح للخطيب القزوينى ت (739) هـ – تحقيق الأستاذ / عبد المتعال الصعيدى – ط مكتبة الآداب – (1417) هـ (1997) م.

* الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير ت (774) هـ – تحقيق العلامة / أحمد شاكر – ط مكتبة دار التراث – (1423) هـ (2002) م.

* البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ت (754) هـ – تحقيق الأستاذ / صدقى محمد جميل – ط دار الفكر – بيروت – (1412) هـ (1992) م.

* البديع المصطلح والقيمة للأستاذ الدكتور / عبد الواحد علام – ط مكتبة الشباب – (1992) م.

* البديع من المعانى والألفاظ للأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعنى – ط مكتبة وهبة – ط أولى – (1423) هـ (2002) م.

* البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشى ت (794) هـ - تحقيق الأستاذ / محمد أبى الفضل إبراهيم – ط المكتبة العصرية – بيروت.

* بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للإمام مجد الدين الفيروزآبادى ت (817) هـ - تحقيق الشيخ / على النجار – ط المكتبة العلمية – بدون تاريخ.

*بغية الإيضاح للأستاذ / عبد المتعال الصعيدى – ط مكتبة الآداب – (1417) هـ (1997) م.

* بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للإمام جلال الدين السيوطى ت (911) هـ - تحقيق الأستاذ / محمد أبى الفضل إبراهيم – ط المكتبة العصرية – بيروت – (1384) هـ (1964) م.

* البلاغة الغنية للأستاذ / على الجندى – ط نهضة مصر – (1375) هـ (1956) م.

* بنو الأثير الفرسان الثلاثة للأستاذ / محمد عبد الله حمدان – ط المكتبة الصغيرة – ط أولى – (1394) هـ (1974) م.

* بهجة النفوس شرح مختصر صحيح البخارى المسمى جمع النهاية فى بدء الخير والغاية للإمام ابن أبى جمرة الأندلسى ت (699) هـ - ط مجلة الأزهر – (1423) هـ.

* البيان فى ضوء أساليب القرآن الكريم للأستاذ الدكتور / عبد الفتاح لاشين – ط دار الفكر العربى – (1420) هـ (2000) م.

* البيان القرآنى للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى – ط مجمع البحوث الإسلامية – (1391) هـ (1971) م.

* البيان النبوى للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى – ط دار الوفاء – ط ثانية (1423)هـ

* البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت (255) هـ - تحقيق الأستاذ / عبد السلام هارون – ط دار الجيل – (1410) هـ (1990) م.

* تأثير الفكر الدينى فى البلاغة العربية للأستاذ الدكتور / مهدى صالح السامرائى – ط المكتب الإسلامى.

* تاريخ الأدب العربى – العصر الإسلامى – للأستاذ الدكتور / شوقى ضيف – ط دار المعارف – ط الحادية عشرة – (1963) م.

* تاريخ الأمم والملوك للإمام محمد بن جرير الطبرى ت (310) هـ - ط دار الكتب العلمية – بيروت.

* التبيان فى المعانى والبيان للعلامة شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبى ت (743) هـ - تحقيق الأستاذ / عبد الحميد هنداوى – ط المكتبة التجارية – مكة.

* تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للعلامة أبى العلاء محمد بن عبد الرحمان بن عبد الرحيم المباركفورى ت (1353) هـ - ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى – (1410) هـ (1990) م.

* تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى للعلامة جلال الدين السيوطى – تحقيق الأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم – ط دار الكتاب العربى – (1417) هـ.

* الترغيب والترهيب للإمام زكى الدين عبد العظيم المنذرى ت (656) هـ - ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى – (1417) هـ (1996) م.

* التصوير الفنى فى القرآن للأستاذ / سيد قطب – ط دار الشروق – ط الثانية عشرة – (1412) هـ (1992) م.

* التصوير الفنى فى الحديث الشريف للأستاذ الدكتور / محمد لطفى الصباغ – ط المكتب الإسلامى – ط أولى – (1409) هـ (1988) م.

* تطور الأساليب النثرية للأستاذ / أنيس المقدسى.

* التعريفات للإمام على بن عيسى الجرجانى ت (816) هـ - تحقيق الأستاذ / إبراهيم الإبيارى – ط الريان – بدون تاريخ.

* تفسيرالبغوى المسمى معالم التنزيل للإمام محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى الشافعى

ت (516) هـ - ط دار المعرفة – بيروت – ط رابعة – (1415) هـ (1995) م.

* تفسير الطبرى المسمى جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبرى ت (310) هـ - ط دار الجيل – بيروت.

* تفسير القرآن العظيم للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير ت (774) هـ - تحقيق الأستاذ / خالد محرم – ط المكتبة العصرية – ط أولى – (1416) هـ (1996) م.

* التفسير النبوى للقرآن للشيخ / سلمان العودة – إعداد المكتب العلمى بموقع الإسلام اليوم.

* تفسير النيسابورى المسمى غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسن القمى النيسابورى – ط دار الجيل.

* تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى ت (406) هـ - تحقيق الأستاذ / محمد عبد الغنى حسن – ط دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابى الحلبى – بدون تاريخ.

* جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله للإمام أبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى ت (463) هـ - ط دار الكتب الإسلامية – ط ثانية – (1402) هـ (1982) م.

* جامع الترمذى للإمام أبى عيسى محمد بن سورة الترمذى ت (279) هـ - ط دار الكتب العلمية – ط أولى – (1410) هـ (1990) م.

* الجامع لأحكام القرآن للإمام أبى عبد الله بن أحمد القرطبى ت (671) هـ - ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط خامسة – (1417) هـ (1996) م.

* جامع الأصول فى أحاديث الرسول للإمام مجد الدين المبارك محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى الشافعى الشهير بابن الأثير ت (606) هـ - ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – ط رابعة – (1404) هـ (1984) م.

* جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لأبى الفرج عبد الرحمان بن أحمد بن رجب ت (795) هـ - ط الريان – ط أولى – (1407) هـ (1987) م.

* جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام لابن القيم – ط دار الطباعة المحمدية.

* الجمان فى تشبيهات القرآن لأبى القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا البغدادى ت (485) هـ

تحقيق الدكتور / محمد رضوان الداية – ط دار الفكر – بيروت – ط أولى – (1423) هـ (2002) م.

* جمهرة الأمثال لأبى هلال عبد الله بن سهل العسكرى ت (395) هـ - تحقيق الدكتور / أحمدعبد السلام – ط دار الكتب العلمية – ط أولى – (1408) هـ (1988) م.

* حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم – تحقيق الأستاذ / أحمد العلاوى – ط دار ابن رجب – ط ثانية – (1426) هـ (2005) م.

* حاشية الدسوقى على مختصر سعد الدين التفتازانى للعلامة محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقى المالكى ت (1230) هـ - ط دار السرور – بيروت.

* حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى للعلامة شهاب الدين الخفاجى ت (1069) هـ - ط دار إحياء التراث العربى – بيروت.

* الحديث النبوى مصطلحه، بلاغته، كتبه للأستاذ الدكتور / محمد لطفى الصباغ – ط المكتب الإسلامى – ط سادسة – (1411) هـ (1990) م.

* خزانة الأدب وغاية الأرب للشيخ / تقى الدين أبى بكر على المعروف بابن حجة الحموى ت (837) هـ - تحقيق الأستاذ / عصام شعيتو – ط دار ومكتبة الهلال – بيروت – ط ثانية (1991) م.

* الخيال فى الشعر العربى للعلامة الشيخ / محمد الخضر حسين – ط تونس – ط ثانية.

* الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جنى ت (392) – تحقيق الأستاذ / محمد على النجار – ط المكتبة العلمية – بدون تاريخ.

* دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير للأستاذ / عبد الهادى العدل – ط دار الطباعة المحمدية – ط ثالثة – (1378) هـ (1958) م.

* دراسات فى فقه اللغة للأستاذ الدكتور / صبحى الصالح – ط دار العلم للملايين – بيروت – ط الثانية عشرة – (1989) م.

* الرحيق المختوم (بحث فى السيرة النبوية) للشيخ / صفى الدين المباركفورى – ط المكتبة الثقافية – بون تاريخ.

* الرسالة العسجدية فى المعانى المؤيدية لعباس بن على بن أبى عمرو الصنعانى – تحقيق الأستاذ / عبد المجيد الشرفى – ط الدارالعربية للكتاب – ليبيا – تونس.

* رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام محى الدين النووى ت (676) هـ – مؤسسة الرسالة – ط الثالثة والعشرون – (1416) هـ (1996) م.

* زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم – تحقيق الشيخ / شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط – ط مؤسسة الرسالة – ط أولى – (1417) هـ (1996) م.

* سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام للإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعانى ت (1182) هـ – تحقيق الشيخ / طارق عوض الله – ط دار العاصمة – الرياض – ط أولى – (1422) هـ (2001) م.

* سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله يوسف بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى ت (466) هـ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى – (1402) هـ (1982) م.

* سلسلة الأحاديث الصحيحة للعلامة محمد ناصر الدين الألبانى – ط مكتبة المعارف – الرياض – ط أولى – (1416) هـ (1996) م.

* سنن أبى داود للإمام سليمان الأشعث السجستانى ت (275) هـ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط ثانية – (1415) هـ (1995) م.

* السيرة النبوية لأبى محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى ت (218) هـ – ط الحلبى – ط ثانية – (1375) هـ (1955) م.

* شرح الطيبى على مشكاة المصابيح والمسمى الكاشف عن حقائق السنن للإمام الحسين بن عبد الله الطيبى ت (743) هـ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى – (1422) هـ (2001) م.

* شرح المفصل للعلامة موفق الدين يعيش بن يعيش النحوى ت (643) هـ – ط عالم الكتب – بيروت – بدون تاريخ.

* صحيح البخارى للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ت (256) هـ - ط الرياض – ط أولى – فهرس مكتبة الملك فهد الوطنية – (1421) هت (2001) م.

* صحيح مسلم للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى ت (261) هـ - ط دار إحياء التراث العربى.

* صحيح مسلم بشرح النووى للإمام يحيى بن شرف النووى ت (676) هـ - ط دار إحياء التراث العربى.

* الصناعتين الكتابة والشعر للإمام أبى هلال الحسن بن عبد الله العسكرى ت (395) هـ – تحقيق الأستاذ الدكتور / مفيد قميحة – ط دار الكتب العلمية – ط ثانية – (1409) هـ.

* العبادة فى الإسلام للأستاذ الدكتور / يوسف القرضاوى – ط مؤسسة الرسالة - ط الثامنة عشرة – (1406) هـ (1986) م.

* عبقرية محمد ﷺ للأستاذ / عباس العقاد – ط دار الكتاب العربى – ط أولى – (1391) هـ (1971) م.

* عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكى ت (1317) هـ - ط دار السرور – بدون تاريخ.

* علم البديع للأستاذ الدكتور / عبد العزيز عتيق – ط دار النهضة العربية – (1405) هـ (1985) م.

* علم المعانى للأستاذ الدكتور / عبد العزيز عتيق – ط دار النهضة العربية – بيروت – (1405) هـ (1985) م.

* العمد ة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبى على الحسن بن رشيق القروانى ت (456) هـ - تحقيق الشيخ / محمد محى الدين عبد الحميد – ط دار الجيل – ط خامسة – (1401) هـ (1981) م.

* عون المعبود شرح سنن أبى داود للعلامة أبى الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادى – ط دار الكتب العلمية – ط ثانية – (1415) هـ (1995) م.

* فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر العسقلانى ت (852) هـ - ط الرياض – ط أولى - (1421) هـ (2001) م ز

* الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيبانى للشيخ / أحمد بن عبد الرحمان البنا الشهير بالساعاتى – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت.

* فقه اللغة وسرالعربية لأبى منصور بن عبد الملك الثعالبى ت (429) هـ - ط دار الكتب العلمية – بيروت.

* الفنون البديعية فى دائرة البحث البلاغى للأستاذ الدكتور / فوزى السيد عبد ربه – ط مطبعة الحسين الإسلامية – ط أولى – (1408) هـ (1988) م.

* الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن قيم الجوزية ت (751) هـ – تحقيق الدكتور / محمد عثمان الخشت – ط مكتبة القرآن.

* القصص فى الحديث النبوى للأستاذ الدكتور / محمد حسن الزير – ط مكتبة طيبة – الرياض – ط رابعة – (1418) هـ (1997) م.

* قطوف من الأدب النبوى للأستاذ / رياض صالح – ط دار القرآن – (1399) هـ.

* قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لمحمد جمال الدين القاسمى ت (1332) هـ - ط دار الكتب العلمية.

* الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل لأبى القاسم الزمخشرى ت (538) هـ - تحقيق الأستاذ / عبد الرزاق المهدى – ط دار إحياء التراث العربى – ط أولى – (1417) هـ (1997) م.

* كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون للعلامة مصطفى بن عبد الله القسطنطينى الرومى الحنفى الشهير بالملا كاتب الحلبى والمعروف بحاجى خليفة ت (1067) هـ - ط دار الكتب العلمية – بيروت – (1413) هـ (1992) م.

* الكليات لأبى البقاء الكفوى ت (1094) هـ - ط مؤسسة الرسالة – ط أولى – (1412) هـ (1992) م.

* كيف نتعامل مع القرآن العظيم للأستاذ الدكتور / يوسف القرضاوى – ط دار الشروق – ط رابعة – (1425) هـ (2005) م.

* لسان العرب للإمام جمال الدين محمد بن منظور ت (711) هـ - ط دار صادر – بيروت – ط ثالثة – (1414) هـ (1994) م.

* اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان للأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقى – ط المكتبة الإسلامية.

* المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين محمد بن الأثير ت (637) هـ – ط بولاق – (1282) هـ.

* المجازات النبوية للشريف الرضى ت (406) هـ – تحقيق الأستاذ / طه عبد الرؤوف سعد – ط مصطفى البابى الحلبى – ط الأخيرة – (1391) هـ (1971) م.

* مختصر سيرة الرسول للشيخ / محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمى ت (1602) هـ – ط سنة (1375) هـ (1956) م.

* المجموع المغيث فى غريبى القرآن والحديث للحافظ أبى موسى محمد بن أبى عيسى المدينى ت (581) هـ – تحقيق الأستاذ / عبد الكريم الغرباوى – ط دار المدنى – جدة – ط أولى – (1406) هـ (1686) م.

* مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر الرازى – ط مكتبة لبنان – (1999) م.

* المختصر لسعد الدين التفتازانى ت (791) هـ – ضمن شروح التلخيص – ط دار السرور – بدون تاريخ.

* مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم – ط مكتبة الإيمان – المنصورة.

* المستقصى فى أمثال العرب للزمخشرى – ط دار الكتب العلمية – ط ثانية – (1408) هـ (1987) م.

* مشكاة المصابيح للإمام محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى ت (740) هـ – تحقيق الأستاذ / محمد سمك – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى – (1422) هـ (2001) م

* المصباح المنير للإمام أحمد بن على الفيومى ت(770) هـ – ط مكتبة لبنان – (1987) م

* معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ / عبد الرحيم بن أحمد العباسى ت (963) هـ – تحقيق الشيخ / محمد محى الدين عبد الحميد – ط عالم الكتب – بيروت – (1367) هـ

* معجم الأدباء لأبي عبد الله الرومى الحموى ت (626) هـ - ط دار الكتب العلمية – ط أولى – (1411) هـ (1991) م.

* معجم الألفاظ والأعلام القرآنية للأستاذ / محمد إسماعيل إبراهيم – ط دار الفكر – ط ثالثة – (1388) هـ (1968) م.

* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقى – ط دار الحديث – ط أولى – (1406) هـ (1971) م.

* المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى – تأليف / أ. ى. ونسنك – مطبعة بريل – ليدن.

* معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت (395) هـ - تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون – ط مصطفى البابى الحلبى – ط ثانية – (1389) هـ (1969) م.

* المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية بالقاهرة – ط الثانية – ط دار الشروق الدولية – ط رابعة – (1426) هـ (205) م.

* مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة لابن قيم الجوزية – ط المكتبة التوفيقية – بدون تاريخ.

* مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن محمد السكاكى ت (626) هـ - ط مصطفى البابى الحلبى – ط أولى.

* المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ت (502) هـ - تحقيق الأستاذ / محمد خليل – ط دار المعرفة – بيروت – ط ثانية – (1420) هـ (1998) م.

* مقدمة فى أصول التفسير لشيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى ت (728) هـ - تحقيق الدكتور / عدنان زرزور – ط دار القرآن – الكويت – ط أولى – (1391) هـ (1971) م.

* الملل والنحل للعلامة عبد الكريم الشهرستانى ت (548) هـ - ط مطبعة على صبيح.

* من بلاغة الحديث النبوى للأستاذ الدكتور / محمد أحمد على سحلول – ط دار الأصالة – ط أولى – (1416) هـ (1996) م.

* من الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث النبوى الشريف للدكتورة / فتحية فرج العقدة – ط مطبعة الأمانة – ط أولى – (1414) هـ (1993) م.

* منار السبيل فى شرح الدليل على مذهب الإمام أحمد للشيخ / إبراهيم بن سالم بن ضويان ت (1353) هـ - تحقيق الأستاذ / زهير درويش – ط المكتب الإسلامى – ط سادسة – (1404) هـ (1984) م.

* مواقع علمية وبحثية من الشبكة الإلكترونية (الإنترنت) – الشبكة الإسلامية (شبكة الحديث النبوى) – موقع مكتبة مشكاة الإسلامية – موقع مجمع اللغة العربية.

* مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لأبى يعقوب المغربى ت (1110) هـ - ط دار السرور – بيروت – بدون تاريخ.

* النبأ العظيم للأستاذ الدكتور / محمد عبد الله دراز – ط دار القلم – الكويت – ط ثانية – (1390) هـ (1970) م.

* نزهة المتقين فى شرح رياض الصالحين للدكتور / مصطفى الخن وآخرين – ط مؤسسة الرسالة – ط الثالثة والعشرون – (1416) هـ (1996) م.

* نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر ت (337) هـ - تحقيق الأستاذ الدكتور / عبد المنعم خفاجى – ط مكتبة الكليات الأزهرية – ط أولى – (1398) هـ (1978) م.

* النكت فى إعجاز القرآن لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى ت (296) هـ - ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن – تحقيق الاستاذ / محمد خلف الله، والدكتور / زغلول سلام - ط دار المعارف – ط ثانية – (1387) هـ (1968) م.

* نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار للعلامة محمد بن على بن محمد الشوكانى ت (1255) هـ - ط دار الفكر – بيروت – (1319) هـ (1998) م.

* هدى السارى مقدمة فتح البارى لابن حجر العسقلانى – ط الرياض.

* وحى القلم للأستاذ / مصطفى صادق الرافعى – ط دار الكتاب – بيروت – بدون تاريخ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء.	2
مقدمة وتمهيد.	3
منهج البحث وخطته.	5
الباب الأول: الحديث النبوى وأثره فى اللغة والبلاغة والأدب.	11
الفصل الأول: الحديث ومعناه.	11
موضوع علم الحديث.	12
الفصل الثانى: عناية النبى بالبيان وإصلاحه وتهذيبه.	13
الفصل الثالث: أثر الحديث فى اللغة والبلاغة والأدب.	18
الباب الثانى: أسباب بلاغة النبى ﷺ.	21
الفصل الأول: أسباب بلاغته ﷺ.	21
أولاً: النشأة والبيئة.	21
ثانياً: الفطرة النقية والإعداد الربانى والاصطفاء.	22
ثالثاً: نور القرآن وهديه.	27
أثر البيان القرآنى فى البيان النبوى.	28
الفصل الثانى: التفسير النبوى للقرآن.	30
ضوابط حول التفسير للقرآن.	30
قلة الصحيح من التفسير النبوى للقرآن.	31
سبب قلة التفسير النبوى للقرآن.	33
الخصائص الأسلوبية للتفسير النبوى – تطبيق على بعض الأحاديث.	34
تعقيب وملاحظات.	47
الفصل الثالث: بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث.	51
الباب الثالث: الأداء والحوار فى الحديث النبوى.	51
الفصل الأول: الأداء فى الحديث النبوى.	51
منطق النبى وتمام آلة البيان عنده.	52
أولاً: الإشارة المفهمة الموضحة.	54

ثانياً: التكرار.	57
ثالثاً: التصوير التعليمى.	57
رابعاً: التصوير المعتمد على الخط والرسم.	59
خامساً: التصوير المعتمد على الربط الذهنى بين المعنى والواقع.	60
الفصل الثانى: الحوار فى الحديث ومعناه.	61
طرق الحوار فى الحديث.	65
الباب الرابع: الخصائص البلاغية لأسلوب الحديث النبوى.	65
الفصل الأول: الإيجاز وجوامع الكلم.	66
معنى الإيجاز.	67
أقسام الإيجاز.	70
تطبيق على بعض الأحاديث الموجزة.	76
الفصل الثانى: الجزالة والرقة.	76
معنى الجزالة وأوفى من تحدث عنها من البلاغيين.	79
تطبيق على بعض الأحاديث الجزلة.	81
الرقة ومعناها.	82
تطبيق على بعض الأحاديث الرقيقة.	83
الفصل الثالث: البعد عن التكلف.	84
السجع فى البيان النبوى.	84
معنى السجع.	86
أحسن السجع	87
أقسام السجع.	88
لم رفض النبى السجع فى كلام الأعرابى؟	88
لم لم يأت القرآن والحديث مسجوعين؟	89
هل يجوز إطلاق السجع على فواصل القرآن؟	90
التوازن ومعناه.	91
تطبيق على بعض الأحاديث المشتملة على السجع.	94
كثرة السجع فى أحاديث الدعاء.	94
تطبيق على بعض الأحاديث المشتملة على التوازن.	99

الموسيقى النثرية فى الحديث.	100
تطبيق على بعض الأحاديث المشتملة على الموسيقى النثرية.	102
الطباق والمقابلة ومعناهما.	103
تطبيق على أحاديث مشتملةعلى الطباق.	103
تطبيق على أحاديث مشتملة على المقابلة.	106
فن الجناس ومعناه.	107
أشهر الأحاديث المشتملة على الجناس.	108
تطبيق على أحاديث أخرى فى الجناس.	109
قلة الجناس فى الحديث النبوى وسبب ذلك.	110
فائدة الجناس.	112
الفصل الرابع: التصوير وضرب الأمثال.	112
معنى التمثيل وتطوره.	113
أهمية التمثيل وأثره فى توضيح المعانى.	113
عناية النبى بالتمثيل والتصوير.	118
من روائع التمثيل فى البيان النبوى.	131
من روائع التشبيهات النبوية.	133
من روائع الاستعارات النبوية.	142
من لطائف الكنايات النبوية.	148
الفصل الخامس: دقة الوصف فى البيان النبوى.	148
معنى الوصف عند اللغويين والبلاغيين.	149
العلاقة بين الوصف والتصوير.	150
العلاقة بين الوصف والخيال.	152
تنوع الوصف فى البيان النبوى.	152
تطبيق على بعض أحاديث الوصف الدقيقة.	172
خصائص الوصف فى البيان النبوى.	176
الفصل السادس: القصة فى البيان النبوى.	176
ضوابط وملاحظات حول القصة فى البيان النبوى.	177
تجرد القصص النبوى للغرض الدينى.	181

القصص النبوى المفصل لما أجمله القرآن.	183
القصص النبوى لمشاهد من يوم القيامة.	184
من القصص النبوى فى الحديث عن الأمم السابقة.	185
القصص التمثيلى فى البيان النبوى.	185
الباب الخامس: الأصالة والمعانى فى الحديث النبوى.	185
الأصالة ومعناها.	186
الأصالة كخصيصة من خصائص الأسلوب.	187
من شواهد الأصالة فى البيان النبوى.	188
المعانى فى الحديث.	188
خصائص المعانى فى الحديث.	190
أولاً: السهولة والوضوح.	190
ثانياً: التنوع والشمول.	193
ثالثاً: المرونة والسعة.	193
رابعاً: السمو والرفعة.	194
خامساً: القوة والفخامة، والعظمة والأصالة.	194
الفصل الثانى: الاحتجاج بالحديث النبوى فى النحو والصرف.	194
المانعون للاحتجاج.	195
المجوزون للاحتجاج.	196
المتوسطون بين الفريقين.	196
حجج المانعين.	201
الرد على حجج المانعين.	202
قرار المجمع اللغوى وضوابطه فى الاحتجاج بالحديث.	204
الخاتمة والنتائج.	216
فهرس المصادر والمراجع.	
فهرس الموضوعات.	